سالمة بنت سعيد

(اميلي رويته)



مذكرات أميرة عربية



ترجمة: د. سالمة صالح

منشورات الجمل

سالمة بنت سعيد
(اميلي رويته)

مذكرات أميرة عربية

ترجمة: د. سالمة صالح

منشورات الجمل

مذكرات أميرة عربية

ولدت سالمة صالح ١٩٤٢ في الموصل/ العراق. درست القانون في جامعة بغداد والصحافة في جامعة لايبزج في ألمانيا حيث حصلت على الدكتوراه عام ١٩٨٦ عن اطروحة حول اتجاهات تطور الصحافة في العالم. عملت في الصحافة العراقية والعربية، ونشرت العديد من القصص في الصحف والمجلات الأدبية. تعيش في برلين منذ عام ١٩٨٣. من أعمالها الأدبية: زهرة الأنبياء، ذكريات (دمشق ١٩٩٤)، شجرة المغفرة، قصص (دمشق ١٩٩٦)، وفي الترجمة: انغبورغ باخمان: العام الثلاثون، قصص (بيروت– كولونيا ١٩٩٨)، كريستا فولف: كاسندرا، رواية (بيروت– كولونيا ١٩٩٩)، كريستا فولف: ميديا. أصوات، رواية (بيروت– كولونيا ٢٠٠٢)، كريستا فيشتريش: المرأة والعولمة (بيروت– كولونيا ٢٠٠٢).

سالمة بنت سعيد: مذكرات أميرة عربية، ترجمة: د. سالمة صالح

الطبعة الأولى، كولونيا – ألمانيا

الطبعة الثانية، ٢٠٠٦

هذه الترجمة العربية الكاملة عن الألمانية لهذا الكتاب

Memoiren einer arabischen Prinzessen, Berlin 1886

Postfach 210149 . 50527 Köln . Germany
Tel: 0221 736982 . Fax: 0221 7326763
E-Mail: KAlmaaly@aol.com

مقدمة المترجمة

غادرت الأميرة سالمة بنت سعيد عام ١٨٦٧ زنجبار لتتزوج التاجر الألماني الذي أحبته، هاينريش رويته، وتعيش في ألمانيا. لكن زوجها توفي في حادث في شتاء ١٨٧٠، فبدأت بالنسبة لها كأم لثلاثة أطفال حياة كفاح شاقة، لا نعرف عنها إلا القليل. فقد تنقلت بين عامي ١٨٧٠ و١٨٨٥ من مدينة إلى أخرى: دارمشتادت، دريسدن، رودولشتادت، برلين وكولونيا، وحاولت في بعض هذه المدن أن تكسب بعض المال بتدريس اللغة العربية، إلا أن ما أعاق عملها لم يكن قلة الراغبين في التعلم فحسب وإنما أيضا فضول طلابها بشأن وضعها الارستقراطي، مما كان يجرح كبرياءها. وقد عاشت السنوات الأخيرة من حياتها في بيت والدي زوج ابنتها في مدينة يينا.

وبالمقابل نتعرف فيها من خلال مذكراتها على امرأة ذكية وطموح لم تكتف بدور المرأة والأم وحسب وإنما حاولت أن تقتحم عالم السياسة والدبلوماسية وشغلتها شؤون ومشكلات وطنها زنجبار رغم إقامتها في ألمانيا.

لم تكتب سالمة بنت سعيد هذه المذكرات التي نشرتها عام ١٨٨٦ للنشر في الأصل، فقد دونتها وهي في وضع نفسي وجسدي اعتقدت معه أنها لن تعيش حتى يبلغ أطفالها سنا تستطيع أن تروي لهم فيها شيئا عن حياتها. لكن بعض أصدقائها أقنعها بنشر هذه المذكرات. فتهيأ لنا بذلك كتاب عن الحياة في بيت سلطان عربي من القرن التاسع عشر لا نكاد نعرف عنها شيئا. ولما كان الكتاب موجها إلى القارىء الألماني الذي لا يكاد يعرف شيئا عن بلد بعيد مثل زنجبار، حاولت كاتبة المذكرات تقريب بعض الصور فيوم الجمعة هو (يوم أحد المسلمين)، وشجرة البرتقال هي شجرة في حجم شجرة كرز كبيرة، وأمراض التخمة التي يصاب بها المرء أثناء الرحلات تشبه (أمراض أعياد الميلاد هنا).

لم يترجم الكتاب إلى اللغة العربية من اللغة الألمانية (اللغة التي كتب بها) مباشرة حتى الآن، إذ كان الدكتور عبد المجيد القيسي قد ترجمه إلى العربية معتمدا ترجمتين إلى الانكليزية صدرت الأولى عام ١٨٨٨ ونشرت الثانية عام ١٩٠٥. وحاول كما يذكر في مقدمته التوفيق بينهما. من الواضح أن الترجمة الانكليزية التي اعتمدها القيسي كانت قد دمجت بعض الفصول ونقلت مقاطع كثيرة من موضعها ووضعتها في سياق آخر دون أن تخلّ بالمعنى العام. كما لم تخل تلك الترجمة من الأخطاء التي تخلّ بالمعنى فقد ورد في فصل "الأمراض والعلاج الطبي" أن العرب كانوا يمسحون جلد المصاب بالجدري بالدم، وهو في النص الكركم، وكما هو معروف فإن

الكركم مادة شافية للجروح عرفتها الشعوب البدائية في الهند، وتحول الندى الذي يتجمع على أوراق الموز ويستخدم في علاج السعال الديكي إلى عصير يستخرج من أوراق الموز. وفي سياق حديث الكاتبة عن الرق تنقل عن ب. ريشارد أنه استيقظ ذات ليلة على صراخ امرأة طرقت بابه على أثر خصامها مع زوجها، تريد أن تكسر شيئا ثمينا له لتصبح بذلك مدينة له، فيستطيع أن يمتلكها كأمة لقاء هذا الدين، لكن النص العربي يتحدث عن امرأة تخاصمت مع زوجها وأتلفت له بضاعة نفيسة، وبينما تتحدث الكاتبة في الفصل "سيد برغش في لندن" عن الخبرة التي اكتسبتها في الآداب الدبلوماسية، ينفى نص الترجمة السابق هذه الخبرة "والظاهر أنني ما أزال غرة جاهلة بالأساليب واللغة الدبلوماسية". وقد حاولت الترجمة السابقة تفسير النص في بعض المواضع "فتذكر المذكرات مثلا أن الأميرة سالمة إستأجرت مزرعة بوبوبو لأن مالكها لم يرد بيعها، ولأنها لم تعد إلى ذكر المالك لدى الحديث عن تخليها عن هذه المزرعة للقنصل الانكليزي بطلب من أخيها ماجد، فقد ذهبت الترجمة إلى أنها اشترت المزرعة، وغير هذا كثير. ومن أجل أن يبدو النص سائغا فقد جرى الإسهاب في الوصف في مواضع عديدة دون الإلتزام بدقة الترجمة، فإذا ما ورد في النص الحقول، جاءت في الترجمة "حقول القمح والشعير، أو ولدت له إبنة سوداء كالقار أصبحت سوداء جميلة وهكذا."

وإذا كان الفضل في تعريف القاريء العربي بالكتاب لأول مرة

يعود إلى الدكتور القيسي الذي قدم لنا نصا جميلا سائغا، إلا أن هذا النص فقد قيمته الوثائقية مرة بسبب الحذف ومرة بسبب الإضافة والإسهاب في الوصف الذي يعتمد على المعرفة الشخصية بالموضوع أكثر مما يعتمد على النص.

د.سالمة صالح

مقدمة المؤلفة

مرت تسع سنوات منذ أن سجلت هذه الأفكار، كتبت شيئا من حياتي لأطفالي الذين لم يعرفوا عن أصولي أكثر من أنني عربية وأنني أنحدر من زنجبار. كنت يومذاك منهكة جسديا ونفسيا، و لم أعتقد أنني يمكن أن أعيش من أجلهم حتى يكبروا، لأستطيع أن أحدثهم عن تقلب مصيري وذكريات صباي. لذلك قررت أن أكتب لهم تجاربي. قمت بهذا بمحبة كبيرة وتفان. فعلته حقا لأطفالي الغالين الذين عزاني حنوهم في السنوات العصيبة، و لم تنضب مشاركتهم العميقة في همومي التي كثيرا ما كانت ثقيلة.

وهكذا فإنني لم أكتب مذكراتي للنشر وإنما لأطفالي الذين أردت أن أترك لهم كوصية حبا أموميا صادقا. ولكنني قررت بعد أن حاول أكثر من شخص إقناعي أن أنشرها أخيرا.

كنت قد انتهيت هذه الأوراق منذ سنوات، و لم أضف إليها سوى المقطع الأخير. وقد نشأ هذا في أعقاب زيارة تيسرت لي ولأطفالي في السنوات السابقة إلى زنجبار، وطني القديم.

فعسى أن ينشر كتابي هذا ويطوف في الغربة، ويقرؤه أصدقاء كثيرون.

أميلي رويته

أميرة عمان وزنجبار بالولادة

برلين ، في أيار ١٨٨٦

بيت المتوني

ولدت في بيت المتوني، أقدم قصورنا في جزيرة زنجبار وعشت هناك حتى سن السابعة.

يقع بيت المتوني على البحر، ويبعد حوالي ثمانية كيلومترات عن مدينة زنجبار، في محيط جميل للغاية، مختفيا تماما في بستان أشجار جوز هند هائلة، وأشجار مانجو ونباتات استوائية عملاقة أخرى. استمد مكان ولادتي "بيت المتوني" اسمه من نهر المتوني الصغير الذي يبعد بضع ساعات قادما من الداخل، متشعبا إلى عدد كبير من الامتدادات التي تشبه الأحواض، يخترق القصر بأكمله ويصب خلف أسواره مباشرة في ذراع البحر الرائع الذي ينشط فيه المرور ويفصل الجزيرة عن القارة الأفريقية.

تمتد ساحة واسعة واحدة بين البنايات الكثيرة التي يتكون منها بيت المتوني. نتيجة لاختلاف أنواع هذه البنايات التي أقيمت تدريجيا حسب الحاجة، حيث يمكن للمرء أن يقول عن الكل بممراته ودهاليزه التي لا تحصى والتي يتيه فيها من لا يعرفها إنه أقرب إلى القبح منه إلى الجمال. لا تعد أيضا غرف قصرنا. لقد غاب عن ذاكرتي تقسيم

الغرف، وعلى العكس لا زلت أتذكر بدقة تماما الحمامات الكثيرة في بيت المتوني. كانت دزينة من الغرف تقوم في صف في الطرف الأقصى من الفناء، حتى أن المرء ما كان ليستطيع الوصول إلى هذا المكان المنعش المحبوب في الأيام المطيرة إلا وهو يحمل مظلة. وكان يقوم في الطرف الآخر في معزل عن غيره ما يسمى بالحمام "الفارسي"، وهو في الحقيقة حمام بخار تركي، فريد في طراز بنائه الفني في زنجبار.

كان كل حمام يتكون من غرفتين يقرب طول كل منهما من أربعة أمتار وعرضها ثلاثة أمتار. وكان عمق الماء فيها يصل إلى صدر الشخص الراشد.

كان جميع سكان البيت يحبون هذه الحمامات المريحة، حيث يمضي أغلبهم عدة ساعات من اليوم هنا، يصلون، ينامون، يعملون، يقرأون وحتى يأكلون ويشربون. لا تتوقف الحركة هنا من الرابعة صباحا وحتى منتصف الليل. فقد كان المرء يرى أشخاصا داخلين أو خارجين نهارا وليلا.

ما أن يعبر المرء باب واحد من هذه الحمامات التي بنيت بطريقة واحدة داخلا، حتى يرى دكتين للاستراحة إلى اليمين واليسار مفروشتين بحصر فاخرة ملونة، يصلي المرء فوقها أو يستريح. تخلو هذه الغرف من السجاد وكل ما يعتبر بذخا. يحتاج كل مسلم للصلاة ثوبا نظيفا نظافة تامة، لا ينبغي استعماله إلا لهذا الغرض، ويكون أبيض اللون إذا أمكن. الأكثر ورعا وحدهم بالطبع يتبعون فرض

الدين غير المريح هذا بدقة كبيرة.

تفصل حجرات الاستراحة هذه عن أحواض الماء التي توجد تحت سماء مفتوحة، ممرات ذات أعمدة. ثم يقود جسران حجريان مقوسان بدرجات، صاعدين من الأحواض صعودا هينا إلى غرف أخرى منفصلة تماما.

لكل حمام رواده الخاصون، وويل لمن لا يلتزم بدقة بهذا التمييز. لقد سادت في بيت المتوني روح طبقية كبيرة لدرجة أنها روعيت من قبل الأعلى والأدنى بكل رسمية بنفس المقدار.

تزدهر أشجار برتقال بحجم أشجار الكرز الكبيرة في صفوف كثيفة على طول واجهة بيوت الإستحمام. ولطالما وجدنا فيها كأطفال صغار ملجأ وحماية، خوفا من معلمتنا الصارمة صرامة مخيفة.

كان الناس والحيوانات يتواجدون معا بصورة مريحة تماما في الفناء العظيم بأكمله، دون أن يسبب بعضهم للآخر أي مضايقة، كانت ثمة طواويس وغزلان، دجاج ماء وغرانيق وأوز، وبط ونعام تتجول بحرية، يحيطها الصغار والكبار بالعناية ويطعمونها. وكان يسعدنا نحن الصغار على الدوام أن نجمع البيض الكثير الموضوع هنا وهناك، خاصة بيض النعام الكبير ونحمله إلى كبير الطهاة، الذي اعتاد أن يكافئ جهدنا بمختلف أنواع الحلوى.

كنا نتلقى نحن الأطفال من سن الخامسة في هذه الساحة دروسا في ركوب الخيل لدى الخصيان مرتين في اليوم، في الصباح الباكر

وفي المساء، بينما كان سكان حديقة حيواناتنا الصغيرة يتابعون حياتهم دون كلفة. حالما نكون قد نلنا ما يكفي من التدريب في هذا الفن يحصل كل منا على دابة خاصة به هدية من أبينا. كان يسمح للصبيان أن يختاروا بأنفسهم حصانا من الحظيرة، بينما كنا نحصل نحن الفتيات على حمير مسقطية كبيرة ناصعة البياض، أغلى ثمنا في الغالب من الخيول العادية. وكانت هذه الحيوانات الجميلة طبعا مزودة بكامل عدتها.

كان ركوب الخيل في البيوت العائلية من هذا الطراز المتعة الرئيسة، إذ لم يكن هناك لا مسرح ولا حفلات موسيقية للترفيه. و لم يكن نادرا أن تجري سباقات في الخلاء، كثيرا ما تنتهي للأسف بحادث. وقد كاد أحد هذه السباقات أن يكلفني حياتي. لم أر وأنا في غمرة حماستي الشديدة، وكي لا أدع أخي حمدان يسبقني، نخلة عظيمة محنية الجذع سدت علي الطريق فجأة. لم أنتبه إلى العائق غير المتوقع إلا حين أصبح جذع الشجرة أمام جبيني. فزعة ألقيت بنفسي إلى الوراء ونجوت كما لو بأعجوبة من الخطر الذي تهددني. كانت السلالم الكثيرة التي ليس ثمة ما يضاهيها في شدة الانحدار من خصائص بيت المتوني، إذ تبدو درجاتها وكأنها قد بنيت من أجل العملاق غولياث. كان معظمها يصعد بصورة عمودية دون توقف أو انعطاف أو فسحات إستراحة، حتى أن المرء ما كان يستطيع أن يرتقيها إلا بأن يسحب نفسه على السياج البدائي صاعدا. وكانت حركة الهبوط على هذه الدرجات دائبة مما يوجب إصلاح سياجها على الدوام. لا

زلت أتذكر الذعر الذي انتاب جميع ساكني جناحنا حين وجدوا ذات صباح سياج سلمنا الحجري الذي كان ارتقاؤه صعبا في كل الأحوال، قد انهدم كلا جانبيه في الليل في نفس الوقت، ويدهشني حتى اليوم أن أحدا لم يصبه أذى على هذا السلم رغم ازدحام المرور عليه ليلا ونهارا.

ولأن الإحصاء في زنجبار شيء غير معروف، فما كان أحد ليعرف كم عدد النفوس الذين كانوا يسكنون البيت. إذا أردت التخمين فلا أعتقد أنني أبالغ إذا قدرت عدد سكان بيت المتوني عامة بألف شخص. ولكي يفهم المرء هذا عليه ألا يغفل أنه من التقاليد في كل مكان في الشرق، أن يجري تشغيل أيد كثيرة جدا، حين يريد المرء أن يعتبر وجيها وغنيا. وليس عدد سكان قصر أبينا الآخر أيضا، بيت الساحل الواقع في المدينة، أقل منه.

يشغل أبي السيد سعيد، إمام مسقط وسلطان زنجبار، الجناح الواقع قريبا من البحر في بيت المتوني مع زوجته الرئيسة، التي تربطها به قرابة بعيدة. إلا أنه كان يقيم هنا في الريف أربعة أيام من الأسبوع فقط. أما ما يتبقى من الوقت فإنه يقضيه في بيت الساحل، قصره في المدينة. لقب الإمام هو لقب ديني من النادر جدا أن يمنح لحاكم. ويعود الفضل فيه إلى جدي الأكبر أحمد في الأصل. منذ ذلك الحين أصبح هذا اللقب يورث لعائلتنا بأجمعها، فلكل واحد منا الحق في أن يرفقه بإسمه.

ولأنني كنت واحدة من أصغر أطفال والدي، فإنني لم أره دون

لحيته البيضاء المهيبة. كان طوله يزيد عن المتوسط، ووجهه يتسم بما يُشعر بالانجذاب والارتياح بصورة استثنائية، وكان بذلك ظاهرة تفرض الاحترام من كل النواحي. رغم حبه للحرب والفتوحات كان النموذج لنا جميعا كرب للعائلة أو كأمير على السواء. لم يعرف ما هو أعلى من العدالة، وإذا ما حدث تجاوز لم يكن ثمة فرق بالنسبة إليه بين إبنه أو عبد بسيط. وكان قبل كل شيء هو الخشوع بعينه أمام الله العلي. لم يكن يعرف الكبرياء المتبجحة مثل الكثير من الأمراء. وحين كان عبد عادي قد اكتسب احترامه باخلاصه في خدمته فترة طويلة، يقيم حفل زواج، فلم يكن أمرا نادرا أن يوعز بلجم فرسه ليمتطيها ويذهب وحده لتهنئة الزوجين بنفسه. وكان يسميني "العجوز" بسبب حبي لحساء الحليب البارد الذي يحبه عندنا الشيوخ الدرد.

كانت أمي شركسية الأصل، انتزعت في وقت مبكر من وطنها. كانت قد عاشت في سلام مع أبيها وأمها وأخويها، وكان أبوها مزارعا. ثم إذ اندلعت الحرب، وامتلأت البلاد بأفواج اللصوص، لجأت العائلة بأكملها إلى مكان تحت الأرض، كما تقول أمي، ولا بد أنها كانت تعني قبوا، وهو ما لم نكن نعرفه في زنجبار. لكن قطيعا متوحشا اقتحم هذا الملجأ أيضا، قتلوا الأب والأم واختطف ثلاثة من الألبان الأطفال الثلاثة ومضوا بهم على خيولهم. اختفى الأول الذي يحمل الأخ الأكبر عن أنظارهم بعد وقت قصير، بينما بقي الإثنان اللذان حملا أمي وأختها الصغرى ذات السنوات الثلاث التي لم تتوقف عن الصراخ طالبة أمها، معا حتى المساء، ثم انفصلا و لم تسمع

أمي عن أختها وأخيها شيئا ثانية.

وصلت أمي إلى حيازة أبي وهي لا تزال طفلة، يبدو أنها كانت في سن السابعة أو الثامنة، فقد فقدت في بيتنا أول أسنانها اللبنية، وسرعان ما أصبحت وحتى سن اليفاعة رفيقة في اللعب لاثنتين من أخواتي كانتا في مثل سنها ونشأت وعوملت مثلهما. تعلمت القراءة معهما أيضا، وهي فن رفعها عاليا عن مثيلاتها اللائي كن يأتين غالبا بين سن السادسة عشرة والثامنة عشرة إن لم يتجاوزن هذه السن، فلا يشعرن بالطبع برغبة في الجلوس مع أطفال صغار تماما على حصيرة المدرسة القاسية. لم تكن أمي جميلة ولكنها كانت طويلة القامة وقوية البنية ذات عينين سوداوين وشعر أسود يصل إلى ركبتيها. وقد كانت رقيقة الطبع لا تحس بفرح عميق كفرحها حين تكون قادرة على مساعدة الآخرين. فإذا مرض أحد كانت الأولى التي تهتم به وتقوم برعايته عند الضرورة. لا زلت أرى صورتها اليوم أمامي تحمل كتبها وتمضي من مريض إلى آخر لتقرأ لهم نصوصا دينية.

وكانت لها لدى أبي حظوة دائما، فلم يرفض لها أيا من طلباتها التي كانت غالبا من أجل الآخرين. كان يتقدم لاستقبالها بانتظام حين تأتي إليه، وهو امتياز نادر. كانت طيبة وورعة، شديدة التواضع، صادقة وصريحة. لم تكن متفوقة من الناحية الثقافية ولكنها كانت ماهرة في الأعمال اليدوية. ولدت اثنين من الأطفال فقط، فقد كان لها عداي إبنة أخرى توفيت وهي صغيرة جدا. كانت بالنسبة لي أما محبة حنونا، ولكن هذا لم يمنعها من معاقبتي بشدة حين

كان ذلك ضروريا.

كان لها في بيت المتوني أصدقاء كثيرون، وهو أمر نادر في بيت حريم عربي. كانت ثقتها بالله راسخة إلى أقصى حد، لا تتضعضع. لا زلت أتذكر حريقا شب ذات ليلة مقمرة في أحدى الحظائر وما حولها بينما كان أبي وجميع رجاله في المدينة، كان لي من العمر خمس سنوات في أقصى الأحوال، ارتفع لغط في الدار بأنها هي أيضا مهددة بالخطر المباشر فما كان منها إلا أن حملتني فوق ذراع وحملت بالأخرى قرآنها مسرعة إلى العراء. أما الباقي فلم يكن له قيمة لديها في ساعة الخطر هذه.

كان لأبي في حياتي زوجة واحدة قدر ما أتذكر، أما باقي النساء فكن سراري (الواحدة سرية)، وكان عددهن لدى موته سبعا وسبعين، اشتراهن جميعا واحدة بعد الأخرى. وكانت زوجته الشرعية عزة بنت سيف، وهي أميرة عمانية، صاحبة الكلمة المطلقة في البيت. كانت تملك رغم صغر حجمها وعدم وجود ما يميزها في المظهر، سلطة كبيرة على أبي، حتى أنه كان يتبع تعليماتها طائعا. وكانت متعجرفة إزاء النساء الأخريات وأطفالهن، متعالية ومتطلبة. وكان من حسن حظنا أنه لم يكن لها أطفال، وإلا لكان طغيانها لا يطاق. جميع أولاد أبي - وكان عددهم لدى موته ٣٦ - من أبناء السراري. وكنا بذلك متساوين فيما بيننا، ليس ثمة ما يميزنا عن بعضنا.

كان الجميع من علا شأنه أو صغر على السواء يخافون بيبي عزة

التي كان على الكل صغارا وكبارا مخاطبتها بالسيدة، ولكن دون أن يحبها أحد. لا زلت أتذكر حتى اليوم كيف كانت تمر أمام الكل بتصلب ونادرا ما تحدثت إلى أحد بلطف. كان أبي الشيخ الطيب على العكس منها سواء تعلق الأمر بشخص ذي مكانة رفيعة أو متدنية. لقد عرفت زوجة أبي كيف تتمتع بمكانتها العالية بشكل استثنائي، وما كان أحد يجرؤ الإقتراب منها إن لم تشجعه بنفسها. لم أرها تسير دون حاشية، باستثناء ذهابها مع أبي إلى الحمام الذي كان مخصصا لهما وحدهما. وكان كل من يقابلها في البيت يقف احتراما، كما يقف المجند في مواجهة جنرال.

وهكذا كان الجميع يشعرون تماما بالضغط الذي تمارسه من فوق ولكن دون أن تفقد بيت المتوني جاذبيته بالنسبة لسكانه. لقد كانت التقاليد تقضي أن يذهب جميع أخوتي الصغار والكبار على السواء إليها في الصباح ليحيوها. ولكن كان الجميع لا يحبها حتى ندر أن يذهب أحد إليها قبل تقديم الإفطار الذي كانت تتناوله في جناحها، وهكذا نغصت عليها متعة الفرح بالطاعة التامة التي تطلبها من الآخرين.

عاش في بيت المتوني أكبر أخواتي. كان يمكن لبعضهن مثل شيخة وزوينة أن تكون جدتي ببساطة. فقد كان للأخيرة ابن، علي بن سعود، لم أره إلا وكان الشيب قد وخط لحيته، أما هي فكانت أرمل وجدت في بيت أبويها ملاذا بعد وفاة زوجها.

لم يفضل الأبناء الذكور على البنات في أوساطنا العائلية، كما

يفترض الكثيرون هنا. ولا أعرف حالة واحدة فضل فيها أب وأم أن يكون لهما إبن وليس إبنة، أو فضلا الإبن عليها لأنه ذكر وحسب. لا شيء من هذا كله. وإذا كان القانون قد فضل الغلام على أخواته في أشياء كثيرة وأقر له بالامتيازات كما هي الحال في تقسيم الميراث، فإن الأطفال كانوا يتلقون نفس المعاملة ونفس المحبة. قد يفضل طفل على الآخرين هناك في الجنوب كما هو الحال هنا، بنفس المقدار سواء كان صبيا أم بنتا، رغم أن ذلك لا يكون معلنا، وإنما في السر، فهو أمر طبيعي وبشري. وهكذا كان الأمر مع أبينا أيضا. ولكن لم يكن الأبناء الذكور أطفاله المحببين وإنما اثنتان من بناته هما شريفة وخولة. مرة، وكنت في التاسعة من عمري، أصابني في الخاصرة سهم من قوس أخي المتهور حمدان، وهو في مثل سني، ولم يصبني لحسن الحظ إصابة شديدة الخطورة. حين علم أبي بالقصة قال لي: "سالمة، إذهبي ونادي حمدان". ولم أكد أحضر مع أخي حتى انهال عليه بأقسى كلمات التأنيب التي ظل يتذكرها زمنا طويلا. في هذه النقطة لا يكاد المرء هنا يعرف شيئا. الأمر يتوقف في كل مكان على الأطفال أنفسهم، وإنه ليس من العدل بالتأكيد معاملة الأطفال القساة مثل الأطفال المهذبين وعدم وضع فوارق واضحة بينهم.

كان أجمل مكان في بيت المتوني هو البنديلة أمام البيت الرئيس، الواقعة على البحر مباشرة، شرفة عظيمة مستديرة، كان بإستطاعة المرء أن يقيم فيها حفلة كبيرة بشكل مريح، لو كان مثل هذا معروفا أو معتادا لدينا. كانت تشبه بأكملها عجلة دوارة ضخمة، فقد كان

سقفها طبقا للبناء، مستديرا أيضا. بني الهيكل بأكمله، الأرض والدرابزينات وكذلك السقف الذي له شكل الخيمة من الخشب المدهون. كثيرا ما كان أبي الطيب يمضي هنا ساعات طويلة جيئة وذهابا مفكرا ورأسه منحن. كان يضلع قليلا بسبب رصاصة أصيب بها في الحرب، استقرت في فخذه وكثيرا ما سببت له ألما، وأثقلت خطوة الرجل المهيب.

كانت تحيط البنديلة كراس كثيرة من الخيزران، بضع دزينات منها بالتأكيد، وكان ثمة منظار عظيم للاستخدام العام، ولا شيء آخر عدا ذلك. كان المنظر الذي تطل عليه البنديلة المرتفعة بالغ الروعة. اعتاد أبي وعزة بنت سيف وأولاده الكبار أن يتناولوا القهوة هنا عدة مرات في اليوم. وكان من أراد أن يكلم أبي دون أن يزعجه أحد يأتيه إلى هنا وليس إلى مكان آخر، حيث يكون في ساعات معينة وحيدا.

وكانت ترسو في مواجهة البنديلة سفينة "الرحماني" الحربية طوال العام. وهي مخصصة لغرض واحد وحسب، إطلاق المدفع في شهر رمضان لايقاظ الناس ولتنبيه قوارب التجذيف الكثيرة التي نحتاجها. كانت ثمة صارية مرتفعة تحت البنديلة، رفعت عليها أعلام للإشارات البحرية تنقل الأوامر ما إذا كان يطلب قدوم عدد كبير أو صغير من القوارب والبحارة إلى الشاطيء.

أما المطبخ فكانت تعد فيه سواء في بيت المتوني أو بيت الساحل عدا الأطعمة العربية الأطعمة الفارسية والتركية أيضا. فقد عاشت في البيتين أجناس مختلفة. وكان الجمال الساحر وعكسه تماما موجودين

بين هؤلاء بوفرة. ولكن لم يسمح لنا بلبس غير الزي العربي، والسواحيلي للزنوج. فإذا ما جاءت إمرأة شركسية بملابسها ذات التنورة العريضة أو حبشية بزيها الرائع ذي القماش الملفوف عليها، توجب عليها أن تخلع هذه الثياب وتلبس الثياب العربية المخصصة لها خلال ثلاثة أيام.

وكما يتوجب على أي امرأة محترمة هنا أن تمتلك قبعة وقفازا كأشياء ضرورية، فإن الأمر مثله لدينا فيما يتعلق بالحلي. فالحلي هي جزء من مكملات الزي الضرورية تماما، حتى أن المرء يرى متسولات يذهبن لممارسة عملهن بمثل هذه الحلي. كان لأبي في كلا بيتيه في زنجبار وفي قصوره في مسقط في مملكة عمان خزائن كنوز خاصة، مليئة بعملات اسبانية كبيرة من الذهب، وغينية وفرنسية وألمانية. ولكن عدا هذا كان جزء كبير منها حليا نسائية مختلفة، من البسيطة وحتى التيجان المرصعة بالماس، كل هذا اقتني ليقدم هدايا. كلما زاد عدد أفراد العائلة سواء عن طريق شراء سرار أو ولادة أمراء وأميرات وهو ما يحدث كثيرا، افتتح باب الخزانة لتقديم الهدية للقادم الجديد حسب مرتبته ومكانته. فقد اعتاد أبي حين يولد طفل، أن يزور الوليد والأم في اليوم السابع حاملا معه حليا هدية للرضيع. وكذلك كانت السرية الجديدة تحصل عند وصولها مباشرة هدية من الحلي الضرورية، وكان رئيس الخصيان يخصص لهن الخدم.

كان أبي غريبا فيما يتعلق بمحيطه رغم أنه كان شخصيا يحب البساطة الشديدة لنفسه. لم يسمح لنا جميعا أبدا أن نظهر أمامه في

غير الزي الكامل، من الأبناء وحتى أصغر الخصيان. كنا نحن الفتيات نعقد شعرنا في ضفائر دقيقة كثيرة (يصل عددها إلى العشرين غالبا)، تربط نهاياتها بصورة مائلة من الجهتين، وتتدلى في الوسط حلية ذهبية ثقيلة مرصعة بالأحجار الكريمة غالبا، أو كانت تعلق بكل ضفيرة قطعة نقود ذهبية كتبت عليها آيات قرآنية، وهي أجمل من التسريحة الأخرى الموصوفة أعلاه. كانت هذه الحلي تنزع عنا عند الذهاب إلى النوم ويعاد ربطها في الصباح التالي.

كنا نضع نحن الفتيات حتى الوقت الذي يكون علينا فيه أن نتحجب خصلة شعر إضافية مثل التي تستعمل هنا. ذات صباح ركضت دون أن أنتظر زينة الشعر هذه إلى أبي دون أن ينتبه إلي أحد لأحصل منه على الحلوى الفرنسية التي كان يقدمها لنا نحن الصغار كل صباح، ولكن بدلا من أن أحصل على الحلوى المشتهاة أخرجت من الغرفة وأعادني أحد الخدم إلى المكان الذي جئت منه. منذ ذلك الوقت تجنبت الظهور أمامه دون ارتداء الزي الكامل.

كانت أكثر صديقات أمي حميمية أختي زيانة وزوجة أبي مدينة. كانت زيانة وهي ابنة امرأة حبشية، في مثل عمر أمي، وكانتا تحبان بعضهما حبا لا يوصف. وكانت زوجة أبي مدينة شركسية هي الأخرى، من هنا نشأت صداقتها لأمي فقد كانتا وكذلك أيضا ساره، زوجة أخرى لأبي، تنحدران من نفس المنطقة. كان ولدا ساره هما أخي ماجد وأختي خدوج، وكان الأول يصغر أخته بضع سنوات. وكانت أمي قد عقدت اتفاقا مع صديقتها ساره، أن تتولى

إذا ماتت ساره أولا تربية طفليها ماجد وخدوج، والعكس أيضا.
ولكن حين ماتت ساره كانت خدوج وكذلك ماجد قد كبرا و لم يكونا بحاجة إلى مساعدة أمي أبدا طيلة إقامتهما في البيت الأبوي.
كان المتعارف عليه لدينا، أي في عائلتي أن يتابع الصبيان بعد سن اليفاعة أيضا، حتى سن الثامنة عشرة أو العشرين العيش مع أمهاتهم في البيت الأبوي وكان عليهم أن يخضعوا تماما لنظام البيت. فإذا بلغ أمير هذه السن فإن أبي سيعلن كمال أهليته إن عاجلا أو آجلا حسب حسن سلوكه أو رداءته. عند ذاك يحق له أن يعتبر نفسه من الراشدين، وهو تكريم ينتظره المرء هناك أيضا بفارغ الصبر. يحصل كل أمير في هذه المناسبة على بيت خاص به وخدم وخيول وكل ما يحتاج إليه، إلى جانب منحة كافية، تدفع له شهريا.

بلغ أخي ماجد هذا التكريم، وقد حصل عليه بسبب شخصيته الكاملة أكثر مما بسبب السن. كان ماجد هو التواضع بعينه، كسب قلوب جميع من كان يتعامل معهم في كل مكان بشخصيته المحبوبة الودودة. لم يكن يمضي أسبوع دون أن يأتي فيه إلينا من المدينة راكبا، (فقد كان يسكن مثل أمه سابقا في بيت الساحل) ورغم أنه كان يكبرني بما يقرب من اثنتي عشرة سنة كان يستطيع اللعب معي كما لو كنا في نفس العمر.

وقد جاء إلينا ذات يوم منفعلا بفرح ليبلغ أمي حالا أن أبي أعلن بلوغه سن الرشد، وجعله يقف على قدميه وحصل على بيت خاص به. ثم رجانا بإلحاح، أمي وأنا، أن ننتقل لنسكن في بيته الخاص

ونبقى نعيش معه هناك إلى الأبد. وقد نقلت خدوج إلينا نفس الطلب. لكن أمي نبهت أخي المتعجل إلى أنها لا تستطيع أن تلبي طلبه دون موافقة أبي، وأنها ستتحدث معه في الموضوع وتبلغه بالنتيجة. وبقدر تعلق الأمر بها فإنها تحب أن تسكن معهما طالما رغب هو وخدوج في ذلك. عرض ماجد أن يتحدث بنفسه مع أبي فيوفر بذلك على أمي المسافة. ثم جاءنا في صباح آخر بالخبر أن أبي الذي كان في ذلك الوقت في بيت الساحل قد وافق على طلبه. وبذلك تقرر انتقالنا. بعد تشاور طويل اتفقت أمي مع ماجد أن ننتقل إلى مسكنهم بعد أيام، حين يكونا هو وخدوج قد استقرا في بيتهما الجديد.

بيت الواتورو

شق على أمي الانتقال إلى البيت الجديد. فقد كانت متعلقة ببيت المتوني جسدا وروحا، إذ عاشت هنا منذ طفولتها. مثلما شق عليها أن تفارق أختي زيانة وزوجة أبي مدينة، وفوق هذا فهي لم تكن تحب التجديد. ولكن رجح الشعور بأنها قد تكون مفيدة لأولاد صديقتها المتوفاة على كل تردد شخصي، كما روت لي فيما بعد.

ما كاد قرار أمي في الانتقال إلى المدينة يشيع حتى أصبح الكل يناديها أينما ظهرت "جلفيدان – هذا هو اسم أمي الغالية – ألم تعودي تحبين العيش معنا فتريدين تركنا إلى الأبد؟" وقد كان جوابها "آه أيها الأصدقاء، إنها ليست إرادتي أن أترككم وإنما هو قدري أن يكون علي أن أذهب."

أشعر أن البعض سينظر إلي في أفكاره مشفقا لدى قراءة كلمة "قدر"، أو على الأقل لن يستطيع هؤلاء إلا أن يهزوا أكتافهم. ربما أغلقوا حتى الآن عيونهم وآذانهم أمام إرادة الله ورفضوا إدراكه بعناد، بينما هم يعطون للصدفة على العكس أهمية أكبر. لا ينبغي للمرء أن يغفل أن الكاتبة كانت مسلمة وأنها نشأت كمسلمة. وأنا

أتحدث عن الحياة العربية، عن البيت العربي، هذا يعني أن ثمة أمرين يظلان مجهولين في البيت العربي الأصيل، وهما كلمتا "الصدفة" والمادية. لا يعرف المسلم ربه كخالق وحفيظ وحسب، وإنما يشعر بحضور الله دائما، وهو مقتنع أن ما يحدث ليست إرادته وإنما هي إرادة الله في ما صغر أو كبر من الأمور.

مرت أيام ونحن نقوم بالاستعدادات، ثم انتظرنا عودة ماجد الذي أراد أن يعد لرحلتنا بنفسه. كان لدي في بيت المتوني ثلاثة أخوة كرفاق في اللعب، أختان وأخ، كانوا في مثل سني تقريبا. تألمت لاضطراري لتركهم. أذكر بالاسم رالوب الصغير الذي كان قريبا مني جدا. وعلى العكس فقد فرحت فرحا لا يوصف لأنني أستطعت بهذه المناسبة أن أودع معلمتي الجديدة غليظة القلب إلى الأبد.

كانت غرفتنا الكبيرة بمناسبة الفراق المزمع تشبه خلية نحل لكثرة الأصدقاء والمعارف. أتانا الجميع بهدية وداع، كل حسب إمكاناته ودرجة محبته لنا. كان يحرص لدينا على هذا التقليد. وحين لا يكون لدى العربي إلا أقل القليل، فإنه لن يتردد في تقديمه لأصدقائه لدى الوداع كهدية. لا زلت أتذكر حادثة وقعت حين كنت صغيرة جدا. كنا قد انطلقنا من بيت المتوني في رحلة قصيرة إلى مزارعنا وكنا ننوي أن نركب القوارب الكثيرة ثانية لنعود إلى البيت. هنا سحبني شيء من الخلف ورأيت زنجية عجوزا تلوح لي. أعطتني شيئا ملفوفا بأوراق الموز قائلة: "هذه هدية وداع صغيرة لك يا بيبي يانغو (سيدتي)، إنها أول ثمرة ناضجة أمام بيتي. فتحت الأوراق بعجالة ووجدت في

داخل الغلاف عرنوص ذرة وحيدا مقطوفا للتو. لم أكن أعرف المرأة الزنجية، لكن تبين فيما بعد أنها كانت خادمة قديمة لأمي الطيبة.

أخيرا جاء ماجد وأبلغ أمي أن لدى قبطان زورق الرحماني أمرا بأن يرسل مساء الغد لنا نحن الاثنتين مركبا شراعيا بصارية واحدة ومركبا آخر لأمتعتنا وللناس الذين سيرافقوننا إلى المدينة.

كان أبي في ذلك الوقت في بيت المتوني. وهكذا ذهبت أمي إليه بصحبتي حين حان يوم السفر لتودعه. رأيناه في البنديلة يمضي جيئة وذهابا، وإذ رآنا اتجه إلى أمي مباشرة. ثم استغرقا بعد قليل في حديث متحمس حول رحلتنا. وقد أمر واحدا من الخصيان كان يقف على بعد معين أن يأتيني بحلوى وشراب، ليضع في الظاهر حدا لأسئلتي الأبدية التي كنت أوجهها إليه. فقد كنت كما يستطيع المرء أن يتصور متلهفة إلى أبعد حد لرؤية مسكننا الجديد وكل ما يتعلق بالحياة في المدينة بصورة عامة. فإنني لم أكن في المدينة حتى ذلك الحين، قدر ما أتذكر، سوى مرة واحدة وحسب ولفترة قصيرة فقط. من هنا فلم أعرف جميع إخوتي، ولا جميع زوجات أبي الكثيرات.

بعد ذلك ذهبنا إلى جناح زوجة أبي المبجلة لنودعها أيضا. وقد وقفت لتوديعنا، وهوإكرام أيضا على طريقتها، فقد اعتادت أن تستقبل وتودع وهي جالسة. وقد سمح لأمي ولي أن نقبل يدها الرقيقة قبل أن ندير لها ظهرنا بعد ذلك إلى الأبد.

وقد مضينا الآن صعودا ونزولا لنودع جميع الأصدقاء ولكننا لم نجد سوى أقل من النصف في غرفهم، فقررت أمي أن تودع الجميع

مرة واحدة في ساعة الصلاة حيث اعتاد الجميع أن يحضر.

في السابعة مساء توقف قاربنا الشراعي تحت البنديلة، وهو قارب كبير يستخدم في مناسبات خاصة فقط. وكان مزودا بأربعة عشر بحارا كمجذفين، وقد زينته من الأمام والخلف راية كبيرة قانية الحمرة، رايتنا الخالية من أية علامة أخرى، وفي القسم الخلفي من المركب كانت قد نصبت مظلة كبيرة، يمكن لعشرة إلى إثني عشر شخصا أن يجلسوا على الوسائد تحتها.

جاء جوهر العجوز، وهو خصي مخلص لأبي، وأبلغنا أن كل شيء جاهز للرحلة. وكان عليه هو وخصي آخر بناء على أمر من أبي الذي كان يراقب إنطلاقنا من البنديلة أن يرافقانا في رحلتنا. وقد وجه جوهر المقود كالمعتاد. رافقنا أصدقاؤنا بعيون دامعة حتى باب البيت، ولا زالت كلمة "مع السلامة، مع السلامة" ترن في أذني حتى اليوم.

شاطئنا ضحل إلى حد ما، ولم يكن ثمة جسر للمرسى في أي مكان. وكانت ثمة طرق ثلاث للوصول إلى القوارب. أن يجلس المرء على كرسي ذي متكأ يحمله بحارة أقوياء، أو يركب المرء على ظهرهم، أو يعبر المرء فوق لوح خشبي يصل المركب بالرمل الجاف على الشاطىء. إستخدمت أمي الطريقة الأخيرة في الوصول إلى السفينة يسندها خصيان مضوا فوق الرمل المبتل من الجانبين. أما أنا فقد حملني خصي آخر على ذراعه إلى القارب وأجلسني أمام المقود إلى جانب أمي وجوهر العجوز. وفي المركب نفسه كانت ثمة فوانيس مشتعلة نشرت مع النجوم اللامعة ضوءا خافتا ساحرا حقا.

وفضلا عن هذا فما كاد المركب يتحرك حتى بدأ المجذفون الأربعة عشر بغناء عربي حزين حسب تقاليدنا.

أبحرنا على طول الساحل كما هو معتاد بينما نمت بعد وقت قصير نوما عميقا ونصفي في حضن أمي والنصف الآخر على الوسادة. فجأة جرى ايقاظي في غير رفق عبر الأصوات الكثيرة المختلطة التي نادت باسمي. مذعورة وبعينين يثقلهما النعاس تبينت تدريجيا أننا قد وصلنا وأنني كنت قد نمت طول الرحلة. رسونا مباشرة تحت نوافذ بيت الساحل التي كان جميعها مضاء، تطل منها رؤوس لا عد لها. كل هؤلاء المشاهدين كانوا إخوتي وزوجات أبي الذين لم أكن قد تعرفت على أغلبهم بعد. وكان الكثير من إخوتي يصغرني سنا و لم يكونوا أقل لهفة للتعرف علي من لهفتي للتعرف عليهم. وقد روت لي أمي أنهم هم الذين بدأوا يهتفون باسمي من بعيد حين لاح لهم مركبنا. تم الرسو مثل الإبحار واستقبلني أخوتي الصغار بصخب. كان علينا وفق رغبتهم أن نذهب معهم مباشرة، وهو ما رفضته أمي بالطبع، وإلا لكان على خدوج التي كانت تقف أمام نافذة بيتها أن تنتظر أطول من ذلك. وقد حزنت جدا لأنني لم أستطع الذهاب مباشرة إلى إخوتي الصغار، وهو ما كنت قد فرحت من أجله طيلة أيام، ولكنني كنت أعرف أمي جيدا لأدرك أن ما أرادته أو قالته مرة لا يمكن تغييره، رغم حبها المضحي الذي لا مثيل له لي فقد كانت قوية وحازمة في كل شيء. إلا أنها واستني بأنها ستدعني أقضي هناك يوما كاملا ما أن يأتي أبي إلى بيت الساحل. وهكذا مررنا أمام بيت

الساحل متجهين إلى بيت الواتورو، بيت ماجد. وهو يقع قرب بيت الساحل مباشرة ويطل مثله تماما على البحر. حين دخلنا وجدنا أختي خدوج تنتظرنا عند السلم. رحبت بنا في بيت الواتورو بحرارة وقادتنا أولا إلى غرفتها، حيث دخل خادمها الخاص إيمان بعد قليل بمرطبات من مختلف الأنواع. كان ماجد في غرفة الاستقبال في الطابق الأرضي، ولم يكن يسمح له أن يصعد إلينا إلا بطلب من خدوج ورخصة من أمي. آه، كم كان ماجد الطيب النبيل فرحا لاستقبالنا في بيته.

كانت الغرفة المخصصة لنا واسعة تطل مباشرة على مسجد مجاور. وهي مؤثثة مثل أغلب الغرف العربية، فلم يكن ثمة ما نفتقده. ولم نكن نحتاج إلا إلى غرفة واحدة، فالمرء يرتدي هناك نفس الملابس في الليل والنهار، ولدى العرب الموسرين المتشددين في النظافة فإن غرفة خاصة للنوم هي شيء فائض. تكون غرف الأغنياء والوجهاء مؤثثة على النحو التالي، يغطي الأرض سجاد فارسي، سجاد أو بسط ناعمة دقيقة الصنع. الجدران السميكة المطلية باللون الأبيض مقسمة إلى عدة أقسام من خلال أقواس ذات عمق مناسب تمتد من الأرض إلى السقف. وتقسم الأقواس ألواح من الخشب مطلية باللون الأخضر تشكل طوابق صفت عليها بصورة متناظرة أفخر وأثمن أواني البلور والخزف. ولا يبخل العربي بثمن من أجل تزيين هذه الأقواس، قدح مصقول بدقة، صحن يحمل رسما جميلا أو إبريق أنيق مهما كلف ذلك. فهذه الأشياء تشترى إذا كانت جميلة.

يسعى المرء إلى تغطية الجدران العارية الضيقة بين الأقواس، حيث تعلق عليها مرايا كبيرة تمتد من الديوان الذي يرتفع قليلا عن الأرض حتى السقف، تطلب من أوربا حسب ارتفاعها وعرضها. أما الصور فهي مستنكرة بشكل عام لدى المسلمين باعتبارها تقليدا للخلق الإلهي، ولكن جرى في الفترة الأخيرة التساهل فيها. وعلى العكس فإن الساعات محبوبة جدا ويجد المرء في البيت الواحد مجموعة كبيرة منها، حيث يعلق بعضها فوق المرايا ويعلق البعض الآخر أزواجا على جهتيها. وتزين الجدران في غرف الرجال رموز من أنواع مختلفة من الأسلحة الثمينة من البلاد العربية ومن بلاد فارس وتركيا. وهي زينة اعتاد كل عربي أن يزين بها بيته حسب مكانته وثرائه.

في إحدى زوايا الغرفة وضع السرير الكبير المصنوع مما يسمى خشب الورد، تزينه نقوش رائعة حفرت عليه بمهارة، وهو فن يدوي من شرق الهند. تغطي السرير بأكمله ستارة من التول أو الململ الأبيض. للأسِرّة العربية سيقان مرتفعة جدا، ومن أجل أن يرتقيها المرء بصورة مريحة، يرتقي المرء أولا كرسيا، أو يستخدم كعتبة طبيعية، يد واحدة من الخادمات. وكثيرا ما يستخدم الفراغ المرتفع تحت السرير كمكان للنوم من قبل المرضعات مثلا في حالة الأطفال الرضع أو من قبل الممرضات في حالة المرض.

لا يجد المرء المناضد إلا ما ندر ولدى الأشخاص ذوي المكانة الرفيعة فحسب. وعلى العكس توجد الكراسي من مختلف الأنواع والألوان. كما لا توجد خزانات ودواليب، وبدلا من ذلك كان لنا

نوع من الصناديق لها اثنين أو ثلاثة من الأدراج وفي داخلها أيضا مخبأ سري للنقود والحلي. كانت هذه الصناديق التي كان ثمة العديد منها في كل غرفة، كبيرة جدا، مصنوعة من خشب الورد ومزينة بصورة جميلة جدا بآلاف من المسامير ذات رؤوس من النحاس الأصفر.

كانت الشبابيك تبقى على مر السنين مفتوحة، وقد تغلق الأولى منها فترة قصيرة في أقصى الأحوال عندما يكون الطقس ممطرا، وهكذا تبدو عبارة "ثمة تيار هواء" عبارة غير معروفة.

لم يعجبني البيت الجديد في البداية أبدا. افتقدت إخوتي الصغار كثيرا وبدا لي بيت الواتورو بالمقارنة مع بيت المتوني الهائل صغيرا وضيقا بصورة مقبضة. أيكون عليك أن تعيشي هنا إلى الأبد؟ أين ستبحر قواربك الشراعية، أفي برميل ماء؟ تساءلت في الأيام الأولى دون انقطاع. لم يكن هنا ثمة متوني، وكان ينبغي جلب الماء من بئر تقع خارج البيت. وحين نصحتني أمي المحبة الطيبة التي كانت تود أن تهدي الآخرين كل ما تملك، أن أعطي السفن الشراعية التي أحببتها كثيرا إلى إخوتي في بيت المتوني، لم أرد ذلك في البدء. باختصار شعرت هنا لأول مرة في حياتي أنني تعيسة ومتكدرة بشدة.

وعلى العكس فقد مارست أمي في الحال مهنتها وكانت طول اليوم منشغلة مع خدوج بالتنظيم ووضع الأثاث، حتى أنني لم أستطع أن ألجأ إليها. كان أخي ذو القلب الطيب ماجد أكثر من اهتم بي، أخذني من يدي في اليوم التالي مباشرة وأراني بيته بكامله من أسفله حتى أعلاه. ولكن لم يعجبني شيء، كنت عديمة الإكتراث بكل شيء

ورجوت من أمي أن تعود بي قريبا إلى إخوتي الأحباء في بيت المتوني.

لم يكن ذلك ممكنا بالطبع، وليس لأنها كانت نافعة للإثنين حقا.

اكتشفت في ماجد لحسن الحظ شخصا محبا للحيوانات، وأنه يملك في بيته مجموعة من مختلف الأحياء، بينها أعداد كبيرة من الأرانب البيضاء وهو ما كان يزعج خدوج وأمي فقد خربت البيت الجديد تماما. ثم كان لديه عدد كبير من ديكة المصارعة من كل بلدان العالم، لم أر مجموعة غنية كهذه ثانية حتى في حديقة حيوان.

أصبحت بعد وقت قصير مرافقة دائمة لماجد عند زيارته لحيواناته الحبيبة، وقد تركني أشارك في جميع ما يحب بطيبة لا حدود لها. و لم يدم الوقت طويلا حتى أصبحت بفضل طيبته مالكة لكتيبة كاملة من ديكة المصارعة خففت من وحدتي في بيت واتورو تخفيفا كبيرا. صرنا منذ ذلك الوقت نقف كل يوم تقريبا أمام أبطالنا الذين كان على بعض الخدم أن يأتوا ويعودوا بهم. صراع الديكة شيء مسل، يستأثر بانتباه المشاهد دائما ويقدم ترفيها حقيقيا وغالبا صورة شديدة المرح.

علمني فيما بعد المبارزة بالسيف والخنجر والرمح، وحين سافرنا معا إلى الريف علمني استخدام البندقية والمسدس. باختصار أصبحت من خلاله نصف أمازونية وهو ما أرعب أمي الغالية التي لم تكن تحب المبارزة والرمي. نتيجة لذلك فقدت كل رغبة في الأعمال اليدوية، كان استخدام كل الأسلحة الممكنة أحب إلي من الجلوس هادئة بضع ساعات أمام مخدة حياكة الدانتيل.

إلا أن كل هذه الانشغالات الجديدة إضافة إلى الحرية التامة أعادت

إلي النشاط بعد وقت قصير، فلم يكونوا قد وجدوا لي معلمة جديدة بعد. وهكذا تلاشى النفور من بيت الواتورو الموحش الذي شعرت به في البداية. و لم تُهمَل الفروسية أيضا، فقد كان على الخصي مسرور بناء على أمر من ماجد أن يتولى متابعة تدريبي.

لم تستطع أمي أن تهتم كثيرا بكل صغيرة تتعلق بي، فقد أشغلتها خدوج جدا، وهكذا استعنت مع الزمن أكثر فأكثر بحبشية ذات خبرة إسمها نورين، تعلمت منها أيضا شيئا من اللغة الحبشية. لقد نسيت كل ذلك الآن بالطبع.

بقينا على اتصال دائم مع بيت المتوني، وحين كانت أمي تذهب معي إلى هناك فيما بعد كان أصدقاؤنا يستقبلوننا بحرارة ويضيفوننا. وعدا هذا فقد اقتصرت اتصالاتنا على الرسائل الشفهية عبر عبيدنا من الجهتين. لا يحب أحد في الشرق المراسلة حتى لو كان قد تعلم الكتابة، حيث يملك كل وجيه وثري هناك بعض العبيد الذين يستطيعون أن يمضوا بسرعة في الحال ويستخدمون لهذا الغرض وحسب. يكون على كل واحد من هؤلاء السعاة أن يقطع بضعة أميال في اليوم. ولكنهم يعاملون أيضا معاملة حسنة بصورة خاصة وتوفر لهم احتياجاتهم. فكثيرا ما تتوقف على كتمانهم وإخلاصهم راحة أسيادهم، فهم يؤتمنون على أكثر الأخبار سرية. و لم يكن لیندر أن تخرب علاقات صداقة إلى الأبد من خلال فعل انتقامي لأحد هؤلاء الرسل. ومع ذلك لم يكن كل هذا العنت ليدفع إلا القليلين لتعلم الكتابة ليصبحوا مستقلين. ليست لكلمة "يرسل" في أي مكان

ذلك المعنى الكبير كما هو عندنا.

كانت أختي خدوج تحب الحياة الاجتماعية وهكذا كثيرا ما أصبح بيت الواتورو شبيها بقمرية حمام تماما. لم يكد يمضي يوم واحد في الاسبوع لم يكن البيت فيه مليئا بالضيوف من السادسة صباحا وحتى منتصف الليل. وكان الضيوف الذين يأتون لقضاء اليوم عندنا ويصلون في السادسة صباحا يستقبلون من الخدم، ويذهب بهم إلى غرفة خصصت لهذا الغرض حيث لا تستقبلهم سيدة البيت إلا في الثامنة أو التاسعة. وقد اعتادت النساء القادمات أن يستأنفن في تلك الغرفة نومهن الذي قطعنه بسبب النهوض المبكر. سأروي في فصل خاص لاحقا عن هذه الزيارات النسائية.

بينما أصبحت علاقتي بأخي الطيب ماجد وثيقة بعد وقت قصير، لم أنجح في ذلك مع خدوج. ولما كانت متسلطة ومتشددة، فلم أستطع أن أحبها من كل قلبي. كان التناقض بينها وبين الطبع النبيل لماجد كبيرا. لم يكن هذا رأيي وحدي، فكل من عرف الأخوين معرفة جيدة عرف بوضوح أيضا من منهما أكثر استحقاقا للمحبة. كانت شديدة البرودة أزاء الغرباء وكثيرا ما كانت حتى منفرة، وخلقت لنفسها من خلال ذلك مزيدا من الأعداء. لقد أظهرت نفورا كبيرا من كل جديد وغريب، وكانت رغم حسن ضيافتها المعروف لا تشعر بالارتياح دائما حالما تبلغنا أوروبية بنيتها في زيارتها، رغم أن هذه الزيارة لم تكن تستغرق سوى نصف إلى ثلاثة أرباع الساعة في أحسن الأحوال.

وفيما عدا هذا فقد كانت قياسا إلى أوضاعنا متبصرة وعملية، لم تكن تجلس مكتوفة اليدين، وحين لم يكن لها ما تفعله كانت تخيط وتحوك بمثابرة ثياب الأطفال الصغار لعبيدها المتزوجين، كما تعمل في القمصان الأنيقة لإخوتها. كان الأحب بين هؤلاء الأطفال ثلاثة صبيان هم سليم ، عبد الله وثاني، وهم أبناء عربي يعمل رئيسا للبنائين في خدمتنا. كانوا يصغرونني ببضع سنوات ولكنهم أصبحوا بعد وقت قصير رفاقي في اللعب لعدم وجود أطفال في مثل سني، حتى تعرفت في بيت الساحل على إخوتي الآخرين.

يوم في بيت الساحل

حل اليوم الذي انتظرته بشوق لا يوصف، اليوم الذي سأذهب فيه مع أمي وأختي خدوج إلى بيت الساحل ونبقى هناك من الصباح حتى المساء. كان يوم جمعة، يوم الأحد للمسلمين، حين غادرنا البيت في الخامسة والنصف صباحا متلفعات بعباءاتنا الحرير السوداء الفضفاضة الموشاة بحاشية ذهبية عريضة (المسماة شيلة). فقد كان هدفنا يبعد حوالي مائة خطوة منا وحسب.

لم يستقبلنا ناظر القصر المخلص ولكن الذي لا يطاق، ذو الشعر الأبيض، بمودة على أي حال. أوضح لنا بتجهم يزيد عن المعتاد أنه ينتظر منذ أكثر من ساعة واقفا على ساقيه الضعيفتين، ليستقبل النساء الزائرات وحسب. سعيد النوبي هو اسم البواب المتذمر، كان كما يشير إليه اسمه عبدا نوبيا لأبي، كانت لحيته البيضاء – لا أستطيع أن أعبر بغير ذلك، فلدى العرب تقليد وعرف أن يحلق الرجال شعر رؤوسهم – قد ابيضت في خدمتنا. كان أبي يقدره جدا، بالذات منذ أن ضرب السيف المرفوع من يده حينما كان قد استله في حالة غضب كان فيها محقا، وهكذا وفر على سيده تأنيب الضمير الذي

كان سيرافقه مدى الحياة.

ولكننا نحن الصغار لم نعرف خدمات سعيد وكثيرا ما قادنا نزقنا أن نعابث الخادم المخلص المتذمر بأكثر الألاعيب شيطنة. كنا قد وضعنا مفاتيحه الكثيرة نصب أعيننا، و لم يكن في بيت الساحل مكان كما أعتقد لم نُخفها فيه مرة. وكان أخي جمشيد يملك مهارة خاصة في إخفائها بأكملها دون أن نستطيع حتى نحن مساعديه تخمين مكانها.

حين وصلنا إلى الطابق الأعلى وجدنا البيت وساكنيه في حركة دائبة، كان أولئك الأشد ورعا وحدهم لا يزالون يؤدون صلاة الصبح بعيدين عن أنظار العالم الخارجي. و لم يكن أحد ليجرؤ أن يكدر مثل هؤلاء المتعبدين حتى لو شب حريق في البيت. ينتمي والدنا الطيب إلى هؤلاء، لذلك كان علينا أن ننتظره. وقد روعي وجوده في تحديد زيارتنا في هذا اليوم، فجاء كثيرون آخرون لنفس السبب وهو ما أزعج سعيد العجوز.

لم تكن السيدات القادمات جميعهن من المعارف أو الأصدقاء، على العكس كانت الكثيرات منهن غريبات على بيتنا تماما. أتى أغلبهن من عمان، وطننا الأصلي، من أجل طلب المساعدة المادية من أبي وحسب، والتي كن يحصلن عليها دائما تقريبا. كان وطننا مثل أبناء عشيرتنا هناك فقيرا، وقد بدأ رخاؤنا الشخصي منذ أن استولى والدنا على زنجبار.

رغم أن القانون يمنع المرأة من أن تحادث على نحو ما رجلا غريبا،

فإن ثمة استثناءين يسمحان لها بالظهور أمام الحاكم والقاضي. ولما كانت الكتابة غير معروفة كليا بالنسبة للآلاف المؤلفة، لم يبق أمام هاته الملتمسات إلا أن يحضرن بأنفسهن ويتحملن مشقة الرحلة من آسيا إلى أفريقيا. تقدم لهن الهدايا هنا حسب مكانتهن وموقعهن، دون أن توجه إليهن الأسئلة عن مئات الأشياء التي يسأل المرء الفقراء عنها هنا في أوروبا. يحصل كل على حاجته وما يستطيع المرء أن يعطيه. يفترض المرء هناك بوجه عام أن الإنسان المستقيم لا يتلقى مساعدة غريبة من أجل التسلية، وهو في ذلك هنا على حق تماما في حالات كثيرة.

إستقبلتني أخواتي اللائي أعرفهن واللائي لا أعرفهن بحرارة شديدة، وخاصة أختي الحبيبة التي لا أنساها خولة. بينما كانت محبتي الطفولية مركزة حتى الآن على أمي الغالية تماما، بدأت الآن إلى جانب ذلك أحب شعاع الضوء هذا في بيتنا من كل قلبي، أختي خولة التي أصبحت بعد وقت قصير مثلا لي، وكانت تتمتع أيضا بإعجاب كثيرين آخرين مثلما كانت طفلة أبي المحببة. إذا ما حكم المرء حكما عادلا دون حسد فإن عليه أن يُقر أنها ذات طلعة نادرة الجمال. وأين يوجد إنسان لا يحركه الجمال أبدا؟ لم يكن في بيتنا على أي حال مثل هذا الاستثناء. لم يكن في العائلة كلها من يشبه خولة، فصار جمالها مضرب الأمثال. رغم أن العيون الجميلة كما هو معروف ليست نادرة في الشرق، فلم يطلق عليها إلا نجمة الصبح. وقد حدث لأحد رؤساء القبائل العرب خلال مهرجان للمبارزة المحببة لدينا، أقيم كما

هو معتاد أمام بيتنا، مأخوذا بسلطة غير مرئية تسمر بصره إلى إحدى النوافذ فلم يشعر بالدم المتدفق من قدمه ولا الألم الذي سببه له ذلك، حتى نبهه إليه أحد إخوتي. كانت خولة تقف أمام تلك النافذة. لقد غرز العماني الذي وقع نظره صدفة على النافذة المذكورة وسحره جمال خولة تماما، رأس حربته في قدمه دون أن ينتبه وجرحها. وكان على خولة البريئة أن تتحمل معابثة أخي طيلة سنوات بسبب هذا الحادث.

كان بيت الساحل أصغر كثيرا من بيت المتوني، ويقع مثله على البحر مباشرة، وكان فيه ما يشعر بالإنشراح والمودة ويترك هذا الأثر على سكانه. تطل جميع غرف الدار على المشهد الرائع للبحر بسفنه، صورة انطبعت عميقا في روحي. تنفتح جميع الأبواب في الطابق العلوي، حيث توجد هنا غرف السكن، على قاعة طويلة وعريضة لم أر شيئا فريدا مثلها ثانية أبدا. يحمل سقفها على أعمدة تصل إلى الأرض، ويمر بينها حاجز صفت على طوله كراس كثيرة، فيما كانت المصابيح الملونة الكثيرة التي تتدلى من السقف تمنح المكان ضوءا سحريا خافتا لدى حلول الظلام.

وإذا ما نظر المرء من فوق الحاجز فإنه يرى فناء ملونا مليئا بالحياة والضوضاء، لن يرى مثله ثانية بسهولة. وقد ذكرتني السوق المحتشدة في اوبريت "الطالب المستعطي" بالحياة الملونة هناك فيما بعد، وإن كانت بشكل مصغر.

يصل بين غرف السكن في الطابق الأعلى والفناء سلمان كبيران

مكشوفان تماما، تستمر الحركة عليهما صعودا وهبوطا ليلا ونهارا دون انقطاع، وكثيرا ما يشتد الازدحام في نهايتيهما حتى يضطر المرء للانتظار طيلة دقائق قبل أن يستطيع شق طريقه إلى السلم.

في زاوية من الفناء تذبح المواشي بأعداد كبيرة وفي نفس الوقت تسلخ وتنظف، كل هذا سدا لحاجة بيتنا وحده، إذ يتوجب على كل بيت هنا أن يوفر اللحوم لنفسه.

في جانب بعيد يجلس زنوج لحلق رؤوسهم. وإلى جانبهم يتمطى عدة رجال من السقائين، يريحون أعضاءهم الكسولة ولا يصغون لجميع النداءات لطلب الماء، حتى يأتي أحد الخصيان المهابين ليذكرهم بغلظة بواجبهم الذي لم يؤدوه. كثيرا ما كان هؤلاء الرجال يجرون بمجرد رؤية رئيسهم الصارم بجرارهم مسرعين فيثيرون ضحك الآخرين.

قريبا منهم تجلس المربيات في الشمس مع الأطفال، حيث يروين لهم حكايات وقصصا تاريخية.

في أحد أروقة الطابق الأرضي يقوم المطبخ أيضا في العراء، تتصاعد روائحه مع الدخان الذي تذروه الريح. قريبا منه الفوضى التي لا يمكن وصفها، حيث يسود خصام دائم وصراع بين العدد الكبير من الطباخين. لا يبخل رئيس الطباخين ورئيسة الطباخات بتوزيع الصفعات التي تصيب هدفها، إن لم يسرع مساعدوه أو مساعداتها كما يرغبان.

تطبخ هنا كميات هائلة من اللحم، الحيوانات بأكملها. كثيرا ما

كان المرء يرى أسماكا من الضخامة بحيث يكون على إثنين من الزنوج حملها تختفي في المطبخ. أما الأسماك الصغيرة فتسلم في سلال وحسب والطيور في دزينات. الدقيق والرز والسكر بالأكياس. وأما الزبدة فيؤتى بها سائلة من الشمال، خاصة من جزيرة سوقطرة في جرار زنة الواحدة منها حوالي قنطار. وقد استخدم معيار آخر للتوابل وحسب هو الرطل.

أكثر مبعثا للدهشة تقريبا هو كميات الفاكهة التي كانت تستهلك عندنا. كان يصل كل يوم ثلاثون إلى أربعين وحتى خمسين حمالا يأتون بالفاكهة إلى البيت، فضلا عن الزوارق الصغيرة الكثيرة التي تأتي بها من البساتين الواقعة على الشاطيء. لا أعتقد أني أبالغ إذا قدرت الحاجة اليومية من الفاكهة في بيت الساحل بحمولة عربة قطار، وقد كانت ثمة أيام، كما يحصل مثلا عند جني المانجو التي نسميها عمبه، تتضاعف فيها الكمية المستهلكة. وكانت هذه الكميات من الفاكهة تنقل دون حرص. إذ كان العبيد الموكل إليهم نقلها يلقون السلال الرخوة المليئة بثمار ناضجة بكل قوة على الأرض، فيصاب نصفها بالبقع وينهرس الكثيرمنها تماما.

كان قد بني سور طويل سمكه حوالي مترين لحماية البيت من أمواج البحر، نما خلفه وترعرع أجمل الرمان. وأمام السور ربط في فترات الجزر عدد من أفضل الخيول إلى حبال طويلة لتستطيع أن تمرح وتتقلب على رماله كما تريد. كان أبي يحب خيوله العربية الأصيلة من عمان حبا شديدا، وكان يريد كل يوم رؤيتها، وإذا مرض أحدها

قام بنفسه برعايته في الحظيرة. وأذكر هنا مثالا على حنو العربي على خيوله المفضلة، كان لأخي ماجد فرس بنية ثمينة و لم يكن أحب إليه من أن تلد فلوا. حين حان الوقت واقترب موعد ولادة الكحلة (كان هذا اسم الفرس) أمر السائس أن يبلغه بالولادة في الحال سواء في النهار أو في الليل. وبالفعل أوقظنا جميعا ذات ليلة، بين الواحدة والثالثة تقريبا لنبلغ بهذا الحدث السعيد. حصل السائس الذي جاء بالنبأ السار من سيده السعيد خمسين دولارا كمكافأة له. وليس هذا مثلا فريدا، إذ يقال أن التعلق الشخصي بالخيول داخل بلاد العرب أكبر من هذا بكثير.

حين انتهت ساعة الصلاة وعاد أبي إلى غرفته، ذهبنا إليه ثلاثتنا، أنا وأمي وخدوج، وكما هو دائما ميال للمزاح، التفت إلي بعد قليل قائلا: قولي لي يا سالمة، كيف وجدت المكان هنا؟ هل تريدين العودة إلى بيت المتوني؟ هل تحصلين هنا أيضا على حساء الحليب؟

بين التاسعة والنصف والعاشرة أتى جميع إخوتي من بيوتهم لتناول الإفطار مع أبي. لم يكن مسموحا لأية سرية أن تتناول طعامها مع أبي مهما بلغ تفضيله لها على الأخريات. فما عدانا نحن أطفاله، وبالمناسبة بعد بلوغنا سن السابعة فقط، شاركته المائدة زوجته المصون عزة وأخته عائشة. لا يظهر التمييز الاجتماعي بين الناس في الشرق في أية مناسبة بمثل الحدة التي يظهر فيها لدى تناول الطعام. فالمرء ودود ومحب لضيوفه تماما مثلما هي الحال لدى السادة الوجهاء هنا في هذه البلاد، وكثيرا ما يكون حتى أكثر تواضعا، ولكن عند الطعام

يفصل المرء نفسه عنهم بكل أدب. هذا تقليد عميق الجذور حتى أن أحدا لا يشعر بالإهانة الشخصية من جراء هذا الفصل.

وقد وضعت السراري بينهن تراتبية أخرى. الشركسيات الجميلات الثمينات اللائي يعين قيمتهن لا يردن أن يتناولن الطعام مع الحبشيات اللائي لهن لون القهوة. وهكذا كانت كل مجموعة عنصرية تتناول طعامها على حدة وفق اتفاق غير معلن. إلا أن لون البشرة لم يلعب بالنسبة للأطفال كما أشرت دورا في التمييز بالطبع.

لدى ترددي على بيت الساحل تشكل لدي انطباع بأن الناس هنا أكثر مرحا وسعادة منهم في بيت المتوني. استطعت أن أدرك في وقت لاحق فقط سبب ذلك. هناك كانت الكلمة لعزة بنت سيف، لقد حكمت الزوج والأطفال وأمهاتهم، باختصار كل ما كان حولها. وعلى العكس هنا في بيت الساحل حيث لا تظهر عزة إلا نادرا، شعر الكل بما فيهم أبي بأنهم أحرار غير مقيدين، يستطيعون أن يفعلوا ما يريدون. وفيما عدا أبي الذي كان طيبا ورفيقا بشكل لا يوصف، لم يكن ثمة من يصدر الأوامر. الشعور بالحرية وعدم التحفظ يبعث الحيوية والسعادة بين الناس في كل مكان سواء عاشوا في شمال الكرة الأرضية أم في جنوبها. لا بد أن يكون أبي أيضا قد شعر بهذا، فهو لم يرسل منذ سنوات أحدا للإقامة الدائمة في بيت المتوني إن لم تكن تلك رغبته الشخصية، رغم وجود مساكن كثيرة خالية في هذا البيت، بينما يكتظ بيت الساحل بالسكان. إلا أن هذا الاكتظاظ أصبح في الأخير لا يطاق، حتى خطرت لأبي فكرة فذة وهي أن يقيم

في الشرفة الكبيرة حجرات خشبية كغرف إضافية للسكن، وأخيرا كان عليه أن يبني بيتا ثالثا، سمي ببيت الرأس. أقيم هذا على بعد بضعة كيلومترات إلى شمال بيت المتوني على البحر أيضا من أجل أن يكون مسكن الجيل الجديد من بيت الساحل.

كان يمكن للرسام أن يجد في شرفتنا في بيت الساحل مادة وفيرة لريشته. فقد كانت الصور في كل الأوقات شديدة التنوع وملونة. وجوه الحشد تتدرج من ثماني درجات لونية إلى عشر. وسيكون على الفنان أن يستخدم ألوانا صارخة ليستطيع أن يعكس صورة حقيقية لكل الثياب الملونة. كان الضجيج على الشرفة مربكا أيضا. أطفال من مختلف الأعمار يركضون، يتخاصمون ويضرب بعضهم بعضا في كل الزوايا. وخلال ذلك يرتفع نداء بصوت عال وتصفيق باليد يقوم في الشرق مقام الجرس لنداء الخدم، يضاف إلى هذا قرقعة قباقيب النساء الخشبية التي ترتفع من خمسة إلى عشرة سنتمترات وكثيرا ما تكون موشاة بالفضة والذهب.

كان خليط اللغات في هذا المجتمع ممتعا بالنسبة لنا نحن الأطفال. في الواقع كان ينبغي الكلام بالعربية وحدها، وفي حضور أبي جرى الالتزام بذلك بصرامة. ولكن ما أن يذهب حتى تسود فوضى لغوية هائلة، فكان المرء يسمع عدا العربية الفارسية والتركية والشركسية والسواحيلية والنوبية والحبشية مختلطة ببعضها، بغض النظر عن اللهجات المختلفة لهذه اللغات.

لم تزعج هذه الضوضاء في ذلك أي إنسان، كان يشتكي منها من

كان مريضا فقط. وكان أبونا الطيب معتادا على ذلك ولم يظهر تذمره أبدا.

في هذا المكان المليء بالحركة بدت اليوم جميع أخواتي الراشدات في زينة احتفالية، قسم منهن لأن اليوم كان يوم أحد عربي، وقسم آخر على شرف زيارة أبي. ذهبت أمهاتنا ووقفن في مجموعات وتحدثن بحماسة مع بعضهن، ضحكن، وتندرن وكن من المرح حتى أن أحدا يجهل الظروف، لن يصدق أنه يرى زوجات رجل واحد. ومن منطقة السلم ارتفعت قرقعة السلاح لإخوتي الكثيرين وأبنائهم الذين جاؤوا أيضا لزيارة أبي وبقوا عنده، باستثناء فسحات صغيرة من الوقت، طول النهار.

وهكذا ساد في بيت الساحل كثير من الفخامة والإنفاق أكثر مما هو في بيت المتوني، ووجدت هنا أيضا أشكال أكثر جمالا وجرأة مما هناك حيث لا توجد شركسيات أخريات عدا أمي وصديقتها مدينة. بينما كانت هنا على العكس غالبية النساء من الشركسيات اللاتي كانت لهن طلعة أجمل دون أدنى شك من الحبشيات، رغم أنه كثيرا ما كانت بين الأخيرات نساء ذات جمال غير عادي. أعطت هذه المفاضلات الطبيعية سببا للحسد والحقد، فكانت الحبشيات ذوات لون الشكولاته يتجنبن كل شركسية تتمتع بالجمال دون ذنب تماما وحتى يكرهنها، فقط لأنها تبدو ذات وقار.

في هذه الظروف لا يمكن تجنب نوع من "الكراهية العنصرية" بين الأخوات أيضا. تتسم الحبشية رغم فضائلها من بعض النواحي

بالكراهية والميل إلى الثأر دائما تقريبا. إذا توقدت عاطفتها فإنها نادرا ما تكون معتدلة، ناهيك عن أن تكون مستقيمة. كانت أخواتنا اللائي يجري في عروقهن دم حبشي يطلقن علينا نحن أطفال الشركسيات عادة "القطط"، لأن بعضنا كان له لسوء الحظ عينان زرقاوان. وكن يلقبننا بـ "أصحاب السيادة" سخرية، وهو دليل على عظم امتعاضهن من أننا ولدنا ببشرة بيضاء. ولم يغفرن لوالدي أبدا أن يكون قد اختار ابنتيه المفضلتين شريفة وخولة من أمهات شركسيات – من نسل القطط المكروهة –.

مهما يكن فقد سادت في بيت المتوني تحت ضغط عزة بنت سيف حياة شبيهة بحياة الأديرة. كنت في بيت الواتورو أشعر بوحدة أكبر، لذلك أعجبتني أكثر الحركة النشيطة في بيت الساحل. إنضممت بعد وقت قصير إلى إخوتي الذين كانوا في نفس سني. وكانت ضمن الحلقة القريبة ابنتا أخ هما شيمبوا وفارشو، وهما الابنتان الوحيدتان لأخي خالد. كان يؤتى بهما كل صباح من بيتهما إلى بيت الساحل وتعادان إلى بيتهما في المساء، لتستطيعا أن تحضرا الدروس مع أعمامهما وأخوالهما ثم تنصرفان إلى اللعب بعد ذلك. كانت خورشيد أم خالد وهي شركسية الأصل ذات مظهر بهي بوجه خاص. فارعة الطول، تملك قوة إرادة غير معتادة يرافقها ذكاء طبيعي عال. لم أر في حياتي إمرأة ثانية يمكن مقارنتها بها. قيل عنها حين أصبح خالد ينوب عن أبي فيما بعد عند غيابه، إنها هي التي تحكم البلاد وإن ابنها ليس سوى أداة في يدها. لم يكن يُستغنى عن

مشورتها لدى العائلة بكاملها، وكان الكثير يتوقف على قرارها. كانت عيناها تراقبان وتريان في لحظة بنفس الحدة التي ترى بها مئات العيون لأرغوس. كانت تحافظ في القضايا المهمة دائما على ما يشبه حكمة سليمان. لكنها كانت بالنسبة لنا نحن الأطفال غير محبوبة وكنا نتجنب الاقتراب منها.

أردنا في المساء أن نعود إلى بيت الواتورو. هنا قال أبي لأمي ويا لعظم خيبتي، إن علي أن أتابع التعلم، يعني تعلم القراءة، وبذريعة أنهم لم يجدوا لي بعد معلمة مناسبة، تقرر أن يؤتى بي كل صباح مثل بنات أخي إلى بيت الساحل وأن أعاد في المساء، لأستطيع التعلم مع أخوتي. كان هذا الخبر بالنسبة لي غير مريح على الاطلاق. كنت أقل انضباطا من أن أكون قادرة على الجلوس هادئة، وعدا هذا فقد أفسدت معلمتي السابقة تذوقي للتعلم إفسادا جذريا. ولكن فكرة أن أكون مع إخوتي كل يوم (عدا يوم الجمعة) وحدها قدمت لي عزاء مؤقتا، خاصة أن أختي خولة الساحرة عرضت على أمي أن تقوم برعايتي والاهتمام بي. وقد فعلت هذا بإخلاص ورعتني مثل أم.

كانت أمي على العكس متكدرة حول قرار أبي بإبعادي عنها ستة أيام في الاسبوع، وهو ما كان عليها أن تتدبره أيضا. إلا أنها أمرتني أن أكون في مكان معين عدة مرات في اليوم حيث تستطيع أن تراني من بيت واتورو على الأقل وتومىء لي.

من حياتنا في بيت الواتورو وبيت الساحل

لا أريد أن أقول عن معلمتي الجديدة سوى انني أحمد الله القدير أيضا على أنه هيأ لي في يفاعتي مثل هذه الصديقة المخلصة. كانت معلمة صارمة ولكن منصفة. كثيرا ما ذهبت إليها وحدي لأن إخوتي لم يكونوا يحبون الذهاب إلى غرفة مرضها المظلمة، ويفضلون استغلال عجزها ليتسللوا من المكان. لكنني لم أمتلك القسوة لأرى المسكينة البائسة تطلب مني شيئا فلا ألبي رغبتها. وقد عادت علي طاعتي عدا رضاها طبعا بسخرية شديدة من إخوتي المتنصلين من الدرس وكثيرا ما كان علي أن أحتمل ضربهم أيضا.

إزداد حبي لبيت الساحل مع مرور الأيام، كنا نستطيع أن ننطلق في لعبنا هنا أكثر بكثير مما في بيت الواتورو. و لم يفتنا هنا أيضا أن نعبث، ولكن حين تبع ذلك عقاب كنت أقل من يتعرض له حيث كانت راعيتي خولة أكثر طيبة من أن تنزل بي عقابا.

وها هو بعض الأمثلة على معابثاتنا.

كانت ثمة طواويس رائعة في البيت بينها واحد عنيد، لم يكن يحبنا نحن الأطفال. ذات يوم حين مضينا، وكنا خمسة أطفال، حول قبة

الحمام التركي الذي يرتبط ببيت الساحل بجسر معلق وبآخر مع بيت الثاني، وهو بيت ملحق بالأول، باغتنا ذلك الطاووس وهو ينفخ من الغيظ وهاجم أخي جمشيد. ألقينا بأنفسنا بسرعة البرق على الغول وغلبناه. ولكن غضبنا وخاصة جمشيد كان أكبر من أن نترك الحيوان، فقررنا أن نثأر منه بوحشية فنزعنا عنه ريشه الجميل. وكم بدا الحيوان الملون المحب للشجار بعد ذلك بائسا. لحسن الحظ كان أبي في ذلك الوقت في بيت المتوني وقد كتم عنه الأمر عند عودته لحسن الحظ.

خلال تلك الفترة جاءت إلينا شركسيتان من مصر، وبعد بعض الوقت بدت إحداهما لنا نحن الأطفال متعالية لا تعيرنا اهتماما. وقد آلمنا هذا فبذلنا جهدنا من أجل أن نعثر على عقوبة مناسبة لها. و لم يكن إنزالها بها سهلا فهي لا تمر في طريقنا أبدا و لم يكن لدينا ما نفعله معها. وقد زاد حقدنا عليها كونها لا تكبرنا إلا بسنوات قليلة. بمثل هذه المشاعر جئنا مرة ومضينا أمام غرفتها التي كانت بابها مفتوحة كالمعتاد. كانت المسكينة تجلس على سرير سواحلي خفيف جدا، يتكون من أربعة قوائم مربوطة بحبال جوز الهند وحصيرة، وكانت تغني بكل استغراق أغنية مرحة من أغاني وطنها. كانت أختي شيوانة هذه المرة هي قائدتنا، وكانت نظرة منها تكفي لنفهم نحن الذين كنا نحمل نفس المشاعر. أمسكنا حبل السرير بصعوبة، ورفعناه معها قدر ما استطعنا لنتركه يسقط ثانية، مما أرعب المخلوقة التي لم تكن لديها أي فكرة. كان عبثا طفوليا حقا، إلا أنه حقق نجاحا، فقد شفيت

من عدم اكتراثها بنا في المستقبل إلى الأبد، بعد ذلك كانت المودة بعينها و لم نكن نريد أكثر من ذلك.

وقد قمت بشقاواتي في نزقي وحدي أيضا. ذات مرة بعد انتقالنا إلى بيت الواتورو بوقت قصير أوشكت أن أكسر رقبتي في مناسبة كهذه. كنا قد ذهبنا كما يحدث كثيرا إلى واحدة من مزارعنا الكثيرة الرائعة للراحة. ذات صباح استطعت في غفلة من مرافقتي أن أتسلق في لحظة دون أن ينتبه إلى أحد شجرة جوز هند باسقة، بخفة مثل قطة ودون أن آخذ معي البنغو، وهو حبل غليظ لتثبيت القدمين، والذي لا يمكن حتى لأكثر المتسلقين مهارة الصعود إلى نخلة بدونه. حين بلغت منتصف النخلة بدأت أنادي المارين بنزق وأحييهم بصوت عال.

يا له من رعب. لقد وقفت شلة كاملة من الناس في الأسفل، ترجوني أن أنزل بحذر. لم يكن ممكنا إرسال أحد لمساعدتي. حيث يحتاج كل امرئ يديه لتسلق النخلة ولا يستطيع حمل طفل في السابعة أو الثامنة فوق ذلك. إلا أن المكان هنا فوق أعجبني و لم أنزلق هابطة ببطء إلا حين وقفت أمي في الأسفل يائسة تفرك يديها ووعدتني بأشياء مختلفة جميلة، ووصلت الأرض سعيدة دون أن يصيبني أذى. في ذلك اليوم كنت الطفلة المدللة لدى الجميع وحصلت بسبب نجاتي على هدايا كثيرة، رغم أنني كنت أستحق ضربا مبرحا.

كنا نقوم بمثل هذه الشقاوات كل يوم و لم تكن ثمة عقوبة تستطيع

أن توقفنا. كنا سبعة أطفال، ثلاثة صبيان وأربع بنات، اولئك الذين أثاروا القلق في البيت وكثيرا ما سببنا لأمهاتنا المسكينات المتاعب أيضا للأسف.

احتفظت بي أمي بين حين وآخر في بيت الواتورو في غير أيام الجمعة، واستغل ماجد الطيب هذه الفرصة ليدللني كثيرا. كان ذلك في يوم أثار فيه رعبا لا حدود له. كان المسكين يعاني من تشنجات تعاوده بين حين وآخر، لذلك لم يكن يترك دون مساعدة أو لا يترك إلا نادرا. حتى حين يكون في الحمام، كانت خدوج وأمي اللتان لا تثقان بالعبيد تقفان بالتناوب أمام الباب على الدوام، لتتبادلا معه بين حين وآخر بعض الكلمات، وكان يجيب مازحا: "لا زلت حيا." وهكذا كانت خدوج تروح وتجيء أمام باب الحمام حين سمعت صوت ارتطام عميق، فأسرعت بالدخول مع آخرين يكاد يقتلها الخوف ووجدت الأخ الحبيب مطروحا على أرض دكة الصلاة في نوبة مرعبة، كانت أسوأ ما مر به، وهكذا أُرسل فارس إلى أبي في بيت المتوني لإحضاره.

كنا بسبب الجهل بالأمراض في جميع مثل هذه الحالات ضحايا الشعوذة المزعجة، والآن بعد أن تعرفت على علاج الأطباء الطبيعي والعقلاني كثيرا ما أشعر أن موتانا الكثيرين لم يكونوا ضحايا المرض في كثير من الحالات، وإنما ضحايا العلاج البربري. فلو لم يكن لدينا الإيمان الراسخ بقدرنا فلا أدري كيف كنا سنتحمل مستسلمين حالات الموت الكثيرة في عائلتنا ومحيطنا.

كان على ماجد المسكين الذي استلقى ساعات في حالة مرعبة من التشنج غائبا عن الوعي، أن يتنفس فوق سريره هواء يمكن أن يضر حتى بشخص معافى. فرغم حبنا الطبيعي للعراء والهواء الطلق فإن المرضى بالذات، خاصة إذا حام الشك حول دور الشيطان في الأمر كما هو الحال هنا، يعزلون عن الهواء الخارجي فضلا عن إحراق البخور بكثافة في الغرفة وفي البيت كله.

بعد ساعة وصل أبونا الطيب لدهشتنا في متوبي، وهو زورق صيادين صغير يتسع لشخص واحد فقط، ليأتي بخطوات مسرعة إلينا في البيت. كان للرجل الشيخ أكثر من أربعين من الأبناء ولكنه كان يصاب بالهلع لمرض أي منهم! انهمرت الدموع على وجنتيه حين وقف إلى جانب سرير ماجد، ودعا دون انقطاع "يا رب إحفظ لي ولدي!" ، وقد سمع الله تعالى دعاءه، فتماثل ماجد للشفاء.

سألته أمي فيما بعد، لماذا أتى في ذلك الزورق البائس. فقال: "حين جاءني الرسول بالخبر لم يكن ثمة قارب واحد على الساحل، كان يتوجب إعطاء الإشارة أولا ولم يكن لدي وقت للانتظار. وإن أوعزت بسرج حصان فإنه يستغرق وقتا طويلا أيضا. هنا رأيت صيادا يمضي في زورقه تحت الشرفة، تناولت سلاحي وناديته، وحين غادر الزورق قفزت إليه وجذفت قادما إلى هنا." ينبغي أن يعرف المرء الآن أن المتوبي هو زورق بائس يتكون من جذع شجرة جرى تجويفه، ونادرا ما يتسع لأكثر من شخص ولا يستخدم لتحريكه المجذاف وإنما جاروف مزدوج. إنه ضيق مدبب من الأمام وقصير

نسبيا، وهو لا يشبه من هذه الناحية الزوارق المسماة هنا بالغرونلندية.

وبالنسبة لوجهة النظر هنا يبدو الأمر غريبا أن يجد أب قلق على حياة ولده، يتخلى عن كل اتيكيت، الوقت مع ذلك ليفكر في سلاحه. يصح هنا أيضا المثل القائل: بلاد أخرى، عادات أخرى. كما يبدو للأوربي حب العربي الأصيل لسلاحه حبا لاحدود له غير مفهوم، يبدو الكثير مما هو في الشمال غير مفهوم للعربي، أذكّر فقط بالحانات الفظيعة للرجال هنا.

وهكذا صرت أذهب إلى المدرسة كل يوم في بيت الساحل لأعود كل مساء إلى أمي في بيت الواتورو . حين تعلمت أخيرا حوالي ثلث القرآن عن ظهر قلب، لم أعد اعتبر طفلة بالنسبة للمدرسة وكان عمري حوالي سبع سنوات. منذ ذلك الوقت صرت آتي مع أمي وخدوج أيام الجمعة فقط حين يكون أبي في بيت الساحل.

الانتقال إلى بيت الثاني

عشنا معا حوالي سنتين في بيت واتورو حياة طيبة في سلام. لكن أزمنة كهذه لا تدوم طويلا عادة للأسف. فقد تأتي أيام وتنشأ أوضاع لم يكن المرء يتوقعها أو يتنبأ بها. وهذا ما حدث لنا أيضا. كان سبب المضايقة في بيتنا هذه المرة مخلوقا لا يستطيع المرء تصور من هو أكثر طيبة ومودة منه. عائشة، قريبة بعيدة لنا جاءت منذ فترة قصيرة من وطننا عمان إلى زنجبار. لم يطل الوقت حتى تزوجت من ماجد. كنا نحبها جميعا وقد فرحنا لسعادة وفرح أخي ماجد عدا أخته خدوج. يؤلمني أن أعترف أن خدوج لم تكن على حق إزاء عائشة من البداية حتى النهاية. كانت الأخيرة كما قلت مخلوقا مبهجا من كل ناحية، وكانت شابة يافعة، وبدلا من أن تقوم خدوج بتعليمها وإعدادها بما يناسب مكانتها كما ينبغي أن يحدث، تجاهلتها هذه بل ناصبتها العداء. كان ينبغي أن تكون منذ زواجها بماجد سيدة البيت في الواقع، إلا أن خدوج فرضت وصايتها عليها رغم ذلك، حتى أن المسكينة عائشة وهي كما هي عليه من رقة، كانت تهرع إلى أمي بدموع منهمرة لتشكو لها ما لحق بها من ظلم.

وقفت أمي منذ هذا الوقت بين نارين، وأصبح موقفها أكثر صعوبة. لم ترد خدوج أن تتخلى عن حقها المتوهم وتابعت معاملة عائشة مثل طفل قاصر. وقد حاولت أمي عبثا أن توضح لها حقوق ومكانة زوجة ماجد. عبثا طلبت منها أن تتجنب، حبا بماجد، كل ما يمكن أن يكدره وينغص عليه. كان ذلك كله دون جدوى. ساءت الأحوال في بيت الواتورو والتي كانت ذات يوم مرضية وسعيدة، حتى أن أمي قررت أخيرا كي لا تكون شاهدة على هذا النزاع الدائم أن تترك البيت الذي كانت تحبه. لم يوافق ماجد وزوجته على هذا، خاصة عائشة التي كانت تسمي أمي "ماما"، إذ كانت يائسة تماما. وعلى العكس بقيت خدوج غير مكترثة، وهو ما جعل أمي تزداد إصرارا على قرارها.

لم تستطع عائشة أيضا أن تحتمل طويلا تحت هيمنة خدوج، فتطلقت من ماجد. وقد تأثرت المسكينة بهذه التجربة رغم شبابها، فلم ترد البقاء في زنجبار وبين أهلها. وحين توقفت ريح الجنوب التي اعتادت أن تبحر فيها سفننا إلى الشمال جاءت عائشة لتوديعنا. أرادت أن تعود إلى عمان، في منطقة قريبة من العاصمة مسقط حيث تعيش عمة لها، فقد كانت يتيمة مسكينة ليس لها أب أو أم.

كنا أنا وأمي قد انتقلنا قبل ذلك من بيت الواتورو إلى بيت الثاني. وقد فرحت أختي خولة بذلك فرحا شديدا. فأصبحنا نعيش في بيت واحد تقريبا، وكانت هي التي تدبرت لنا المسكن الجديد وأثثته.

كانت الزحمة في البيوت تجعل الحصول على غرفة صعبا. وقد

استحكمت عادة أن يعزي المرء نفسه باحتمال موت أحد السكان ليحل محله، مثلما يحدث هنا في بعض المنشآت. وإنه لكفر بالفعل، كيف كانت الواحدة أو الأخرى تترصد إصابة جارة لها بسعال خفيف معتقدة أنه السل الخبيث وتبدأ بتأثيث الغرفة حسب ذوقها بروح الوارث. أفكار شريرة حقا، ولكن الزحمة كانت شديدة. وكنا نحن أنفسنا ندين لخولة بالدرجة الأولى في أن نكون قد حصلنا في الحال على غرفة كبيرة جميلة دون أن يكون علينا انتظار موت أحد.

منذ ذلك الوقت لم نر خدوج إلا نادرا، كانت قد شعرت بالإهانة بسبب انتقالنا واتهمت أمي بالجفاء، دون حق تماما. لم تستطع أمي بإحساسها العادل و لم ترد أن ترى ذلك التعامل القبيح إزاء إمرأة لا سلاح لها، قليلة الخبرة، وأكثر من ذلك، لا ذنب لها سوى أنها أصبحت زوجة لماجد. وعلى العكس فقد ظل ماجد يتردد كثيرا لزيارتنا، وبقي كما كان دائما صديقا طيبا ومخلصا.

كان بيت الثاني يقع لصق بيت الساحل وكان يرتبط به كما ذكرت بجسر معلق يمر فوق الحمام التركي الذي يقع بينهما والذي كان في الأصل مشتركا. لم يبق لبيت الثاني الآن إلا بقايا من بهائه السابق. كانت قد سكنت في الطابق الأول من هذا البيت ذات يوم، قبل سنوات طويلة شيزادة، زوجة شرعية ثانية لأبي، وهي أميرة فارسية ذات حسن يشرح الصدر. وقد روي عنها أنها كانت تميل إلى ما هو غريب، ولكن كانت تحب أولاد زوجها حبا عميقا. وقد سكن في الطابق الأرضي مائة وخمسون فارسا، من الفرس بالطبع، هم

حاشيتها الصغيرة. كانت تخرج معهم راكبة إلى الصيد في وضح النهار، وقد كان هذا أكثر مما ينبغي من وجهة النظر العربية. أما ما يتعلق بالتربية البدنية فقد كانت النساء الفارسيات يحصلن على نوع من التربية السبارطية، إنهن يتمتعن بالحرية، وهن أكثر تحررا من العربيات، ولكنهن أيضا أكثر خشونة في التفكير والسلوك.

وكما يروى، كان بذخ شيزادة يفوق الوصف، كانت فساتينها (وكانت ترتدي دائما موديلات فارسية) مطرزة بلآلئ من الأعلى حتى الأسفل فعلا. وحين كانت عبداتها يجدن كمية غير قليلة من اللآلئ عند قيامهن بالتنظيف في الصباح كانت الأميرة ترفض استعادتها رفضا قاطعا. و لم تنهب خزينة أبي دون شعور بالمسؤولية فقط ، وإنما خرجت أيضا على بعض الواجبات الجدية لدينا. لقد تزوجت أبي الطيب لمقامه وثروته وحسب، بينما كانت تحب شخصا آخر. وقد كاد أبي أن يرتكب خطأ قتلها في فورة الغضب حين كانت قد عادت من واحدة من نزهاتها، هنا منعه سعيد النوبي المخلص من فعل متسرع. بعد هذا الحادث لم يكن ممكنا سوى الطلاق. ولحسن الحظ لم يكن لشيزادة أطفال. لاحقا، بعد عدة سنوات، حين خاض أبي حربا في بلاد فارس وكان له حظ الاستيلاء على قلعة بندر عباس على الخليج الفارسي، قيل أن شيزادة الجميلة شوهدت مع القطعات العسكرية، تصوب النار إلى أفراد عائلتنا.

هنا، في البيت السابق لتلك الأميرة بدأتُ أيضا بتعلم الكتابة بنفسي بطريقة بدائية. وكان ينبغي أن يحدث ذلك سرا بالطبع، فلم

يكن يسمح للنساء أن يحصلن على دروس في الكتابة وإظهار معرفتهن بها. استرشدت بالقرآن وحاولت أن أقلد الحروف بدقة، بكتابتها على عظمة لوح كتف بعير والذي كان يقوم لدينا مقام السبورة. نجحت في ذلك فزادت شجاعتي. ولم أكن بحاجة في الآخر إلا إلى بعض التعليمات في أصول الخط. هنا منحت أحد الخدم المتعلمين لدينا شرف أن يكون معلمي وهو أمر نادر. حين انكشف الأمر صرخوا في وجهي بصورة مرعبة، وهو ما لم أكترث له. وكم باركت مع مر الزمن هذا القرار الذي مكنني، وإن كان بصورة غير متقنة، أن أراسل أصدقائي المخلصين في وطني البعيد!

الحياة اليومية في بيتنا

كم مرة سئلت: "هلا قلت لي رجاء، كيف يستطيع الناس عندكم العيش دون أن ينشغلوا بشيء؟" وكانت لي مسرة معالجة الموضوع بحضور مجموعة كبيرة من الأشخاص من ست إلى ثماني مرات، وهي تسلية كان تكرارها بالنسبة لي بالطبع أمرا جذابا ومثيرا. غير أن هذا السؤال أمر مشروع تماما من قبل ساكن الشمال الذي لا يستطيع تصور حياة دون عمل ويعيش في قناعة تامة بأن الشرقية لا تعمل شيئا، وإنما تقضي أيامها حالمة في بيت حريم مغلق، وقد توقظها الأشياء الباذخة من حلمها فترة قصيرة من الزمن في أحسن الأحوال.

تختلف الظروف الطبيعية في كل مكان، ووفقا لها تتطور أيضا رؤيانا وعاداتنا وتقاليدنا بطريقة مختلفة. على المرء في الشمال أن يعمل إذا أراد البقاء، وأكثر من هذا ليستمتع بحياته، الأمر مختلف تماما لدى سكان الجنوب المنعمين. نعم، أكرر كلمة "منعمين" مرة أخرى، لأن قناعة الشعب ثروة كبيرة لا تقدر بثمن بالنسبة له، ذلك العربي الذي كثيرا ما يصور في الكتب كإنسان كسول، يملك قناعة كبيرة، لم يعد يوجد مثلها إلا لدى الصينيين. لقد فرضت الطبيعة على ساكن

الجنوب القدرة العمل إن شاء، بينما يتوجب العمل على ساكن الشمال... يميل الشماليون الى الغرور وينظرون بفخر واستهانة إلى مناوئيهم، وهي صفة لا تستحق الثناء. وفي هذا يغفل المرء هنا بسهولة كبيرة، كم أن الاجتهاد والنشاط الشماليين هما ضرورة لا غنى عنها إذا أريد الحفاظ على حياة مئات الآلاف من الناس. على الشمالي أن يعمل، ولكن لا ينبغي للمرء أن يجعل من ذلك فضيلة عظيمة. أليس الايطالي والاسباني والبرتغالي أقل عملا أيضا من الألماني والانكليزي؟ فمن أين يأتي هذا؟ ببساطة لأن الصيف لدى اولئك أطول من الشتاء، ولأنهم يحتاجون إلى كفاح أقل بكثير من أجل الحياة.

يتسبب البرد بآلاف أنواع العوز والحاجة، فينقضي النهار مثل حلم قصير بأعمال حياتية ضرورية لا يعرف الجنوبي أهميتها ولا حتى بوجودها.

يلعب الرفاه نفس الدور في كل مكان. فمن كان يملك المال والحس الضرورين، فإنه سيجد أينما كان الفرصة لتحقيق رغباته سواء عاش في الشمال أو في الجنوب. لذلك ينبغي أن يبقى هذا المجال بعيدا تماما فالحديث هو عن حاجات الإنسان الضرورية حقا هنا وهناك.

فإذا كان المولود يحتاج هنا إلى مئات الأشياء، من أجل حمايته كمخلوق ضعيف من مساوئ الطقس المتبدل، فإن المولود ذا البشرة السمراء في الجنوب يستلقي عاريا تقريبا، يغفو على الدوام في تيار هواء دافئ. لا بد للطفل الذي يقارب عمره السنتين هنا على سبيل المثال من حذاء وجورب، ورداء بساقين، ورداء ومعطفين، وقفاز

ومعطف قصير وقبعة وشال وجورب للساقين وغطاء للرسغين وآخر مماثل من الفراء، سواء كان ابن واحد من رجال البنوك أم ابن عامل يدوي - النوعية وحدها تختلف - بينما تتكون ملابس الطفل في مثل هذا العمر هناك حتى لو كان ابن أمير من قطعتين فقط: من قميص وكوفية.

أفيكون على أم عربية لا تحتاج إلا إلى القليل لها ولطفلها أن تعمل بنفس القدر مثل ربة بيت ألمانية؟ إنها لا تملك فكرة عن ترقيع الجورب والقفاز المثقوب، وعن جميع تلك الأعمال الكثيرة التي يحتاجها طفل في ثمانية أيام. وهي لا تعرف خاصة مسألة أساسية لكل عائلة اوروبية: الغسيل الكثير، هناك يغسل ما استعمل كل يوم، ويجف في أقل من نصف ساعة، يطوى باستواء (لا يكوى) ويوضع جانبا. وعدا هذا لا تستعمل هناك الستائر التي تحجب أشعة الشمس والتي تحتاج المحافظة عليها وغسلها إلى وقت كثير. وما تستهلكه الشرقية حتى السيدة الأنيقة من الملابس قليل جدا. وهذا أمر واضح، فهي هناك لا تتحرك كثيرا، لا تمضي كثيرا في الشوارع، وتملك ملابس أقل.

كل هذا وأشياء أخرى كثيرة تسهم في جعل حياة الشرقية، تقريبا دون فرق في الموقف من الحياة، أكثر احتمالا وراحة. ولكن لا بد للمرء أن يكون قد عاش هناك فترة طويلة ليتعرف على هذه الأشياء الصغيرة في الحياة البيتية. ولا يجوز الاعتماد في هذا على السياح الذين لا يقيمون هناك طويلا ولا يستطيعون أن يدخلوا في مثل هذه التفاصيل والذين يحتمل أن يكونوا قد حصلوا على معلوماتهم من

نذل الفنادق. والأوروبيات اللائي وصلنا فعلا إلى بيت حريم سواء كان ذلك في القسطنطينية أو القاهرة، فإنهن لم يرين بيت حريم حقيقي وإنما مظهره الخارجي، غرفة فخمة وحسب تحمل مسحة من التأثير الاوروبي إلى حد ما.

وأبعد من ذلك فإن المناخ الرائع معطاء وصالح حتى أن المرء لا يحتاج إلى أن يهتم ببقية يومه إلا نادرا. أما أن يكون الناس هناك مطبوعين جدا على الراحة، فهو ما لا أجادل فيه. فليتذكر المرء فقط أيام تموز وآب لصيف حار ليستطيع أن يتصور أي تأثير يمكن أن يكون للشمس الاستوائية على الإنسان.

العربي بطبعه ليس صناعيا. إنه يضع فنون الحرب والزراعة فوق كل شئ. وقسم صغير جدا يمارس حرفة يدوية. وليس للعربي مكانة مهمة في التجارة رغم أن عليه أن يمارس تجارة التبادل كثيرا، ولا يلاحظ المرء عليه الكثير من النشاط الذي يتصف به الساميون. قناعته تسهل عليه العيش بالقليل الذي لا يستحق الذكر، وهو يحتاط لحاضره فقط، ولا يفكر في وضع خطط للمستقبل كما يفعل المرء هنا، فعليه أيضا أن يتوقع الموت كل يوم. نادرا ما يزرع غير ما يستطيع أن يجنيه بنفسه. من لا يسلك على هذا النحو فإنه يعتبر أحمق (أنظر انجيل لوقا ١٢، ١٣-٣٠)

وهكذا فإن حياة الشرقي تمضي هادئة وبعمل أقل، كان علي أن أؤكد ذلك وأقدم الحجة له قبل أن أعرض بعض التفاصيل للحياة اليومية في بيت عربي. إلا أنني أؤكد أنني أتحدث عن الأوضاع في

عمان وزنجبار فقط اللتين تختلفان في جوانب كثيرة عنها في بلدان شرقية أخرى.

تنظم الصلاة يوم كل مسلم إلى حد ما. وهي تؤدى خمس مرات في اليوم، وإذا ما أديت بكل ما يتبعها من وضوء وتغيير للملابس طبقا للقرآن، فهي تحتاج بوجه عام إلى ثلاث ساعات على الأقل.

يوقظ الوجهاء بين الساعة الرابعة والخامسة والنصف في الصباح للصلاة، ثم يعود المرء بعدها للنوم ثانية. أما الشخص الورع فيتابع العبادة حتى طلوع الشمس في الساعة السادسة. هذا ينطبق بالطبع على الوجهاء فقط، أما أبناء الشعب فإن العمل اليومي يبدأ مع أول صلاة.

نادرا ما تكون هناك في بيتنا الذي يسكن فيه بضع مئات من الأشخاص قاعدة ثابتة، حيث يريد ويستطيع أن يعيش كل حسب مزاجه وراحته. كانت الوجبتان الرئيستان والصلوات التي تتكرر بانتظام وحدها هي ما يرغم المجتمع على نظام معين ثابت.

وهكذا كانت الغالبية تستأنف النوم حتى الساعة الثامنة تقريبا، النساء والفتيات وحدهن يجري ايقاظهن للاغتسال من قبل أمة تقوم بتدليك رفيق مريح بشكل لا يوصف. خلال ذلك يكون حوض الاستحمام قد ملئ بماء جديد من البئر، وتكون الملابس التي نثرت عليها في المساء زهور الياسمين أو البرتقال، ومخضت بالمسك والعنبر من قبل العذراوات أو الخادمات قد أعدت مع كل ما يتبعها.

يأتي في البدء الحمام الذي لا يحتاج إليه المرء في أي مكان من العا لم

أو يثمنه كما في الشرق. لا بد أن يكون المرء قد أقام بنفسه في البلدان الاستوائية ليستطيع أن يدرك أي شعور بالراحة يقدمه للإنسان حمام بارد يغسل به كل جسمه. إنه ينعش ويقوي بشكل استثنائي، كما أن العطر الرقيق المخلوط بمهارة يوقظ الذهن بطريقة مريحة جدا.

بعد الانتهاء من الاغتسال الذي يستغرق ساعة غالبا، يذهب الجميع إلى أبي ليلقي عليه تحية الصباح، ثم نجلس بعدها لتناول الإفطار، أولى الوجبتين الرئيستين. ولأن كل شيء يكون قد أعد قبل أن يدعونا نداء الطبل إلى المائدة، فإن وجبتنا تستغرق رغم غناها وقتا أقصر بكثير من مثيلاتها هنا.

تبدأ الحياة الحقيقية ابتداء من هذه الساعة، وبالطبع فإنه يجري استثمار الوقت بشكل مختلف. يستعد الرجال للذهاب إلى غرفة الاستقبال. أما النساء، وهن غير مضطرات للعمل، فإنهن يجلسن خلف النوافذ لمراقبة الحركة في الشارع، خاصة الوجهاء القادمين إلى الاجتماع، ويتلقين تحية تفهمها من وجهت إليها وحدها. هذه الأحاديث مسلية ومتنوعة للغاية. وليس نادرا أن يزعج الأطفال، أو يزاحون من أماكنهم أو يبعدون بفطنة من قبل الأمهات الحريصات أو العمات.

تمضي ساعتان إلى ثلاث ساعات على هذا النحو، دون أن يحس المرء بها. في هذا الوقت يقوم الرجال بزياراتهم أو يستقبلون الزوار وترسل النساء أخبارهن الشفوية بشأن المساء. أما النساء الرصينات و المنطقيات اللائي لا يستسغن ذلك النشاط فإنهن يجلسن فرادى أو

جماعات في غرفهن ذات الهواء المتجدد وينشغلن بالأعمال اليدوية، يطرزن أقنعتهن، قمصانهن أو أثوابهن بالذهب، أو قمصان القطن الخفيف لأزواجهن أو إخوتهن أو أبنائهن بحرير أحمر أو أبيض، وهو ما يحتاج إلى مهارة خاصة. ثمة آخريات يقرأن روايات أو يقمن بزيارات الأصحاء والمرضى في غرف سكناهم أو ينصرفن إلى شؤونهن الخاصة.

وهكذا تكون قد مرت ساعة دون أن ينتبه المرء إليها. يأتي الخدم ليبلغوا بحلول موعد صلاة الظهر. لقد أصبحت الشمس الآن محرقة، ويسر كل واحد أن يستلقي بعد صلاة الظهر بضع ساعات حالما، في رداء خفيف بارد على حصيرة ناعمة حيكت بشكل جذاب، تحمل غالبا آيات كريمة. يمر هذا الوقت أيضا بين النوم والمحادثات، بين تناول الكعك والفاكهة بسرعة.

في الساعة الرابعة يؤدي الجميع صلاة العصر ثم يرتدون ملابس العصر الفاخرة، ويذهبون لزيارة أبي ثانية ليتمنوا له وقتا طيبا، وكان يحق لإخوتي الراشدين أن يدعوه أبي، أما نحن الصغار وأمهاتنا فلا نخاطبه إلا بـ "حبابي" (سيدي).

عند هذا الوقت تكون الحياة أكثر نشاطا مما هي في الأوقات الأخرى، يجري تناول الوجبة الرئيسة الثانية التي تجتمع فيها العائلة للمرة الأخيرة.

بعد الانتهاء من الطعام يحمل الخصيان كراسي اوروبية إلى الساحة الكبيرة أمام جناح أبي، من أجل الراشدين فقط بالطبع، أما الصغار

فيجب عليهم الوقوف احتراما للسن، الذي لا يحترم في أي مكان آخر على هذا النحو الاستثنائي. تتجمع العائلة الكبيرة حول أبي الذي يبدو في مظهر جاد، ويقف على بعد معين الخصيان النظيفون والمسلحون في صف على طول الشرفة. تدور القهوة وتقدم أنواع من العصير مستوردة من جنوب فرنسا، والتي كان نصيبنا منها نحن الأطفال كبيرا. ويتبادل المرء أطراف الحديث مع ألحان حاك عملاق، لم أر في مثل حجمه ثانية. وللتغيير كانت توضع واحدة من الاسطوانات الكبيرة ليرتفع لحنها، أو تحضر عربية عمياء ذات صوت ساحرإسمها عمرة لتغني.

بعد ثلاثة أرباع الساعة تتفرق العائلة ثانية فيبحث كل عما يشغله، أو يمضي الوقت على هواه. وكان مضغ البيتل يلعب في ذلك دورا كبيرا. إنها عادة سواحيلية لا يستسيغها المولودون في بلاد العرب. أما نحن الذين أبصرنا النور في الساحل الشرقي لافريقيا، والذين نشأنا مع الزنوج والأجناس الهجينة فإن هذه العادة منتشرة بيننا انتشارا واسعا، رغم استنكار إخوتنا وأقاربنا الآسيويين، وكان علينا ألا ندع أبي يضبطنا ونحن نلوكها. ولكننا ما أن نبتعد عنه نمضي في مضغ البيتل، إلا أنني لم أفعل ذلك إلا في وقت لاحق.

في انشغالات متنوعة لقضاء الوقت تمضي الفترة القصيرة حتى تسمع بعض الإطلاقات ويرتفع ضجيج طبول الحرس الهندي الذي ينبهنا إلى مغيب الشمس ويذكرنا بموعد صلاة المغرب. لا تؤدى صلاة من بين الصلوات اليومية بمثل العجالة التي تؤدى بها هذه.

فلكل امرئ ما ينوي فعله بعدها. والذي لا يريد أن يخرج بنفسه (كنا نحن وأمهاتنا بحاجة إلى موافقة أبي أو من ينوب عنه من أجل هذا، إلا أن الطلب لا يرفض إلا في حالات نادرة) والتي لا تنتظر في المساء زيارة أحد فإنها مدعوة بالتأكيد في البيت أو كانت تستقبل الأخوات، زوجات الأب وأطفالهن والسراري، فيشربن العصير ويأكلن الفاكهة والكعك، ويمزحن ويضحكن، يستمعن إلى قراءة أو يلعبن الورق. (ولكن لا يراهن أبدا على المال أو أي ربح آخر)، ويغنين ويسمعن موسيقى زنجية على آلة الزاس، يخطن ويطرزن ويحكن، كل حسب رغبتها.

وهكذا فإنه لخطأ تماما أن يفترض المرء هنا أن المرأة من الوجهاء في الشرق لا تعمل شيئا على الإطلاق. أنها لا ترسم ولا تعزف الموسيقى أو ترقص (حسب المصطلحات المعروفة هنا)، فذلك أمر معروف تماما. ولكن هل يستطيع الإنسان أن يتلهى بهذا فقط؟ إن الناس هناك قنوعون جدا دون استثناء. الجري المحموم هنا لتسلية ومتع متنوعة غريب عليهم. ومن وجهة النظر الشائعة هنا قد يبدو الشرقي ضيق الأفق.

ولما كانت الخدمة الشخصية لدينا تقوم بها النساء وحسب، فإنه يجري صرف الخدم من الرجال حالما تنتهي الحاجة إليهم في المساء، ليذهبوا إلى منازلهم خارج البيت وإلى عوائلهم. وكذلك ينام الخصيان أيضا خارج البيت.

يدع المرء مصابيح الزيت في الغرف وفي الممرات مضيئة طول

الليل أحيانا. وتطفأ الشموع وحدها لدى الذهاب للنوم. ولا يرغم الأطفال الصغار الذين تجاوزوا سن الثانية أن يذهبوا للنوم في ساعة معينة، فإن المرء يترك لهم عمل ذلك حين يشعرون بالحاجة إلى الراحة. وهكذا لم يكن نادرا أن يغلب النعاس مثل هؤلاء الأطفال فيغفوا حيثما كانوا. ولا يوقظهم المرء إلا لإرسالهم إلى السرير. وفي العادة يتوجب على عدد من العبيد رفع الأطفال النائمين برفق وحملهم إلى مهجعهم مسافة كثيرا ما تكون طويلة، دون أن يشعروا بنقلهم.

من لم يخرج و لم يستقبل الزوار فإنه غالبا ما يذهب للنوم في حوالي العاشرة. لكن الكثيرين يحبون أن يمكثوا فوق سطوح البيت في ضوء القمر حتى منتصف الليل، وهي متعة فريدة من نوعها.

في حوالي السابعة والنصف تقام الصلاة الخامسة والأخيرة. ولكن في هذا الوقت بالذات يتعذر على الكثيرين بسبب الضيوف أو أي شيء آخر أداؤها. لهذا تبيح الشريعة تأجيل هذه الصلاة حتى منتصف الليل. عندئذ يؤديها المرء عادة قبل الذهاب إلى النوم.

وإذا ما استلقى المرء أخيرا، فإن السيدة الموسرة تجد أمتين تنتظرانها، وظيفتهما أن تعجلا إغفاءها وترعيا نومها.

تدلك واحدة أعضاءها كما يحدث في الصباح، وتحرك الأخرى المروحة، حتى تنام فتنسلان خارجا. عالم الوجهاء والأغنياء يدع أيضا الأقدام تغسل قبل ذلك بالكولونيا والماء وهو ما ينعش بشكل كبير. أما أن النساء يذهبن للنوم بكامل ملابسهن وحليهن فهو ما قد ذكرته سابقا.

وجبات طعامنا

كنا نتناول وجبتين من الطعام في اليوم كما ذكرت. نأتي جميعا في حوالي الساعة التاسعة إلى جناح أبي الكبير الذي يشبه القاعة، لإلقاء تحية الصباح عليه وتقبيل يده الكريمة. وقد شارك عادة في تناول الإفطار إخوتنا الذين يسكنون خارج البيت وأبناؤهم أيضا، حتى لو كانوا متزوجين، بالطبع طالما كان أبي مقيما بيننا في المدينة. وعلى العكس فأنا لا أستطيع أن أتذكر أن أبي تناول طعامه لدى أبنائه أو خارج البيت.

يكون الخصيان قد أعدوا جميع الأطعمة على السفرة (المائدة) الطويلة، وهي مائدة مصنوعة من الخشب وتذكر نوعا ما بمنضدة البليارد، كانت منضدتنا فقط في ضعف طولها، أعرض قليلا، وكانت تحيط بها حافة عرضها شبر، وكان ارتفاعها عشرة إلى خمسة عشر سنتمترا في أحسن الأحوال. لا يعرف المرء لدينا غرفة للطعام، وإنما تقام السفرة في الشرفة ببساطة. رغم أننا كنا نحصل بين حين وآخر على أثاث أوروبي، مثل الأرائك والكراسي من مختلف الأنواع والمناضد، وبين حين وآخر حتى خزانات الملابس (فقد كان في غرفة

أبي خاصة الكثير من الأثاث الأوروبي الذي لم يوضع للعرض وإنما للاستعمال حقا) ، فقد كنا شرقيين تماما أثناء الطعام، نجلس على الأرض، هذا يعني على السجاد أو الحصران.

وكان المرء يراعي المرتبة والمقام على المائدة بدقة. كان أبي يجلس دائما في النهاية العليا للسفرة، ويجلس إخوتي الكبار على يمينه ويساره، أما نحن الصغار (ابتداء من سن السابعة) فإننا كنا نحتل الأماكن السفلى. ولم يعرف المرء السلسلة المنوعة أو أحدا يقود الأشخاص إلى أماكنهم على المائدة.

كانت الأطعمة تتكون من أطباق مختلفة تصل غالبا إلى خمسة عشر. وكان ثمة رز قبل كل شيء أعد بطرق مختلفة، ومن اللحوم لحم الضأن ومن الطيور كان الدجاج هو المفضل. إلى جانب ذلك كانت هناك الأسماك وخبز شرقي وأنواع مختلفة من الكعك والمقبلات. توضع جميع هذه الأطعمة خلافا للعادة هنا، على المائدة مرة واحدة، قبل أن يجلس المرء لتناول الطعام. من هنا فإن المرء لا يحتاج إلى خدمة على المائدة، حيث يقف الخصيان الكثيرون على مسافة منا في طابور كالمعتاد، من أجل أن يكونوا حاضرين لدى أوامر خاصة محتملة.

كانوا يناولون أبي خاصة، حين تعجبه أكلة ما طبقا يملؤه بنفسه، ليرسله للأطفال الأصغر سنا الذين لا يسمح لهم بعد بتناول الطعام معه أو الأطفال المرضى. وقد كان يطلب مني في بيت المتوني أن أكون في زاوية معينة حيث أتلقى هذا الطبق المليء. كنا نحصل على نفس الأطعمة التي يتناولها الكبار، ولكن كان شيئا مريحا جدا بالطبع أن

نحصل على هذا الطعام وقد انتقاه أبي لنا، وكان هذا يمنحه الغبطة أيضا. حين كنا نجلس إلى المائدة كان الجميع يردد بصوت منخفض ولكن مسموع "بسم الله الرحمن الرحيم"، وعند النهوض "الحمد لله رب العالمين" الخ. وكان أبي أول من يجلس إلى المائدة وأول من ينهض. لا يوضع لكل شخص كما هو الحال هنا طبق خاص، وإنما كانت توضع الأطعمة المختلفة عدا الرز في أطباق صغيرة كثيرة تصف جميعها في تناظر دقيق على طول المائدة فيستطيع اثنان دائما الاشتراك في صحن.

لم يكن المرء يشرب أثناء الطعام، ولكن بعد الانتهاء منه يقدم الشربت أو الماء المحلى بالسكر. و لم يكن يتحدث أثناء تناول الطعام إلا نادرا، وذلك عندما يوجه أبي الحديث إلى واحد أو آخر منا، وإلا فقد كان يسود الهدوء التام الذي له جانبه الطيب أيضا. و لم تكن توضع الزهور أو الفاكهة على السفرة أبدا.

قبل الوجبتين الرئيستين وبعدهما بعدة دقائق كانت يقف عبيد وإماء نظيفون غير بعيد من المائدة يحملون أباريق الماء والطسوت والمناشف لنتمكن من غسل أيدينا قبل الأكل وبعده. فقد كنا نفضل استخدام الأيدي للأكل، إذ كانت السكاكين والشوك بالنسبة لنا شيئا فائضا، وكانت تُخرج من مخبئها فقط حين كنا نستضيف أوروبيين. كان اللحم والأسماك بالطبع قد قطعت في المطبخ إلى قطع صغيرة كل قطعة منها بحجم لقمة، وكان كل ما هو غير متماسك يتناول بالملعقة.

إعتاد المرء في العالم الأنيق أيضا أن يعطر يديه بعد غسلها ليزيل بذلك كل رائحة للطعام.

لم يكن المرء يتناول الفاكهة بعد وجبة الطعام أبدا، وإنما إما قبلها أو بعدها ببعض الوقت. حيث تحمل كمية من الأنواع المتوفرة منها حسب المواسم طبعا لكل شخص إلى غرفته.

وعلى العكس يدور الخصيان بعد الطعام بربع أو نصف ساعة بالقهوة العربية الأصيلة في الفناجين الشرقية الصغيرة التي تستقر في أوان من ذهب أوفضة. القهوة كثيفة تشبه المركزات، ولكنها صفيت من الحثالة تماما. وهي تشرب صافية دون سكر أو حليب. كما لا يأكل المرء معها شيئا، وفي أقصى الأحوال يتناول المرء معها شيئا من جوز النخيل الذي قطع تقطيعا ناعما.

تصب القهوة دائما قبل شربها مباشرة، وصبها يتطلب مهارة خاصة، لهذا فإن عددا قليلا من الخدم الكثيرين يمكن تعيينهم لهذه الوظيفة. يحمل مقدم القهوة الإبريق المطعم (الدلة) باليد اليسرى، وهو ليس من الخزف وإنما من القصدير المطعم بالنحاس الأصفر، بينما يحمل بيمناه فنجانا واحدا دائما مع صحنه (المسمى سرفا). يقف خلفه أو إلى جانبه مساعده يحمل صينية عليها فناجين كثيرة فارغة ودلة قهوة احتياطية كبيرة. إذا وجد الجماعة مجتمعة فإنه يستطيع أن يقوم بعمله في وقت قصير، أما إذا تفرق الأفراد فيكون عليه أن يذهب إلى كل واحد حيث يكون ليقدم له هذا الشراب اللذيذ.

للقهوة في الشرق كما هو معروف مكانة رفيعة، وهي تعامل طبقا لذلك بعناية شديدة. كدليل على ذلك تكفي هنا الملاحظة البسيطة أن القهوة تحمص وتطحن وتغلى للحاجة الآنية فقط فيستطيع المرء أن يشربها طازجة عدة مرات في اليوم. لا يحتفظ بالقهوة المعدة ولا بحبوب القهوة المحمصة، فحين لا تعود هذه طازجة ترمى أو تعطى في أحسن الأحوال للخدم.

الوجبة الأساسية الثانية والأخيرة تتناول في الساعة الرابعة بعد الظهر بالضبط، وهي تشبه الإفطار في كل شيء وهذا يعفيني من وصف إضافي. وعدا القهوة والفاكهة نادرا ما كان المرء يتناول بعدها شيئا حتى التاسعة في الصباح التالي.

الولادة والسنة الأولى من حياة أمير أو أميرة

رغم أن ولادة أمير أو أميرة لا يستقبل عندنا بإطلاقات المدافع المدوية إلا أنه كان دائما حدثا مهما يخلق الكثير من الفرح ولكن أيضا الكثير من الحسد للأسف. كان الأب والأم يفرحان دائما بولادة طفل جديد فرحا كبيرا وقد شاركناهم نحن الأطفال حقا الفرح دائما. فقد كانت الطقوس التي كان على الأخي أو الأخية الصغيرة أن يمر بها كثيرة تتحول كلها إلى احتفال عائلي نكون نحن الأطفال محوره. كانت مثل هذه الاحتفالات تتكرر في عائلتنا من أربع إلى ست مرات في السنة.

لا يعرف المسلم الأطباء المولدين، وإنما تستشار القابلات اللائي لا يعرفن أنفسهن شيئا. ينحدر أغلبهن من الهند ويُفضَلن على القابلات المحليات، لا أعرف أنا نفسي لماذا. فلم تتعلم القابلة الهندية ما هو مفيد أكثر من القابلة العربية أو السواحيلية. ما هو ثابت أنه إذا عاشت النفساء ووليدها وبقيت معافاة فالفضل في ذلك إنما يعود إلى إرادة الله وقوة جسدها وليس إلى القابلات الجاهلات إلى أبعد حد. لقد سمعت فيما بعد من صديقاتي المتزوجات الكثير عن أساليبهن

البربرية، التي لا أريد أن أعيد روايتها.

بعد أن يغسل الوليد بالماء الدافئ يلف حول جسمه رباط، ويرش على عنقه وتحت ابطيه مسحوق نباتي عاطر، ويلبس رداء من الجيت الأصلي أو الموسلين. ثم يوضع الكائن الصغير على ظهره، وتمد يداه وساقاه بصورة مستقيمة ما أمكن ويشرع بلفه كاملا حتى الكتفين بالقماط الذي يلف أيضا الذراعين والساقين بثبات. ويبقى الطفل في هذا الحبس ليلا ونهارا أربعين يوما، ولا يتحرر من قيوده إلا عند الاستحمام الذي يجري مرتين في اليوم ولدى التجفيف، والقصد من هذا الربط هو أن يحصل الطفل على قوام مستقيم إلى الأبد.

تقوم الأم عادة برعاية الطفل بنفسها بمحبة رغم كثرة الخدم. أما المهد الواسع المصنوع من خشب ثمين والمستورد من شرق الهند فتتوالى على هزه الإماء وكثيرا ما يفعلن ذلك بقوة. وحسب ما يقتضيه الموسم فإنه يغطى بستارة من التول أو القطن الخفيف كشبكة واقية من البعوض.

ولا ترضع الأمهات الأطفال بأنفسهن إلا نادرا، وإذا فعلن ذلك بين حين وآخر فإنما يفعلنه لقضاء الوقت، إذ تخصص لكل طفل مرضعة أو اثنتان دائما حتى يبلغ عمره السنتين.

وإذا كان المولود أنثى تثقب أذناها في اليوم السابع بإبرة خياطة وخيط أحمر من الحرير ست مرات في كل أذن لتعلق فيها بعد شهور قليلة الأقراط الذهبية الثقيلة إلى الأبد. أقول "إلى الأبد" ، فمن لا تحمل الأقراط هناك فإما أنها حزينة على شخص عزيز أو ليس لها ثقوب في

أذنيها.

يقام في اليوم الأربعين من حياة الطفل طقس خاص جدا، لا يقيمه الأوروبيون أو يقيمونه نادرا جدا، ألا وهو حلاقة شعر رأسه الأول. ومهما بدا هذا لشقراء أو أخرى في اللحظة الأولى شيئا لا يصدق، فعلى المرء أن يأخذ بنظر الاعتبار أن بعض الأشياء تختلف في الجنوب عما هي عليه هنا، فيبدو طفل دون شعر شيئا غريبا أيضا، كما يحدث لو أن طفلا ولد هنا بشعر كثيف. فكم بدا شعر إبنتي الصغيرة الأسود الذي يصل إلى الرقبة لمديرة منزلي في همبورغ غريبا، ولم تهدأ إلا حين أتاها المرحوم زوجي بفرشاة للشعر بدأت تمشط بها شعر المخلوق الذي له من العمر يومان وهي سعيدة.

يتولى الحلاقة رئيس الخصيان مراعيا شكليات معينة، حيث لا بد من حرق البخور، نوع من اللبان (شبيه بالبخور في الكنيسة الكاثوليكية). يلعب الشعر الأول دورا خاصا، فلا يجوز حرقه ولا رميه في القمامة وإنما يدفنه المرء في الأرض أو يرميه في البحر أو يخفيه في شق في الجدار. يشارك في الطقوس الاحتفالية عشرون إلى ثلاثين شخصا، ويقوم الخطر بالنسبة لرئيس الخصيان الذي يقوم بدور الحلاق في مثل هذه المناسبة أن يضغط سهوا المواضع الرقيقة الرخوة من رأس المخلوق الصغير. وهو يحصل بعد هذا العمل دائما مع جميع مساعديه الكثيرين على هدية تكريمية مناسبة من أبي.

يحرر الطفل في هذا اليوم أيضا من القماط إلى الأبد، ويلبس الأساور والحجول والأقراط ويلبس قيصا من الحرير وكوفية، وهي

طاقية من قماش مذهب لها زائدتان تغطيان الأذنين. ويسمح منذ الآن بإظهاره أمام الجميع. فحتى هذا الوقت لم يسمح برؤيته إلا للأبوين، والإماء اللائي لا غنى عنهن لخدمته وصديقات المرأة النفساء الحميمات جدا. الإعتقاد الشائع حول نظرة العين الشريرة، والسحر بجميع أنواعه هو الذي يفرض هذا الإجراء.

لا خلاف في أن الأطفال الشرقيين يبدون في هذه السن أجمل كثيرا من الأوروبيين، وذلك لأن الأخيرين يحاطون بالبياض أكثر مما ينبغي. إنني منذ سنوات طويلة في ألمانيا ولا أستطيع مع ذلك أن أشكل تقييما آخر. وقد بدا لي أطفالي في ملابس الرضع لا يطاقون. كان التضاد كبيرا حين كنت أتذكر إخوتي الصغار وأبناء إخوتي وبناتهن في زيهن الجميل وأنا أرى أطفالي يتقافزون أمامي بملابسهم الأوروبية.

يبدأ التعطير المركز للملابس لدى أصغر الأطفال. يرش كل ما هو خاص بهم، الملابس، أغطية السرير ومناشف الحمام بزهور الياسمين ذات العطر اللطيف (نوع آخر غير النوع المعروف هنا)، ثم تدخن قبل الاستعمال بالمسك والعنبر وتضمخ أخيرا بماء الورد. ولكن لا ينبغي للمرء أن ينسى أن النوافذ والأبواب تبقى مفتوحة ليلا ونهارا طوال السنة تقريبا وأن المرء يعادل دون أن يدري ضرر هذا الولع بالروائح الطيبة.

ومن أجل حماية الطفل من النظرة الشريرة المتوهمة يعلق به طلسم يسمى "حماية" أو "حافظا" بدءا من اليوم الأربعين. وهو يتكون من

أشياء مختلفة، خاصة لدى الطبقات الدنيا من الشعب: بصلة، سن ثوم، أصداف صغيرة، عظمة وغيرها، يحملها الأطفال مخاطة في جلد يربط حول العضد الأيسر . وفي الطبقات العليا تستخدم بدل الطلسم آيات قرآنية مختارة، منقوشة على رقائق من الذهب أو الفضة تعلق في سلسلة حول العنق. يحتفظ الصبيان بهذه الآيات حتى سن معينة فقط، أما الفتيات فكثيرا ما يتابعن حملها. وهن يفضلن الحرز (الحارس)، وهو كتاب صغير جدا، طوله حوالي سبعة سنتيمترات وعرضه أربعة أو خمسة سنتيمترات، محفوظ في صندوق ذهبي أو فضي جميل الصنع يعلق في سلسلة حول العنق. ولا يجوز لمن يحمل مثل هذا الطلسم الذي حفر عليه اسم الله تعالى دخول الأماكن غير الطاهرة، وهو بالتأكيد دليل واضح على خوف المسلمين المؤمنين الذي لا حدود له من ربهم وخالقهم.

وفيما عدا حليب الأم يحصل الطفل بعد وقت قصير على حساء الحليب عدة مرات في اليوم، وهو يعد من طحين الرز وقليل من السكر، يطبخ وقتا طويلا، ويشربه الطفل بكوب له مسكب طولي. كانت زجاجة الرضاعة في أيامي غير معروفة تماما هناك. ويبقى هذا كل ما يحصل عليه الطفل من الغذاء حتى تظهر أسنانه فيستطيع إذاك تناول كل شيء. لا يحمل الأطفال إلا قليلا، إذ يفضل المرء وضعهم على الأرض المفروشة بالسجاد، حيث يستطيعون أن يتحركوا كما يشاؤون.

وما أن يقوم الطفل بأول محاولات الجلوس حتى يقام احتفال آخر،

يستفيد منه جمع الأخوة الصغار. ومن أجل المشاركة في احتفال جلوس أخينا الصغير أو أختنا، يجرى في هذا اليوم إعداد طعام خاص. تلبس الأم والإماء والطفل أفضل ملابسهن وحليهن. ويجلس الطفل في عربة مستطيلة متوسطة الحجم تقوم على عجلات منخفضة جدا، ومحاطة من الداخل بأغطية ومخدات ناعمة. وفوق القادوم يرتفع عمود صغير يضع المرء ساقي الطفل المحتفل به عى جانبيه، يحيطه الأطفال الآخرون.

خلال ذلك تكون الذرة قد حمصت بطريقة خاصة فتصبح لينة مثل القطن، حجم الحبة منها بحجم الكشتبان. يخلط المرء بها قطع نقود فضية صغيرة ويفرغ هذا الخليط فوق رأس الطفل، فيهجم الإخوة لينهبوا الأخ الصغير أو الأخت. وليس نادرا أن يكون هذا في خطر وهو أمر واضح. وكثيرا ما يدعى إلى هذا الاحتفال أطفال آخرون من أوساطنا تتراوح أعمارهم بين أربع وعشر سنوات.

وطالما لا يكون لدى الطفل القوة الكافية للبس النعال (يسمى الخشبي منه الخاص بالبنات والنساء قبقابا والجلدي للصبيان والرجال وطية) يتجول حافيا، ولأن الوطية أسهل في اللبس من القبقاب يدع المرء البنات الصغيرات جدا يلبسنها في البداية حتى يملكن المهارة الكافية للبس القبقاب بعد ذلك دائما. لا يلبس الجواريب لا الصغار ولا الكبار من الجنسين، النساء الوجيهات وحدهن يحتجن إليها بين حين وآخر لركوب الخيل، لأن العادات تقتضي تغطية الكاحل.

يحصل الطفل في سن تتراوح بين شهرين وأربعة أشهر من أبي عدا

المرضعات على عبدين أو ثلاثة لخدمته، وهم يبقون جميعا منذ الآن ملكا له. وكلما كبر حصل على عدد أكبر من العبيد لخدمته، وإذا مات أحدهم يقدم له أبي بديلا عنه أو يهديه مبلغا مناسبا من المال. تلبس الفتيات الصغيرات حتى سن معينة في البيت أيضا طاقية صبيان.

يبقى كل أمير حتى سن السابعة مع النساء في البيت، في هذه السن يقام له الشعيرة الموسوية (الختان). تلعب الطقوس هنا أيضا بالطبع دورا كبيرا، وتنتهي بعد شفاء الطفل باحتفال كبير جدا يشارك فيه الوجهاء والموظفون من المراتب العليا. يجري هذا الفعل ما أمكن في الريف بحضور أبي. ويشمل هذا أيضا استضافة عامة تستمر في العادة ثلاثة أيام. يحصل كل صبي ابتداء من هذا الوقت على فرس وديعة تكون ملكا له. يستطيع مرافقوه أن يركبوا من الإسطبل حيث توجد دائما بضع مئات من الخيول العربية. على هذا النحو يتعلم الصبي في وقت مبكر الفروسية ويتقنها ويحصل على مهارة ومرونة لا يتوقعها المرء إلا من فارس سيرك مدرب. ولأنه لا توجد لدينا سروج ولا ركاب فإن الجلوس على ظهر الحصان بثبات يتطلب مهارة أكبر مما هو الحال هنا. يتبع أبي عادة خاصة حين يرتكب أبناؤه خلال واحدة من هذه الجولات خطأ، فلا يكون عليهم وحدهم تحمل العقوبة وإنما يعاقب مرافقوهم أيضا، فقد كان أبي يفترض أن هؤلاء مع الوصاية والتوجيهات الصارمة التي أعطاها لهم، لا بد أن يكونوا قد تساهلوا مع الأمراء كثيرا.

لم نكن جميعا مدللين بأي شكل. فإلى جانب حب أبي الكبير

للعدالة وشهامته التي لا مثيل لها، اتصف أيضا بالصرامة التي لا تعرف الضعف. كان علينا أن نطيع جميع مربياتنا ومعلماتنا طاعة كاملة، سواء كن عربيات أو حبشيات أو زنجيات بسيطات. فإذا حدث أن شكوننا لدى أبي، فيكون علينا بالتأكيد أن ننسحب باكين أو على الأقل خجلين. علمتنا هذه الصرامة الاحترام الواجب إزاء مثل هؤلاء الناس، ومع تقدم السن ينمو الإدراك الأخلاقي العميق في أن من واجبنا أن نكون كذلك.

تتمتع المرضعات بمكانة خاصة حتى لو كن قد قمن بهذا العمل وقتا قصيرا، ويحرزن الاحترام مدى الحياة. وهن جميعا من الإماء إلا أنهن يحصلن على الحرية اعترافا بإخلاصهن وتضحيتهن. تتميز المرضعات السوداوات خاصة بإخلاص استثنائي وتعلق. تستطيع حتى أكثر الأمهات حرصا ترك طفلها للمرضعة التي تعتبر نفسها أما ثانية وتتصرف وفق ذلك أيضا. كم هو موجع عدم اهتمام وقسوة المربيات هنا! كثيرا ما وجدتني مرغمة على التدخل وأنا أصادف مثل هذا الكائن الذي لا أعرفه تماما في متنزه عام، بسبب المعاملة الوحشية للمخلوق الصغير الذي وضع في عهدته.

هذا التناقض بين المربيات هنا ومربياتنا العربيات يمكن تفسيره من خلال أن الأولى أرغمت بسبب فقرها فقط أن تعهد بطفلها الحبيب لإنسان غريب متحملة شيئا من التضحية. إنهن يخدمن السادة من أجل المال فقط، لا يهمهن أن يكون الطفل الذي يتوجب عليهن إرضاعه زيدا أم عمرو، تبقى أفكارهن ومشاعرهن، وهو أمر طبيعي،

هناك حيث يكون أطفالهن. وأي أم تستطيع أن تلومهن على هذا!

أما المربية السوداء فعلاقتها مختلفة تماما بطفل سيدتها الموضوع في عهدتها. فهي منذ سنوات في خدمتها وربما تكون قد ولدت في بيتها، وهنا يصبح واضحا أن ليس لديها اهتمامات شخصية كثيرة، وأنها تجعل اهتمامات أسيادها همها الشخصي. يضاف إلى هذا الوضع الخارجي المهم، وهو أن المرضعة السوداء لا تحتاج أن تعطي طفلها بعيدا عنها، وإنما تستطيع أن تحتفظ به، فيحصل طفلها على نفس الغذاء الذي يحصل عليه طفل سيدها أو سيدتها، نفس حساء الحليب، يأكل من نفس الدجاجة وهكذا، كذلك الحال بشأن الاغتسال، ويحصل على الملابس التي يُستغنى عنها. وإذا كفت أمه عن العمل كمرضعة فإن طفلها يبقى رفيق اللعب للطفل الذي أرضعته. فإذا بقي عبدا فإنه يفضَل على جميع العبيد الآخرين ولا يؤذي إلا شخص سيء أخاه في الرضاعة.

هذه العلاقات، أريد أن أقول الأبوية، بأكملها، تجعل مرضعاتنا أكثر حبا من المرضعات هنا. كثيرا ما فكرت، كم هو بالغ الصعوبة بالنسبة للمرضعات المسكينات، رغم كل صفاتهن السيئة، أن يتركن أطفالهن من أجل النقود فقط. كثيرا ما قيل لي أن الناس لا يشعرون أبدا كما أتصور، وهو ما لا أفهمه ببساطة. أن أترك طفلي الحبيب العاجز لشخص غريب تماما ودون اكتراث؟ اوه كلا، ليس مقابل العا لم كله!

ولكن للمرضعات السوداوات صفة سيئة جدا. إنهن يعرفن كيف

يروين للأطفال الصغار بين سن الثالثة والخامسة قصصا وحكايات غير معقولة، كثيرا ما يقف لها شعر الرأس، من أجل تسليتهم تارة ومن أجل تخويفهم تارة أخرى. يحتل الأسد (سيمبا) والليوبارد (تشووي) والفيل (تيمبو) والساحرات الكثيرات (فاتشافي) المكان الأول بالطبع في هذه الحكايات التي كثيرا ما ترعب حتى الراشدين. ولا يمكن تخليصهن بأية طريقة من ميلهن هذا.

بشكل عام فإن رعاية الطفل في الجنوب أكثر سهولة مما هي هنا دون خلاف: فهناك لا توجد قبل كل شيء الإصابات بالبرد وكل ما تأتي به هذه الإصابات بانتظام. والأطفال هناك رغم كل هذه الراحة مستقلون جدا ونشيطون، فهم يستطيعون أن يلعبوا ويقفزوا كما يريدون بحرية أكبر ودون تضييق (في المكان أو في الملابس). وإن كان المرء لا يعرف التمارين الرياضية المنظمة فإنه ليس نادرا أن أن يظهر صبي بين العاشرة والثانية عشرة مهارة في القفز من على ظهر حصان إلى آخر. ويلعب القفز العالي دورا كبيرا فيبذل كل جهده ليسبق الآخر حسبما تسمح به طاقته.

وتمارس السباحة بحماسة لا تقل عن ذلك، يتعلمها كل بنفسه دون أية إرشادات. ويبدأ بتعلم الرماية في وقت مبكر أيضا وتمارس بكثير من الشغف. والمبارزات الرياضية محبوبة جدا، تخصص لها بعض الساعات منذ فترة الشباب. ورغم أن الفتيان يخرجون وهم مسلحون حتى الأسنان، ويحملون معهم كمية كبيرة من البارود والرصاص مثل الراشدين، إلا أن المرء لا يكاد يسمع عن حادث

تسبب فيه عدم الحذر.

كان الأمراء الذكور يبقون في البيت الأبوي حتى عمر معين كما ذكرت سابقا، ثم يحصل كل منهم على بيت خاص به، ليسكنه مع أمه إذا كانت لا تزال حية، ويديره بصورة مستقلة. وكراتب شهري يخصص له أبي مبلغا معينا شهريا، عليه أن يتدبر أمره به، وهو على أية حال يتناسب مع حاجاته. وعند الزواج أو زيادة عدد أفراد العائلة وكذلك أيضا في حالة حسن التصرف يمكنه أن يتوقع زيادة، وإلا فلا. وحين تصل سفن أبي كل عام بالمشتريات الجديدة يحضر كل الإخوة الذين يسكنون خارج البيت الأبوي مع عوائلهم من أجل التقسيم، ويحصل كل على نصيبه، سواء كان محتاجا إليه أم لا. وإذا حدث أن كان أحدهم سيء الحظ وأنفق أكثر من المبلغ المخصص له، فإنه لن يسَهل عليه دفع ديونه. لم يكن أبي يكره شيئا كما يكره هذا، ومن عرض نفسه لهذه الفضيحة مرة فإنه سيحذر أن يعرض نفسه لها ثانية.

وإذا نشبت حرب، وهو ما كان يحدث في عمان كثيرا للأسف، يكون على جميع الأمراء، أولئك الذين لا يزالون في سن اليفاعة أيضا أن يشاركوا في القتال، مثل كل الرجال العاديين.

كانت التربية بوجه عام صارمة، إلا أنها زادت من إجلال الأبناء لأبيهم واحترامهم به. لقد رأيت في طفولتي بدهشة كيف كان الأخوة يسبقون العبيد لتقديم النعال الموضوع أمام باب الغرفة لأبي. كان إخوتي الكبار أيضا يأتون أكثر من مرة في اليوم إلى البيت

الأبوي، طالما يكون أبي حاضرا ويشاركون في وجبات الطعام.

ليس ثمة الكثير ليقال عن تربية الأميرات، إنها في السنوات الأولى التربية نفسها التي يحظى بها الأخوة، ولكن هؤلاء يتمتعون بعد سن السابعة بحرية أكبر خارج البيت. شيء واحد تجدر الإشارة إليه وهو أنه لدى ولادة أميرة يضع المرء مشطا عريضا يناسب غطاء الرأس، غالبا من الفضة، تحت رأس الرضيعة من الخلف، ليأخذ شكلا مسطحا في السنوات اللاحقة. وإذا تزوجت أميرة ابن عم لها، وهم في عمان أكثر عددا منهم في زنجبار، فإنها تغادر بالطبع البيت الأبوي وتستبدل به بيت الزوج. وفيما عدا هذا فإن بيت الأب يبقى المأوى الحقيقي الوحيد لها إذا ما ضاقت بها الحال. ولكنها تستطيع أن تقيم لدى أحد إخوتها إذا أرادت. ولكل أخت أخوها الأحب إليها والعكس صحيح، حيث يشاركان بعضهما السراء والضراء ويساند أحدهما الاخر قولا وعملا. ورغم أن هذا التقليد يستحق الثناء وهو يمنح المعنيين السعادة، إلا أنه كثيرا ما كان يثير كما هو مفهوم في عائلة كبيرة مثل عائلتنا، الغيرة بين الإخوة. ويحتاج المرء إلى شخصية قوية ليضع نفسه فوق كل هذا.

وكثيرا ما كان على أخت محبة أن تشفع لأخيها الأحب بسبب هفوة ارتكبها لدى أبي الذي كان يفضل البنات ونادرا ما كان يرد لهن طلبا. وكان مع بناته الكبيرات خاصة شديد اللطف، إذ كان يمضي لاستقبالهن من بعيد ويدعهن يجلسن إلى جانبه على الأريكة، بينما كان الأبناء الراشدون من الذكور ونحن الصغار نقف أمامه باحترام.

المدرسة في الشرق

ليس للمدرسة بالنسبة للشرقيين بوجه عام وبالنسبة لنا أيضا أهمية تذكر. إنها في اوروبا موضع اهتمام الدولة والكنيسة، للأمير والمواطن دون تمييز. فعلى نتائجها تتوقف حياة الفرد سواء من ناحية بناء شخصيته أو آفاق مستقبله. وعلى العكس في الشرق فإن المدرسة شيء ثانوي، وهي غير موجودة بالنسبة للكثيرين. وقبل أن أسمح لنفسي بايضاحات أخرى أريد أن أتحدث قبل كل شيء عما كنا نسميه في بيتنا مدرسة.

كان على جميع الإخوة الصبيان والبنات الذهاب إلى المدرسة بين سن السادسة والسابعة. كنا نحن البنات نتعلم القراءة فقط، بينما يتعلم الصبيان القراءة والكتابة. وكانت ثمة معلمة واحدة تقوم بالتدريس في بيت المتوني وبيت الساحل، استقدمها أبي من عمان. وهكذا حين كانت المعلمة تمرض ويتعين عليها ملازمة الفراش، يعم الفرح بيننا، إذ لم يكن الحصول على بديل لها ممكنا وهكذا كنا نتمتع بعطلة.

لم تكن ثمة غرفة خاصة للدرس، فكنا ندرس في شرفة مكشوفة

يدخلها الحمام والببغاوات والطواويس دون عائق. كنا نستطيع من هنا أن نرى الساحة ونتسلى بمراقبة الحركة النشيطة فيها تسلية رائعة. وكانت حصيرة كبيرة وحيدة تشكل أثاث مكان الدرس. وكانت أدواتنا المدرسية بسيطة أيضا، كان لدينا قرآن وحسب مع مسند يوضع عليه (مرفأ) ومحبرة صغيرة وضع فيها حبر صنعناه بأنفسنا، ريشة من القصب وعظم لوح كتف جمل، قصر قصرا جيدا، يقوم مقام السبورة. ويمكن الكتابة عليه بالحبر بصورة جيدة جدا، دون توتر الأعصاب الذي يسببه الصرير الناشيء عند الكتابة على السبورة، وقد كفلت الإماء مسح الألواح عادة.

كان علينا في البدء مثلما هو الحال هنا أن نتعلم الحروف الأبجدية العربية المعقدة جدا. ثم بدأنا نقرأ القرآن حيث لا يوجد كتاب مدرسي آخر، تبعه بالنسبة للصبيان درس الكتابة كما ذكرت. كنا حين نستطيع أن نقرأ بعض الشيء، نقرأ معا وبصوت عال جدا في الغالب. وهذا هو كل شيء، حيث لا يشرح ما قرئ أو حفظ أبدا. من هنا قد لا يوجد بين الآلاف سوى واحد يفهم جميع أفكار وتعليمات الكتاب المقدس للمسلمين كلمة كلمة ويستطيع شرحه، رغم أن ثمانين بالمئة منا قد حفظ نصفه عن ظهر قلب. كان التفكير حول الكتاب المقدس يعتبر غريبا عن الدين وغير مسموح به، فعلى الإنسان أن يؤمن بما يعلم، وكنا نلتزم بهذا بصرامة.

في السابعة صباحا، بعد أن نكون قد أكلنا شيئا من الفاكهة، يتوجب علينا أن نكون قد جلسنا على الحصيرة التي كانت قد طويت

في الليل، وقد كنست الآن فأصبحت نظيفة، وننتظر قدوم معلمتنا الصارمة. وكنا نقضي الوقت حتى مجيئها كما نحب بالمصارعة والملاكمة والقفز والتسلق على الحواجز الذي لا يخلو من الخطورة على الحياة وأشياء أخرى مما يحبه الأطفال. وكنا نقيم عند منعطف الشرفة حراسة تنبهنا من خلال سعال مفتعل بقدوم المعلمة من بعيد. نجلس بجهد جميعا على الحصيرة، صورة للبراءة، وحالما نسمع خطواتها تقترب ننتفض واقفين لنمد أيدينا باحترام للمعلمة التي نخافها ونتمنى لها صباحا سعيدا. كانت تحمل بيدها اليمنى دائما عصا القصب وباليد الأخرى إناء حبر من النحاس الأصفر. كنا نقف أمامها في صف حتى تستقر جالسة، ثم يكون لنا أن نحذو حذوها. فنجلس جميعا مستوين بسيقان متقاطعة على الحصيرة في دائرة حول المعلمة.

كانت تبدأ الآن بتلاوة سورة الفاتحة، التي تعادل لدى المسلمين "أبانا الذي في السموات" فنتبعها في كورس ونختم التلاوة بكلمة آمين المعروفة. نعيد ما كنا قد تعلمناه في اليوم السابق ونحصل على مادة جديدة للقراءة أو الكتابة. كان الدرس يستمر على هذا النحو بانتظام حتى التاسعة تقريبا، ثم بعد الانتهاء من الإفطار حتى الظهر تقريبا، وقت الصلاة الثانية. كان يسمح لكل منا أن يأتي معه ببعض عبيده ويدعهم يشاركون في الدرس، وكان هؤلاء يجلسون خلفنا على مسافة معينة، بينما كنا نحن نشكل مجموعات كما يحلو لنا، إذ لم تكن ثمة مقاعد مخصصة لكل منا ولا تقسيم في صفوف مختلفة.

وليس للمرء هناك فكرة عن الدرجات التي تثير هنا طيلة الأعوام عدة مرات قلقا محموما. وإذا ما حقق أحدنا تقدما فإنه يكون قد فعل ذلك من خلال السلوك الطيب أو الردئ، فتبلغ الأم المعنية والأب عادة شفهيا. وقد حصلت المعلمة على أمر واضح من هؤلاء أن تعاقبنا بحزم إذا وجدت سببا لذلك. وكثيرا ما ارغمها عدم انضباطنا الكبير على استخدام عصا القصب الشريرة.

وفيما عدا القراءة والكتابة كنا نتعلم شيئا في الحساب، فنتعلم كتابة الأعداد حتى المئة والعد شفهيا حتى الألف. ويبدو أن ما يزيد على ذلك أمر منكر. لا يبذل المرء جهدا كبيرا لتعلم النحو والخط، ومع مرور الزمن يتعلم المرء النحو المعقد بكثرة القراءة من تلقاء نفسه. لم أسمع في وطني شيئا عن كل العلوم مثل التاريخ والجغرافيا وعلوم الطبيعة والرياضيات، وما إلى ذلك، ناهيك عن تعلمها. تهيأت لي الفرصة هنا وحسب للتعرف على كل هذه المجالات العلمية. ولكن ما إذا كنت الآن بالقدر القليل من الحكمة التي اكتسبتها هنا بجهد، أفضل وضعا من الآخرين هناك، فهي بالنسبة لي مسألة غير محسومة. شيء واحد مؤكد هو أنني لم أخدع وأغش كما حدث في فترة الحكمة الكبيرة. آه أيها الناس السعداء هناك في الوطن! لن تكون لديكم فكرة حتى في الحلم عما يرتبط بالحضارة المقدسة!

لم نكن نعرف في نظام الدرس عندنا ما يسمى بالواجبات المدرسية المنزلية التي تستغرق هنا ساعات كثيرة.

وتحظى المعلمة، رغم الخوف منها، باحترام كبير بصورة خاصة

لدى تلاميذها وتلميذاتها، فإنهم لن يبخلوا عليها بالاحترام الذي تستحقه وهم يقابلونها بإجلال حتى حين يكونون قد كبروا. ولا يندر أن يطلب أحد يريد من آخر شيئا لا يفلح في الحصول عليه أن يطلب من معلمة الأخير الوساطة. فلهذه العلاقة إلى حد ما شبه بتلك التي تربط الكاثوليكي الورع بالأب الروحي له.

ولكن ثمة شيء واحد يشترك فيه اطفال المدارس الشرقيين مع الأوربيين: الحدس الطبيعي في كسب ود المعلمة عن طريق الهدايا، رشوتها. حين كان أطفالي هنا يطلبون مني بضعة دريهمات من أجل شراء باقة زهور أو أصيص زهور للآنسة ساوندسو، كنت أتذكر مرغمة أيام دراستي. شيء كهذا يكمن في الإنسان نفسه، لا في أمة معينة. فقبل أن تكون لدي فكرة عن وجود ألمانيا وجميع مدارسها وتلاميذها، جرجرت مع إخوتي كل ما يخطر على البال، وعلى وجه التفضيل، أنواعا مختلفة من الحلوى، لمعلمتنا، من أجل كسب رضاها الذي لا يقدر بثمن. رمينا تحت أقدامها الحلوى الفرنسية التي أعطانا اياها أبي. لكن المهدى لها، ويجب أن أذكر هذا للأسف، وقد كانت تعاني كثيرا من ألم الأسنان وهو ما كان يفرحنا، وتتركنا ننصرف، لم تكن تفرح بهذه الهدايا دائما. كانت تقول إننا نريد أن نطعمها فتمرض ونزيد بالحلوى الكثيرة عذاب ألم أسنانها. ولأكن صادقة، أعتقد حقا أننا لم نرغب يومذاك أبدا أن تحصل المسكينة على مساعدة جذرية لأسنانها المجوفة.

لم تكن فترة التعليم محددة. كان علينا في كل الأحوال أن نتعلم ما

كان يجب تعلمه. يستطيع الطفل أن يحقق هذا في سنة أو سنتين أو ثلاث. كان الأمر يتوقف على موهبته وحسب.

لم يكن درس الأعمال اليدوية ضمن برنامج المدرسة، إذا جاز لي أن أقول هذا. فقد كان هذا من واجب أمهاتنا اللائي كان جميعهن تقريبا يملك مهارة، كبيرة أحيانا في الخياطة والحياكة والتطريز. وطبقا لهذا فقد حصلنا على تعليم مختلف بهذا الشأن، سيما وأن التعلم يتوقف على الميل والرغبة. لدي مثلا أخوات يستطعن أن يكسبن عيشهن من عمل أيديهن إذا اقتضى الأمر، ولن يقعن في ضائقة لأنهن ماهرات في الأعمال اليدوية، بينما كان بعضهن على العكس لا يستطيع خياطة زر.

وكانت ثمة مدارس عامة أيضا يذهب إليها الصبيان من أولاد العوائل الفقيرة. فمن كان ميسور الحال يأتي بمعلم أو معلمة خاصة. وفي بعض الأحوال يقوم سكرتير السيد بالتدريس، بالنسبة للبنات طبعا طالما كن صغيرات جدا.

هذا هو القليل الذي أستطيع أن أتحدث به عن مدارسنا. إنني أميل بالطبع إلى المقارنة بينها وبين المدارس الألمانية، بين أطفال المدارس الأوروبيين المتعلمين تعليما جيدا والأطفال العرب الذين لا يعرفون شيئا. لقد ولدت وتربيت ونشأت هناك، وأستطيع أن أحكم من خلال تجربتي. وأنا أعيش هنا منذ سنوات طويلة، أرسل أطفالي إلى المدرسة، ولدي أيضا الفرصة أن أشكل رأيا إلى حد ما. وربما كان لدي ما أتفوق به على ابن البلد الذي لا يرى بعض الأشياء لأنه معتاد

عليها، والتي تلفت نظر الشخص المحايد الذي نشأ في وسط آخر في الحال. إنني لا أريد أن اتخذ دور القاضي، وربما يهم البعض لهذا السبب أن يطلعوا على أفكاري.

يبدو لي بوجه عام أن الأوربيون يطلبون من المدرسة أكثر والعرب أقل مما ينبغي. لم يجد أي شعب بعد الطريق الوسط، ولن يجده، فهذه المتناقضات ستستمر ولن تزول ما بقي العالم.

لا يوجد إلا القليل مما لا يتعلمه الأطفال هنا، وبهذه الكمية الكبيرة يكون مستحيلا على العقل الطفولي أن يحتفظ بكل شيء. ما أن يبدأ الأطفال بالذهاب إلى المدرسة لا يبقى للأبوين شيء منهم. فما عدا الساعات التي يقضونها في المدرسة فإنهم مثقلون بواجبات مدرسية منزلية كثيرة لا تسمح بحياة مريحة معهم ولا تجعل التأثير المنتظم الحازم على تكون شخصيتهم ممكنا. يقضون اليوم بأكمله في عجلة دائمة من عمل إلى آخر. وبين هذه، مثل الكثير من الأعمال، ما ليس له قيمة باقية للأطفال! ما أكثر ما يتعلمه المرء بعناء ليسقط بعد ذلك بأسرع وقت في النسيان. إنه لظلم أن يسرق وقت الأطفال بمثل هذه الأشياء التي يحسن أن يقضوها وسط العائلة.

تحشر المخلوقات المسكينة كل يوم خمس ساعات أو أكثر في غرف تشبه الأقفاص، تسمى غرف الدرس، حيث تسود حرارة وهواء فاسدلا يمكن وصفه. في مدرسة يتعلم فيها أكثر من مائتي طفل لا توجد سوى أربعة أقداح لشرب الماء! من الذي لا يشعر بالغثيان حين يريد أن يقبل طفله القادم من المدرسة؟ و لم يتعجب المرء هنا حين

يمرض طفل المدرسة؟ يعتني المرء بالصغار في البيت قدر ما يستطيع، إلا أن هواء المدرسة يجعل هذا الجهد هباء. كيف يبدو بعض أطفال المدارس هنا، إن القلب لينفطر حين يرى المرء المخلوقات الهزيلة. ألم يكن هواء شرفتنا المكشوفة هناك أفضل؟ وأي فائدة لأفضل تعليم إذا ما تهدم الجسد عند الحصول عليه؟

لا يلاحظ المرء هنا كثيرا من الاحترام الذي تربينا عليه نحن جميعا، أنا وإخوتي، في شبابنا إزاء الوالدين والمعلمين والمربين وبشكل عام إزاء من هم أكبر سنا. ودروس الدين لا تؤثر بما يكفي أيضا حسب رأيي. هنا يتعلم المرء أشياء كثيرة ضمن قوالب. يغمر المرء الأطفال بمعلومات لا حصر لها عن تاريخ الكنيسة بدلا من أن يدفئ قلوبهم ويشدهم لزيارة الكنيسة بانتظام، حيث يستفيد المرء من موعظة مفهومة أو يمكن أن يحصل على حافز أكثر مما يحصل عليه من حفظ تاريخ الكنيسة عن ظهر قلب. لقد حفظنا نحن أيضا عن ظهر قلب وحسب ولكن لم يهمل القلب في ذلك، وهو ما ينساه المرء هنا بسهولة بسبب كمية المعلومات الكبيرة التي يفترض أن تستوعبها مدارك الطفل.

يبالغ المرء هنا كثيرا حسب رأيي في التعلم. يريد الكل أن يرتقي من خلال التعلم أعلى فأعلى حتى لا يبقى في الآخر حرفيون أبدا، حيث تعطى القيمة الأساسية للعلم، للمعرفة. أيستغرب المرء إذا ما حل محل الورع والبر والاستقامة والقناعة عدم الإيمان المخيف واحتقار كل ما هو مقدس وعدم مراعاة دائم في كل مكان؟ مع الثقافة الخارجية

المكتسبة للغالبية تزداد أيضا حاجاتهم ومطالبهم العادلة وغير العادلة من الحياة. من هنا يتصاعد ويشتد الكفاح من أجل البقاء بكل عواقبه. نعم يجرى تثقيف العقل بصورة استثنائية، دون الالتفات إلى القلب ومراعاته، إنه يزاح جانبا.

يجب على المرء أن يُعلِّم أكثر مما يفعل الآن من كلمة الله ووصاياه المقدسة ويستثمر وقتا أقل في التفكير في الطاقة والمادة. ستبقى معرفة الطبيعة والكون بأكمله حتى أعمق أعماقه، رغبة محضة لعقل الإنسان المحدود. قرأت مرة في كتاب تأملا جذابا حقا. شبه الإنسان هنا نظرا لقصر إقامته على الأرض بالذبابة التي تعيش يوما واحدا فقط، والتي أبصرت النور في مونستر. فكما أن هذه لا تستطيع أن تتأمل في يوم واحد المباني الرائعة بأكملها إلا قليلا كذلك لا تكفي الحياة القصيرة للإنسان للتعرف على جميع عجائب الدنيا، ناهيك عن فهمها. فليتابع العلماء البحث والدراسة ولكن لا ينبغي أن يحشو المرء رؤوس الأطفال بكل هذا العلم وهم غير قادرين على فهمه. يحسن أن يحتفظ المرء هنا أيضا بالمعيار الصحيح، وإنني أعود لأؤكد ثانية، لا ينبغي للمرء أن يهتم بالرأس وينسى القلب.

بفزع حقيقي قرأت مرة إحصائية عن المصابين بأمراض عقلية والتي تفيد أن الغالبية العظمى لهذه المخلوقات البائسة تنحدر من منتسبي المدارس الثانوية والمعاهد العليا. من المؤكد أن الكثيرين منهم كانوا ضحية القسر على التعلم. تذكرت وطني دون قصد حيث لا يحتاج المرء إلى مستشفيات مجانين وحيث لم أر سوى مجنونين و لم

أسمع بغيرهما. كانت واحدة منهما زنجية أما الثانية فتنحدر من الهند.

كما سبق أن قلت: لا أريد أن أحكم على التعليم الأوروبي بشكل عام، وأنا لا أستطيع ذلك أيضا، أردت فقط أن أعبر عن بعض ملاحظاتي التي حملتني على القناعة بأن المدرسة والتعليم هنا لهما جوانب سيئة كثيرة أيضا. وعلى أي حال لا بد أن يبدو واضحا أن السؤال عما إذا كان الأوروبيون على حق حين يشعرون بالأسف من أجل شعب "غير متنور" بعد، وعما كان يجوز لهم أن يقوموا بتنوير مثل هذا الشعب بالقوة الخارجية، بقي بالنسبة لي دون جواب. قد يسخر البعض هنا ويهز كتفيه، إلا أنني أستطيع بثقة كبيرة أن أوكد أن أولئك الذين يعتقدون أن في مصلحة هذه الشعوب أن يوفر لها التعليم والتنوير لهم على خطأ كبير. إنني كعربية ولدت ونشأت في بيئة غير متعلمة تماما حسب المصطلح الأوروبي أفضل من يعرف القدر القليل من الصدى الذي ستجده الثقافة الأوروبية بوجه عام لدى الشرقيين المسلمين.

يختلف الأمر لدى الشعوب التي تدين بديانات أخرى والتي تصبو نحو الثقافة الأوروبية كما هو الحال لدى اليابانيين، عسى أن يشقوا طريقهم في هذا المجال قدر ما يستطيعون. أما المسلمون فإنهم يواجهون في الثقافة الأوروبية عناصر كثيرة جدا لا تتفق مع نظرتهم الدينية المتشددة مطلقا. كم سخر المرء هنا من نصف الثقافة التركية! لقد بذل الأتراك أكثر مما ينفعهم ليتحضروا ولو إلى حد ما. أضعفوا

بذلك أنفسهم و لم يصبحوا مع ذلك متحضرين، لأن الحضارة الأوروبية تتناقض وتتعارض مع جميع معتقداتهم الأساسية. لا يمكن فرض التحضر بالقوة، وعلى المرء أن يعترف للشعوب الأخرى بحق تطوير وجهات نظرها القومية ومؤسساتها كما تشكلت عبر مئات السنين، ليس دون تأثير التجارب الناضجة والحكمة العملية. وقبل كل شيء سيجرح المرء العرب بعمق إذا ما أراد فرض تنويره، بدءا بنظريات العلوم الطبيعية التي لا يمكن التحدث هنا عن ثقافة عميقة دونها، ستهز كيانه كاملا وتسبب له أسوأ ازدواجية، إذا ما أراد المرء أن يحدثه عن قوانين الطبيعة، هو الذي لا يرى في حياة الكون بأكملها وحتى أصغر الأشياء سوى شيء واحد بعقيدة لا تتزعزع في أن يد الله هي التي تقود وتوجه!

التجهيزات السنوية، الملابس والأزياء في بيتنا

إذا كان رب العائلة قد اعتاد هنا في أوروبا من خلال ما يحصل عليه من نقود شهريا أو مرة كل ربع سنة أن يوفر على زوجته وبناته غير المتزوجات هم الملابس فإن الأمر يجري لدينا بشكل مختلف تماما. لا توجد في زنجبار صناعة من أي نوع، ليس ثمة حتى مصنع واحد. والملابس والأقمشة تستورد من خارج البلاد فقط لجميع السكان.

كان أبي يمارس من أجل الحاجة الهائلة لبيوته تجارة مبادلة رائعة. كانت تبحر كل سنة بضع سفن شراعية كبيرة حسب الحاجة تحمل منتجاتنا (خاصة القرنقل) متجهة إلى انكلترة ومرسيليا وبلاد فارس وشرق الهند والصين لتشتري بعائد حمولتها ما نحتاجه، عن طريق عملائنا الموجودين في هذه البلاد. كان ربان السفينة يحصل لهذا الغرض على قائمة طويلة بالأشياء التي يرغب بها المرء، يتعلق القسم الأكبر منها بملابسنا.

وكان تحديد يوم توزيع الملابس السنوية علينا يتوقف على عودة هذه السفن. فمن الطبيعي أن ينتظر المرء عودة السفن في بيتنا بنفاد

صبر متزايد. كان وصولها يشير لدينا إلى بداية ما يشبه الموسم بالنسبة لنا وعلى محتواها تتوقف أناقتنا بأكملها سنة كاملة.

وكانت هذه السفن تحمل بالنسبة لنا نحن الأطفال أيضا سحرا خاصا، كانت تأتينا بكل ألعابنا الجميلة من أوروبا. حين أهداني أبي في مناسبة كهذه للمرة الأولى دمية ذات ملابس أنيقة تستطيع أن تصرخ ولها أسنان أمامية جننت من الفرح.

إذا ما وصلت السفن سالمة يتقرر بعدها في وقت قصير يوم توزيع حمولتها على جميع سكان البيت، الصغير منهم والكبير، السيد والخادم. ولكن الإخوة الصغار يكونون قد حاصروا القبطان قبل ذلك فوق سفينته ليستطلعوا عما أتى به من لعب قبل كل شيء. كان عشرون إلى ثلاثين صندوقا مملوءاً بمثل هذه الأشياء، خيول، عربات صغيرة، دمى، سياط، سمك وبط يتبع المغناطيس، علب موسيقية بكل الحجوم، هارمونيكات، نايات وأبواق، بنادق صغيرة وغيرها. وإذا لم تعجبنا الأشياء فالويل للقبطان، فقد كان هو المسؤول عن كل شيء، لقد أعطي تفويضا عاما وطلب منه: إشتر دائما أجمل ما تجد، ولا تضن بالسعر.

كان يبدأ أخيرا سواء في بيت المتوني أو بيت الساحل التوزيع الذي يستمر ثلاثة أو أربعة أيام قبل أن يكون كل واحد من مئات الناس قد حصل علي حصته فعلا. كان الخصيان يتولون فتح الرزم وتصنيف البضائع، أما التوزيع فيقوم به إخوتي الكبار. و لم يكن الحسد والاستياء والغيرة للأسف في أي وقت في بيتنا أكبر منها في أيام الفرح

هذه بالذات.

كانت الأقمشة توزع سواء كانت ثمينة أم بسيطة كقطع كاملة ويترك لكل واحد أن يبادل ما يراه فائضا عن حاجته مع الاخرين. وكان هذا يحدث على نطاق واسع، وكثيرا ما يستمر أسبوعين. ولأنه لم تكن ثمة مناضد فقد كان المرء يقص الأقمشة وهو جالس على الأرض. و لم يكن نادرا أن تقص سيدة مع القماش في فورة حماسها سهوا ثوبها أيضا.

وكان يوزع أيضا المسك والعنبر وعدد لا يحصى من الزيوت الأثيرية الشرقية، وزيت الورد وماء الورد والزعفران (الذي يخلط مع مركبات أخرى ويستخدم للشعر)، حرير بألوان مختلفة، خيوط الذهب والفضة للتطريز، أزرار محاكة من خيوط الذهب والفضة، باختصار كل ما ينتمي إلى ملابس سيدة عربية، ويحصل كل حسب مرتبته وسنه على مبلغ من النقود مدفوعا بمسكوكات ماريا تيريزا للإنفاق على أشياء صغيرة أخرى.

ويصادف المرء بين النساء أيضا شرقيات مدمنات على الزينة ينفقن خلال السنة أكثر من حصتهن، ويكون عليهن أن يطلبن من أبي أو من أزواجهن مبلغا إضافيا. وتقدم مثل هذه الطلبات بصمت كبير، لأن التبذير المفرط غير محبوب لدى رؤساء العوائل العرب وعدا هذا تحصل الملتمسة إلى جانب ما ترغب فيه درسا لا تحبه.

وكما هي الحال في كل مكان كان في بيتنا إلى جانب المبذرات عدد ليس أقل من المدبرات. تذهب هاته النساء إلى أن المرء لا ينبغي أن

يحتفظ بالعبيد من أجل الوجاهة فقط كما يحدث لدى الوجهاء والأغنياء وإنما ينبغي الانتفاع منهم. وهكذا جعلن عبيدهن يتدربون على الأعمال اليدوية المختلفة، الفتيات الشابات على الخياطة والتطريز والحياكة مثلا والصبيان الكبار كسراجين أو نجارين وما شابه ذلك. من يتصرف على هذا النحو فإن نقوده لن تنفد بسرعة، بينما تدفع الأخريات نقودهن إلى الغرباء وكثيرا ما لا يكن قادرات على الموازنة بين مدخولهن ونفقاتهن. وكان العبيد الذين تدربوا على أعمال خاصة يعاملون باحترام أكبر مما يعامل به الآخرون ويكونون قادرين لدى منحهم الحرية، وهو أمر محتمل، أن يتدبروا عيشهم. في عمان، حيث لا يملك المرء سوى قلة من العبيد جرت العادة أن يتعلم هؤلاء حرفة يدوية، ليستطيعوا أن يستفيدوا هم وأسيادهم، لذلك كثيرا ما أرسل العبيد من زنجبار إلى عمان ليحصلوا هناك على التربية والتدريب. وكان سعر زنجي كهذا أو زنجية كهذه يرتفع بالطبع طبقا لذلك.

وإذا كان ثمة زائر لدينا في يوم التوزيع وعرف أبي بذلك فإن ذلك الضيف يحصل أيضا وفقا لمرتبته على حصته من كل شيء يكون موضوعا للتوزيع، حتى لو كان نقودا. أما ما يتبقى من حمولة السفينة فإنه يحفظ ويوزع خلال السنة على أبناء عشيرتنا القادمين من عمان.

وحيث يسود تحت خط الاستواء للكرة الأرضية صيف أبدي ولا توجد فصول السنة الأربعة إلا بالإسم، فإن تجهيزاتنا تختار بما يناسب هذا، وهي طبقا لذلك بسيطة إلى حد كبير. كانت ستنشأ بعض

الصعوبات لو كان على المرء أن يوفر ملابس للخريف والشتاء والربيع. موسم المطر الذي يستمر ستة إلى ثمانية أسابيع تنخفض درجة الحرارة خلالها إلى حوالي ٢٢ مئوية، هو الشتاء الوحيد الذي يعرفه المرء هناك. كنا نلبس المخمل وأقمشة سميكة أخرى في هذا الموسم الرطب أكثر مما هو بارد. وقد اعتاد المرء في هذه الفترة ألا ينتظر حتى موعد الإفطار في التاسعة وإنما يأكل كعكا ويشرب شايا في وقت مبكر.

كان كل ما يتعلق بالملابس ينجز بالعمل اليدوي، لم يكن لدى المرء أية فكرة عن مكائن الخياطة يومذاك. وكانت الموديلات بسيطة وهي متشابهة للرجال والنساء. ولم يكن الشرقيون قد عرفوا بعد الأربطة البغيضة والمضرة بالصحة (لسلامة أعضائهم النبيلة) وهكذا فإن الملابس تختلف ليس في الموديل وإنما في القماش والزينة. قد يجد المرء هنا الشيء الواحد على الدوام مملا، أما إذا كان هذا يصح بالنسبة للزي الشرقي، فلندع الأمر عند هذا الحد. لكن ما هو ثابت أن "الموضة" وتبدلها المستمر لا تدفع بأي حال إلى الاقتصاد، بل العكس! كم كان البؤس العائلي أقل، وكم كانت المشاكل البيتية أقل حدوثا لو طرأ على مطاليب المودة اعتدال كبير، هذا ما يستطيع أن يعرفه الكل. وللأسف فإن الإدمان على لبس آخر ما تأتي به الموضة قد أصبح عاما حتى وجبت مجاراتها سواء استطاع المرء أم لم يستطع، أراد أم لم يرد.

لا أنوي بوجه عام أن أعيد الموضة غير المعقولة إلى التراجع، أو أن أكسب الأوروبيين المتنورين إلى ضيق الأفق، أريد أن أثبت فقط أن

تبذير الأوروبية في هذه النقطة يفوق تبذير العربية بكثير. ما أكثر ما يحتاجه المرء هنا ليستطيع أن يتماشى إلى حد ما مع الموضة: معطف للربيع ولما يسمى بالصيف، معطف مطري للشتاء، عدد كبير من الفساتين، دزينتان من القبعات إن أمكن (يوجد عدد كاف من النساء اللائي يملكن لكل فستان قبعة تناسبه)، عدد من المظلات، تناسب القبعة والفستان ثانية وغير ذلك. كم تبدو ملابس العربية بالمقارنة متواضعة!

تتكون ملابس المرأة العربية أيا كانت مكانتها من قميص واحد يصل حتى الكاحل وسروال ومنديل للرأس. الأقمشة مختلفة تماما. يفضل الأغنياء الديباج المذهب بنقوش متنوعة والمخمل والحرير بزينة كثيرة، وفي موسم الحر الجيت الخفيف البسيط فقط والموسلين. لا يلبس المرء قميصا وسروالا له نفس النقوش. يلاحظ أيضا ألا يكون القميص طويلا جدا كي لا يغطي الدانتيل الذي يزين السروال والحجلين الذهبيين المعلقة بها قطع ذهبية تشبه الأجراس ينبعث منها رنين جميل مع كل خطوة. يتدلى من ربطة الرأس التي تلف حول الجبين شريطان بأهداب على الظهر أو على جانبي الرأس. ويصل منديل الرأس الأصلي حتى الكاحل.

حين تريد سيدة عربية الخروج فإنها تلف شيلتها التي تقوم مقام الشال والمعطف والسترة ومعطف المطر أو الغبار معا. والشيلة هي منديل أسود كبير، حاشيته مطرزة بالذهب أو الحرير حسب ثراء وذوق لابسته. وهذا الغطاء الوحيد للشرقية يلبس دائما كاملا دون

أن تصبح موضته قديمة. وحتى الأكثر وجاهة وغنى لا يملكن في العادة أكثر من شيلة.

ألا يجدر بنا أن نعذر الشرقية التي أصبحت ميالة إلى الراحة وعاطلة بسبب الحرارة الكبيرة المستمرة في بلادها كما هو معروف، و لم تحصل على العلم، إذا ما تعلق قلبها وفكرها بالمظهر الخارجي أكثر من الأوروبية المتنورة، التي ستجد ما تفعله أفضل من اهتمامها ليلا ونهارا بملابسها؟ رغم أنني شخصيا شرقية إلا أنه لا يحدث لي أسوأ من أن يكون علي تبادل الحديث مع سيدة موضة حقيقية لا تعرف أن تتحدث عن شيء آخر غير آخر الأزياء وما يتعلق بها. كثيرا ما أسأل نفسي كيف يمكن أن ينشغل مخلوق على هذه الدرجة من الثقافة بمثل هذه الأشياء الجوفاء!

في أوقات المطر تلبس السيدات العربيات الوجيهات في البيت "الجوشا" (المئزرة) أيضا، وهي نوع من المعاطف، يصل إلى الكاحل ويصنع من قطعة قماش مطرزة بكثير من الذهب أو الفضة. تلبس الجوشا مثلما يلبس المعطف هنا، هذا يعني أنها لا تلبس وحدها، وإنما فوق الملابس المعتادة الأخرى. وهي مفتوحة من الأمام من فوق إلى تحت وتربط عند الصدر بشريط مذهب. وتفضل النساء المسنات عليها شالا فارسيا سميكا وثمينا.

هذه هي قطعة الملابس الوحيدة التي تذكر بالشتاء. وإلا فإننا لا نحتاج أن نحتمي بشكل خاص من البرد.

ولكل الأحوال كنا نملك، لا بد أن أذكر هذا حالا، نوعا من التدفئة وهي مريحة حقا. منقلة من النحاس الأصفر، طولها حوالي عشرين سنتمترا وعرضها ثلاثين، ذات ثلاث قوا ثم طولها خمسة عشر سنتمترا، تملأ بفحم الخشب المتحول جمرا وتوضع في وسط الغرفة. تشيع نار الفحم هذه دفئا رفيقا جدا ومريحا، حتى أن الكل يشعر بالانجذاب إلى حيث يوجد المنقل. يصادف في نفس الفترة أيضا حصاد الذرة التي نحبها كثيرا والتي تعد بطرق مختلفة. يفضل المرء بشكل خاص تقشيرالعرانيس الطازجة التي تكون أكبر كثيرا مما هي هنا، ويشويها على جمر المنقلة، فتصبح صالحة للأكل بعد خمس دقائق. ما أن تبدأ حبات العرنوس بالنضج حتى تفرقع بصورة متواصلة. كان الاستماع إليها يبعث فينا نحن الأطفال البهجة. ورغم هذه التدفئة الصغيرة تبقى الشبابيك والأبواب مفتوحة على الدوام تقريبا.

في واحدة من المزارع

لقد ذكرت أننا، أعني أبي، كان يملك خمسا وأربعين مزرعة موزعة في كل أنحاء الجزيرة. يعمل في كل منها من خمسين إلى مائة عبد ويصل عددهم في الكبيرة منها حتى الخمسمائة، يشرف عليهم ناظر عربي. كان في اثنتين منها فقط قصران حقيقيان، وكانت في ستة إلى ثمانية منها بيوت ريفية كبيرة، أما البقية فلم يكن فيها سوى مبان للموظفين والغلال. وهكذا لم نكن نستطيع أن نقيم طويلا إلا في الأوليين.

لم نستطع في حياة أبي أن نغادر المدينة إلا نادرا ولفترات قصيرة دائما، فقد كان كثير المشاغل وكان يفضل لذلك البقاء في البيت. وعلى العكس كانت بالنسبة لنا نحن الآخرين الصغار والكبار زيارة واحدة من المزارع بهجة كبيرة دائما. لذلك لم يكف إخوتي الكبار عن الإلحاح على أبي الطيب حتى يمنح رخصته في أن نمضي ركوبا إلى هناك بدونه.

كانت الاستعدادات لمثل هذه الرحلات القصيرة تتطلب عملا كثيرا. فتوفير الطعام لعدد كبير من الأشخاص بسخاء، في مزرعة تبعد

غالبا ميلين، حيث يحمل العبيد الزنوج كل شيء إلى هناك فوق رؤوسهم لم يكن شيئا صغيرا. كان بضع مئات من العبيد يحضرون قبل ذلك بثلاثة أيام لأخذ ما هو ضروري. ومما كان يغيظ الطباخين ورئيس الخصيان الذين يتعين عليهم توفير الطعام للمجموعة بأكملها أن الكثير كان يضيع في الطريق أو يفسد، حتى أصبح المرء مضطرا إلى أن يأخذ على الدوام ضعف الكمية التي يحتاجها من كل الأشياء. وكان المستفيد من هذا هو ناظرو المزارع التي نزورها الذين كان لهم أن يأخذوا كل ما يتبقى.

كثيرا ما يمتنع على الغالبية النوم في الليلة التي تسبق الرحلة من الفرح. يجري في المساء تفقد الحمير البيضاء التي صبغت ذيولها بالحناء. من لم تكن تملك حمارا من السيدات (أعني السراري) كانت تستعير واحدا من معارفها وأصدقائها أو تترك تدبير أمره لإخوتي أو الخصيان. ولكن لم يكن نادرا أن تبقى إحداهن في البيت لأنها لم تحصل على وسيلة النقل هذه في وقت مناسب. فلم يكن أبي يهتم بذلك أبدا. وكان الكل يعتمد على نفسه في هذه المسألة.

وإذا كانت المزرعة التي نريد زيارتها تقع على ساحل البحر فإن الأمر يكون أكثر راحة. إذ لم يكن أحد بحاجة إلى البقاء في البيت بسبب عدم توفر وسيلة النقل، فقد كانت سفننا تضع تحت تصرفنا عددا كافيا من قوارب التجذيف. و لم تكن الفائدة لمؤنتنا أقل من ذلك فقد كانت تصل إلى الهدف وهي محملة في القارب على وجه أفضل مما هي الحال عندما يحملها العبيد، ويرمون بها دون اكتراث في

محطات الاستراحة الكثيرة. وكانت هذه الرحلات تبدو وكأنها خصصت لتشجيع حب أنواع الزينة التي تملكها الشرقيات. هنا يعرض كل شيء، يستعمل كل شيء، كي لا تبقى الواحدة متخلفة عن الأخريات. وإذا ما خان الحظ إحدى الجميلات ولم تكن الملابس التي قررت لبسها في هذه الرحلة جاهزة، فإنها كانت تفضل أن تتخلف وتبقى وحيدة.

كان الوقت المحدد للإنطلاق عادة هو الساعة الخامسة والنصف، بعد الصلاة مباشرة. وكان المرء يستطيع أن يلاحظ قبل ذلك الفوضى في الفناء، وكان الخليط الصاخب من الأصوات والضوضاء من كل نوع يمكن أن يدفع شخصا ضعيف الأعصاب إلى اليأس. ولحسن الحظ فإن الناس هناك يملكون أعصابا نادرة في قوتها، حيث تحمي طريقة الحياة المنتظمة وخلو البال وهواء البحر الرائع شاطئنا من هذه الأوجاع.

يعاق المرور على السلمين على الدوام، ينادي المرء نحو الأسفل، ينادي نحو الأعلى، يختصم ويتزاحم بكل قوته. يتبادل العبيد الشتائم البذيئة ثم الصفعات التي يمكن سماعها. ويصيب الحيوانات التي سرجت منذ ساعة الاضطراب فتبدأ بإطلاق نهيقها الجميل في الضوضاء العامة. فضلا عن هذا فإنها تبذل جهدا جادا في الاستسلام لميلها المحبب في التقلب على الأرض دون مراعاة لزينتها الكثيرة والسروج الساحرة، وكان لدى العبيد المشرفين عليها الكثير ليعملوه من أجل منعها من ذلك. أما الأقل صبرا فيكونون قد ركبوا خلال

ذلك.

بعد أن يكون كل قد شاهد مطيته في الفناء، تقاد الحيوانات فوق العتبة العالية إلى الشارع فيركبها صاحبها. يركب أيضا الخصيان الرقيقون الضعفاء، بينما يكون على الزنوج العبيد الأقوياء السير على الأقدام إلى جانبهم. وهكذا تبدأ الرحلة الممتعة قدر ما يمكن للمرء أن يتصور. تمارس المقالب السخيفة ولكن غير المؤذية وسط النكات المتدفقة، حتى يصعب على المرء البقاء على السرج من الضحك.

تشكل الحمير البيضاء المزينة بالرقائق الذهبية والفضية التي تحدث رنينا جميلا لدى كل حركة مع السروج المرتفعة على الوشاح الفاخر منظرا خلابا. ولا يقل تمايز المشاة بأسلحتهم اللامعة وثيابهم البيضاء النظيفة. وإذا ما ارتفعت الشمس فإن لكل سيدة وجيهة ساعيا أسود يرافقها، يسرع إلى جانب حمارها حاملا مظلة كبيرة محاولا حمايتها من شواظ الشمس الشديدة. بينما يركض عبيد آخرون بالأطفال، يجلسونهم على أكتافهم، أما الأطفال الأكبر قليلا والذين لم يصبحوا قادرين على الركوب وحدهم بعد، فإن كل واحد منهم يركب مع واحد من الخصيان على حصانه.

كان علينا أن نجتاز المدينة مع شروق الشمس، فتبقى المجموعة مع بعضها كاملة حتى ذلك الوقت، ولكن ما أن يجد المرء نفسه في الخلاء حتى ينتهي هذا القسر ويمضي كما يحب إلى الأمام. عبثا يسعى الخصيان المحافظة على وحدة الموكب. من كان يشعر أنه يركب حيوانا جامحا فإنه لم يكن يحب أن يتأخر من أجل المجموعة وكان يترك

الخصيان ينادون ويصرخون بأصواتهم الرقيقة كما يريدون. لقد إنطلقنا جماعيا كرهط كبير، كما لو كنا تحت أمر عسكري، إلا أننا كنا نصل متفرقين، في جماعات صغيرة وكبيرة إلى الهدف.

يستقبلنا هناك أول وأكبر العبيد سنا، وإذا كان الناظر العربي متزوجا استقبلتنا عائلته. أما هو فلا يجوز له كرجل مهذب أن يظهر طول فترة إقامتنا.

كنا ننطلق من البيت في مثل هذه الرحلات دائما على الريق فنستطيع بعد وصولنا أن نستمتع في الحال بتناول الفواكه الكثيرة المعدة لنا بشهية كبيرة. تأتي بعد ذلك مباشرة الوجبة الرئيسة الفاخرة التي نتناولها في مجموعات مختلفة كل حسب مقامه كما في البيت تماما. يتفرق الجميع بعد الطعام ويتسلون كما يحبون، فهنا حيث لا يوجد مشاهدون يشعر المرء بالحرج منهم، وحيث ترتع الحيوانات وحدها تحت الأشجار، لا يكون المرء مقيدا ويستطيع كل واحد أن يفعل ما يسره. كان القوم يجتمعون كلهم ثانية في أوقات الطعام وأوقات الصلاة وحسب. الاغتسال قبل كل صلاة واجب، ولأن المرء لم يكن يجد في كل مكان في الجزيرة ماء، كان عليه أن يأتي من أجل هذا إلى البيت.

تكون قد وصلت خلال النهار دعوات من الضياع المجاورة بينما أبلغتنا الجارات الأخريات بنيتهن في زيارتنا. كانت الدعوات والزيارات توجه للعائلة بأكملها، ولكن الضيفات الغربيات يستقبلن من أخواتي الكبيرات وحدهن، أما الدعوات فكان يلبيها من يرغب

في ذلك.

وكما يعرف المرء في الجنوب الجميل أن يعيش بسهولة ورغبة في الحياة فإن رحلاتنا القصيرة هذه تثبت ذلك. كان من المستحيل توفير الأسرة الكافية، لذلك كان الكل ينامون عاليهم وسافلهم على الأغطية الكثيرة لسرجه، وكبديل للوسائد (وهي لدينا مستديرة دائما مثل الفرنسية) حيث يضع المرء ذراعه تحت رأسه.

ما كان يستهلك في مثل هذه المناسبات يستعصي على كل وصف. لقد تحدثت عن الكميات الكبيرة من المؤنة التي أتى بها مئات العبيد منذ عدة أيام. ليس هذا وحده، فقد كانت جاراتنا المحبوبات يبعثن إلينا بإصرار بما هو مطبوخ وغير مطبوخ بكميات كبيرة كل يوم دليلا على إكرامهن لنا. وفي العادة كانت تظهر أمراض مختلفة بعد ذلك مثل أمراض أعياد الميلاد هنا.

وكان العجوز الطيب ليدا وهو المستأجر العام لكماركنا، يثبت رغم أنه بنياني، وفاء نادرا وتعلقا شخصيا بعائلتنا بأجمعها. وقد قدم العجوز عابد النجوم لنا نحن الصغار خاصة مسرة وتسلية، ما استطاع ذلك. كان يهدينا في أعياده وأعيادنا أشياء رائعة ومريحة دائما يأتي بها من وطنه الهندي، كان يرسل لنا خاصة أنواعا من الحلوى وعدة سلال ملأى بالألعاب النارية (فيتكا). كان ما أن يعرف بنيتنا في المجيء إلى الريف حتى يسعدنا بمثل هذه العطايا. وكانت لنا سعادة إشعال الألعاب النارية الهندية المختلفة المرسلة إلينا كل مساء.

وفيما عدا هذا فقد كانت الأماسي تنقضي بمشاهدة ألعاب ورقصات الزنوج التي تقام في الحدائق وفي العراء. رقص الزنوج ليس بغيضا أو قبيحا على الإطلاق كما يصفه بعض الرحالة إلى أفريقيا في كتبهم، وعلى العكس ففي البدء لم يعجبني أيضا الرقص الأوروبي أبدا وقد سبب لي الدوران الأبدي لأزواج الراقصين الدوار حتى وأنا جالسة بهدوء على كرسيي.

و لم يندر أن يؤخذ الراقصون والراقصات الهنود إلى المزرعة ليعرضوا في المساء فنهم. وهؤلاء بارعون براعة فائقة في مجالهم وإن لم يجزوا جزاء كبيرا كما هو الحال في أوروبا. ورغم إنفاقهم عندنا فإنهم يصبحون بعد وقت قصير أغنياء فيستطيعون العودة سعداء إلى وطنهم. وهم لا يتمتعون باحترام كبير لدينا.

مثل هذه الأماسي في الشرق رومانسية جدا. يتصور المرء عددا كبيرا من الناس لهم وجوه مختلفة الألوان، يرتدون الملابس الأنيقة ولكن الملونة والساحرة جدا، يقفون في دائرة كبيرة، أو يجلسون أو يقرفصون، يعبرون عن أنفسهم بتلقائية الجنوبيين في ضحك يصدر عن القلب ومزاح بريء، وكل هذا في الخضرة المريحة تحت الأشجار الرائعة، فيما يلقي قمر المناطق الاستوائية عليهم ضوءا حادا. لا بد للمرء أن يشهد هذا بنفسه وإلا فإنه لن يستطيع أن يتصور ذلك. يتفرق الجمع في وقت متأخر وتركب النساء الغربيات حميرهن ليمضين إلى بيوتهن.

كانت تصحبنا في مثل هذه الرحلات القصيرة فتاة فرنسية

مضحكة تدعى كلير مع أخويها الصاخبين البالغين من العمر أربعة عشر وخمسة عشر سنة، وهم أولاد طبيب فرنسي يعمل في القنصلية، كان هؤلاء يجيدون اللغة السواحلية، وكانوا يثيرون جوا مرحا بأغانيهم. لقد تسببت كلير بضحك عام ذات مساء حين نامت للمرة الأولى لدينا وظهرت أمامنا حسب العادة الأوروبية برداء نوم أبيض. لا يعرف المرء في الشرق شيئا كهذا، حيث يذهب للنوم بنفس الملابس التي يرتديها في النهار، بالطبع دون الأردية الثقيلة من المخمل والديباج.

وإذا ما امتدت إقامتنا فترة أطول، زارنا أبي بين حين وآخر، إلا أنه كان يعود إلى المدينة في مساء اليوم نفسه. ويظل الفرسان في حركة دائمة لا تنقطع للإبقاء على الاتصال بيننا وبين المدينة مشكلين نوعا من البريد.

وقد كنا نتجنب القيام بمثل هذه الرحلات في موسم الحصاد لأنها تعرقل العبيد في عملهم عرقلة كبيرة. حيث يحل موسم حصاد القرنفل فجأة وبسرعة حتى أن المرء يجد صعوبة في أن يجني كل هذه الكميات في وقت قصير محدد وهي لا تزال في حالة جيدة. حصاد الرز يجب أن يتم بسرعة أيضا، بينما لا يشكل التأخير في جني قصب السكر وجوز الهند والبطاطا السكرية والمحاصيل الحقلية الأخرى خطرا.

لا تستخدم الحيوانات أبدا في الزراعة، ولا تكاد توجد أدوات زراعية، فحتى أبسط المحاريث غير معروف. كل شيء يحتاج إلى عمل

يدوي. لدى المرء مساح لحرث الأرض، أما سنابل الرز فتقطع بجهد على صورة حزم بسكاكين صغيرة عادية مستقيمة. وليس نادرا أن يشارك السيد أو السيدة في حصاد القرنفل مع عبيدهم ليزيدوا من حماستهم. الزنجي كما هو معروف لا يحب العمل وعلى المرء أن يراقبه بصرامة وعلى الدوام إذا ما أريد أن ينجز عملا. إلا أن رقابة مستمرة لدى حصاد القرنفل بالذات غير ممكنة تماما. وهكذا يلجأ المرء إلى طلب كمية من القرنفل من كل عبد حسب عمره وقدرته. ومن ينجز أكبر منها فإنه يحصل على أجر خاص، أما الكسالى الذين يهملون عملهم فتنتظرهم عقوبة مناسبة.

وهكذا فإن الحصاد وحده يحتاج إلى جهد، وحين لا يكون على المرء سوى أن يحصد، فليس عليه أن يحمل هما. الأرض خصبة خصبا غير عادي حتى أن المرء لا يحتاج إلى سماد مطلقا، ويحفظ المرء هذه الخصوبة دون قصد إذ يحرق القش في الحقل.

يحدد أبي فترة إقامتنا في المزرعة بدقة، إنه يقرر اليوم الذي يكون فيه علينا أن نكون في المدينة مساء بين السادسة والنصف والسابعة والنصف، أي مع حلول الظلام. كانت عائلة الناظر تحصل على هدايا مناسبة لدى مغادرتنا اختارها والدي. وكانت جاراتنا القرويات يرافقننا مسافة ما. وكان أبي يرسل دائما مائة إلى مائة وخمسين جنديا لمرافقتنا، كانوا يسيرون إلى جانب الموكب الطويل. ورغم ثقل أسلحتهم (كانوا جميعا يحملون بندقية ودرعا وحربة وسيفا وخنجرا على الدوام) فإنهم كانوا يمشون بنفس سرعة مطايانا.

وفي هذه المناسبة أيضا لا يجوز تفويت صلاة المغرب في الساعة السادسة. وهكذا كان الجمع بأكمله يتوقف في مكان ما، في العادة في نغامبو أو مناسيموجا (يقع الموضعان قريبا من المدينة) ويؤدي الصلاة. كان كل فرد يحتفظ معه بحصيرة صغيرة يؤدي فوقها صلاته في العراء.

فإذا حدث، وهو ما كان يحدث كثيرا، أن تضيع الحصيرة في الطريق بسبب إهمال الخدم أو تترك في البيت، كان المرء يستعيض عنها بأوراق شجرة الموز العملاقة إذ لا تجوز الصلاة إلا على قماش من أصل نباتي.

يحل الظلام أخيرا، فتشعل المصابيح العملاقة، ونركب الحمير ونمضي في بريق يكاد يكون اسطوريا إلى المدينة.

رحلة أبي

كنت في حوالي التاسعة من عمري حين حان الوقت ليسافر أبي كما هو معتاد كل ثلاث إلى أربع سنوات إلى مملكته القديمة عمان ليتفقد الأحوال هناك بنفسه. كان أخي ثويني ينوب عنه حتى الآن في مسقط كحاكم وكرئيس للعائلة في نفس الوقت.

كان لدى أبي هذه المرة سبب ملح للسفر إلى عمان. كان الفرس قد قاموا بعدة هجمات قرب بندر عباس، التي لم يكن لها في حد ذاتها أهمية، ولكنها يمكن أن تكون سببا للحرب. إلا أن هذه القطعة الصغيرة في بلاد الفرس كانت على جانب من الأهمية بسبب موقعها المشرف على مدخل الخليج الفارسي، وقد عادت علينا منذ احتلالها بالشؤم وكلفت أبي مالا كثيرا. وقد انتزعت منا أيضا فيما بعد، وهو ما لم يكن بالتأكيد كارثة، إذ لم يتركنا الفرس قبل ذلك في هدوء، وهو ما لا يؤاخذون عليه.

لم تكن لدينا سفن بخارية في ذلك الوقت وإنما سفن شراعية وحسب. وهكذا كنا نعتمد على الريح وكنا رهن مزاجها تماما، وهو ما كان يؤجل الرحلات مرارا. احتاجت الاستعدادات للسفر ثمانية

إلى عشرة أسابيع على الأقل. حتى كان الخبز قد أعد، كان خَبْز ما يسمى بالكعك الذي لا يفسد يحتاج وقتا كثيرا خاصة، فقد كان على المرء أن يوفر المؤنة لحوالي ألف شخص ولمدة عشرة أسابيع. لم نكن نعرف اللحم المملح وما كنا سنتناول المحفوظات حتى لو توفرت فهي محرمة (غير طاهرة، لا تتفق مع قوانين التغذية)، لذلك كان يتوجب أخذ كمية عملاقة من الحيوانات الحية، بينها حوالي دزينة من الأبقار الحلوبة. وكانت كمية الفاكهة التي ينبغي أن تحمل على السفن لا يمكن تقديرها. كان على مزارعنا الخمس والأربعين أن ترسل الفاكهة طيلة أيام إلى السفن فقط . وهذا يفسر كثرة الإصابات بالديزانتريا بين المسافرين خلال الرحلة.

كان يسمح لكل الأبناء الذكور المشاركة في الرحلة، ولكن لقليل من البنات بسبب الأتعاب التي تسببها المرأة أثناء السفر. وكان يشارك في الرحلة عدد قليل من السراري أيضا وهن المفضلات على غيرهن.

كان الكثير منا لا يحب الذهاب إلى عمان، فقد كانت العمانيات المتفاخرات يعاملن الزنجباريات كمخلوقات غير متعلمة. وكان هذا التعالي يصيب حتى إخوتنا، فالفرد المولود في عمان من عائلتنا يشعر ويخيل إليه أنه وجيه بصورة خاصة إزاءنا نحن الأفارقة. إنهم يعتقدون بأننا نما دمنا قد شأنا بين الزنوج فلا بد أن يكون لدينا شيء منهم. وكانوا يرون أن قلة وجاهتنا تكمن في أننا ويا للفظاعة! نتكلم إلى جانب العربية لغة أخرى.

عاش في عمان كما ذكرت أكثر من مرة، الكثير من أخوتي وعدد أكبر من الأقارب، وكان أغلبهم محتاجا يعيش على مساعدة أبي. كان كل هؤلاء ينتظرون لدى وصول أبي هدايا، وهكذا كانت أمتعة السفر تزداد حجما.

وفي مناسبة كهذه يفكر كل بأحبائه في آسيا البعيدة ومن خلال هذا يدب شيء من الحياة في المراسلات الضعيفة. لكن جهل الكتابة كان يقف عائقا في ذلك غالبا، على المرء أن يتصور الحرج الذي يشعر به الناس ليشكل صورة عن هذه المحنة. كان المرء يدع أشخاصا آخرين يكتبون له الرسالة التي سيقرأها للمرسل إليه أشخاص غرباء ثانية. وكان الناس يزدحمون على إخوتي والعبيد الذين يحسنون الكتابة لهذه الغاية، وحين لا يعودون قادرين على ذلك أو راغبين فيه، يكون على المرء، راضيا أو مستاء، أن يجعل الرسالة تكتب من قبل شخص غريب تماما من خارج بيتنا. ومن الواضح أن هذه الرسائل ما كانت تؤدي الغرض منها إلا نادرا.

هاكم مثالا على ذلك. تنادي إحدى الجميلات خادمها الشخصي: "فيروز! إذهب إلى هذا وذاك القاضي وقل له أن يكتب لي رسالة جميلة إلى صديقتي في عمان، إدفع له كل ما يطلبه لقاء كتابة الرسالة." والآن تذكر لفيروز تفصيلات كثيرة على القاضي أن يضمنها الرسالة. ولكن لا غرابة أن تختلط لدى القاضي الطلبات المختلفة وهو في ضائقة من الوقت، حيث يكون عليه أن يكتب دزينة من مثل هذه الرسائل. يعود فيروز إلى سيدته منتصرا: "بيبي، ها هي

الرسائل!" لكن السيدة تذهب بحذر إلى شخص يستطيع القراءة وتطلب منه أن يقرأ ما كتب القاضي. ستصاب بالدهشة بعد قليل ويزيد غضبها مع كل كلمة أخرى. لقد كتبت الرسالة خطأ تماما، فهي قد أرادت التعزية بينما تضمنت الرسالة تهنئة والعكس. وهكذا يتوجب كتابة كل رسالة أكثر من مرة ومن قبل أكثر من شخص، حتى تصبح صالحة للإرسال إلى حد ما.

أخيرا أصبح كل شيء جاهزا. كانت السفينة "كيتوري، يعني "فيكتوريا" (سميت هكذا باسم جلالة ملكة بريطانيا) مخصصة لأبي وعائلته، وكانت السفينتان أو الثلاث الأخرى مخصصة للحاشية والخدم والأمتعة. كان عدد المسافرين بالنسبة إلى عدد السفن كبيرا جدا، غير أن الشرقي لا يحتاج إلى مكان كبير، فهو لا يحتاج إلى كابينة خاصة به، حين يحل الليل، يبحث كل فرد عن مكان له على ظهر السفينة ويستلقي للنوم على الحصيرة التي جاء بها معه. أبحرت الحاشية والخدم أولا، تبعتهم النساء حوالي الساعة الخامسة صباحا، وحوالي الظهر أبي وأبناؤه. رافق أخواي خالد وماجد والصغار، المسافرين حتى السفينة وبقوا هناك حتى رفعت المرساة. وكانت إطلاقات المدفع الواحدة والعشرون هي تحية أبي الأخيرة في توديع البلاد وعائلته.

ساد في بيتنا في الحال هدوء لم يسبق له مثيل، رغم أن الازدحام بقي كما كان. افتقدنا رئيس العائلة، ورغم كثرة الناس ساد نوع من العزلة. كان أخي خالد باعتباره أكبر الأبناء في زنجبار وكيلا لأبي.

وكان يأتي إلى بيتنا عدة مرات في الاسبوع ليتفقد أحوالنا، مثلما يذهب عدة مرات أيضا إلى بيت المتوني ليزور السكان هناك ويتلقى الرغبات المحتملة لزوجة أبي الجليلة.

كان خالد كرئيس للعائلة شديد الصرامة، وكثيرا ما كان لدينا سبب للشكوى من شدة تعليماته. هنا مثلان على ذلك: مرة شب حريق في بيت الساحل أخمد لحسن الحظ بعد وقت قصير. حين عم الذعر في البداية وهو أمر مفهوم واندفعنا إلى الأبواب وجدناها مغلقة يحرسها الجنود. كان خالد قد أرسلهم إلى هناك في الحال كي يتعذر علينا الخروج دون ترو في وضح النهار فتقع عيون الشعب علينا.

وفي مرة أخرى طرد أحد أقربائنا البعيدين، وكان ذا تأثير كبير في زنجبار، بخشونة من المسجد لأنه تجرأ وطلب يد واحدة من أخواتي. ولم يسمح لطالب الزواج المسكين طيلة شهور بحضور الاجتماع اليومي ولم يظهر في ذلك المسجد الذي اعتاد خالد أن يصلي فيه. لكن القدر أراد أن يتزوج المرفوض بعد ذلك بسنوات، بعد وفاة خالد وأبي، أختا أخرى لنا.

عين أبي أختي خولة رئيسة في بيت الساحل وبيت المتوني خلال فترة غيابه مما أزعج الكثيرين. وهو أمر مفهوم ألا تكون نجمة بيتنا المضيئة هذه سعيدة بصفتها رئيسة. كيف يمكن أن تكون كذلك حين لا يأتيها منصبها إلا بالحسد والنكران. لم تكن تستطيع رغم طيبتها أن ترضي الجميع، فهي في الآخر إنسان أيضا، مثلنا نحن الآخرين. كان يطلب منها المستحيل ولم يفكر أحد في حدود صلاحياتها. لم تكن

تستطيع شيئا حيال تفضيل أبي لها. لكن الحسد كان كبيرا وقد سلب الحساد وضوح الرؤية.

كانت سفننا ذات الصواري قد أبحرت بين عمان وزنجبار ذهابا وأيابا أكثر من مرة، وكثيرا ما وصلتنا أخبار وهدايا من أبي. وقد يعم فرح كبير، وهو أمر مفهوم، لدى وصول مثل هذه السفن. كان المرء يراقب هنا حركة مسرعة، ضجيجا وتلويحا بالأيدي، وهو ما يرى في بلدان الجنوب وحدها.

للأسف لم يدم الأمر طويلا حتى توفى الله أخي خالد. انتقل الحكم إلي ماجد كأكبر الأبناء الآن، وقد كسب القلوب من خلال طبعه المحبب في كل مكان.

وصلت ذات يوم أخيرا سفينة قادمة من مسقط جاءتنا بالخبر السار أن أبي يهم بمغادرة عمان والعودة إلى زنجبار. انتشر الخبر بسرعة وأثار شعورا بالبهجة في كل أنحاء البلاد. كان أبي قد غاب ثلاث سنوات وافتقد أحيانا. ومن لم يكن يحبه حقا فإنه فرح على الأقل بسبب الهدايا الكثيرة التي اعتاد أن يأتي بها دائما من عمان للصغار والكبار. وهكذا كان الكل في ترقب، وكان المرء يصادف في كل مكان استعدادات كتلك التي تسبق أعيادنا الكبيرة.

انقضت الفترة التي كان يمكن أن تصل السفينة فيها بصورة مريحة إلى زنجبار، ولم تظهر أي سفينة. وبدأ القلق يسود في البيت وفي البلاد. كان العرب يحبون الاستطلاع من العرافات عما يضمره المستقبل، وكانت هذه العادة أكثر شيوعا في البلاد السواحلية، في

زنجبار. كان يمكن للغجريات الهنغاريات أنفسهن أن يتعلمن حقا لدى زميلاتهن السواحيليات، فما كن يمارسنه من كذب وخداع شيء لا يمكن وصفه، ومن جهة أخرى تتجاوز سرعة التصديق كل حد.

لم تترك وسيلة لمعرفة سبب تخلف السفن، ومن المفهوم أنها لم تكن تقدم لنا سوى إيضاح متوهم، وهكذا ترددت هاته المخلوقات المفضلة أفواجا على بيتنا. جيء بها غالبا مسافة أميال من أبعد أنحاء الجزيرة، خاصة من عشيرة الفاخاديمو، وحين كان هؤلاء أشخاصا طاعنين في السن فقد أركبهم المرء على حمار وجاء بهم ظافرا.

وكانت أغرب هاته المتنبئات امرأة روي عنها أنها، أو بالأحرى طفلها الذي لم يولد بعد قادر على التنبؤ، لم يكن ثمة من عرف شيئا كهذا، وجب استدعاؤها بالطبع والاستفسار منها. كان الوقت بعد الظهر (لقد انطبع المشهد في ذاكرتي بصورة لا تمحى) حين مرت بي هذه العرافة أو بالأحرى القديسة، التي كانت ذات بدانة غير طبيعية. الطفل الذي تدعي أنها تحمله في أحشائها منذ سنوات يعرف كل شيء، كان يستطيع أن يتحدث خاصة عما يدور فوق الجبال وما يمكن رؤيته في أعماق المحيط. كان عليه أن يخبرنا الآن عن حالة أبي ويوضح لماذا تأخر وصوله. بصوت مسموع ولكنه مزقزق تحدث الغول بما يرى، بينما كان الجمع الغفير مثل من مسه سحر. قال إنه يرى من بعيد صواري ثلاثا في عرض البحر تتجه نحو زنجبار، وأنه يريد أن يكون على صارية سفينة أبي ليستطيع أن يرى كل ما يجري

هناك. وبعد برهة قصيرة أوضح ما كان يفعله كل واحد في تلك اللحظة. في الآخر أمر بتقديم تضحيات سخية لضمان دوام رضا عفاريت البحر وحماية المسافرين بذلك من مكروه محتمل وحراستهم. اتبعت تعليمات هذا الطفل الاعجوبة بدقة صارمة بالطبع، واستطاع المتسولون المحترفون الذين تؤوي جزيرتنا كتائب منهم أن يرتعوا في وفرة من اللحم والدجاج والرز التي أوعزنا بتوزيعها عليهم، فضلا عن الملابس والنقود.

بخجل عرفت فيما بعد أننا كنا جميعا ضحايا إمرأة تتحدث من بطنها، دون أن تحرك شفتيها. كنا قد اعتقدنا جميعا وقتها اعتقادا راسخا بالطفل العجيب الذي يستطيع أن يكشف عما هو غير مرئي وعن الأسرار الخفية على الإدراك البشري. أما أن تكون المرأة نصابة وأنها فعلت ذلك بوعي تام قاصدة الخداع فهو ما لست متأكدة منه. لم يكن أحد قد سمع هناك بالمتحدثين من بطونهم، ولذلك لم يخطر لأحد أيضا مثل هذا الإيضاح. ربما لم تكن للمرأة نفسها فكرة في الموضوع واعتقدت حين سمعت هذه الأصوات الملغزة أول مرة بطفل متدرب ومفضل بصورة خاصة ثم أصبحت تدريجيا نصابة ماهرة.

يحب المرء لدينا كل ما هو غامض، كلما بدت مسألة ما مليئة بالأسرار ولا يمكن كشفها زاد تصديقها. الكل يعتقد بالأرواح غير المرئية، الخيرة والشريرة. فإذا مات أحد ما أحرقت في غرفته البخور طيلة أيام، إذ يعتقد المرء أن روح الميت ستعود كثيرا بدافع الحنين

وتحب البقاء خاصة في الغرفة التي حدث فيها الموت، وهكذا لا يدخلها المرء راغبا، ولا يدخلها ليلا مهما كان الثمن.

تسود الخرافات في كل مكان. ويستعين المرء بالعرافة في حالة المرض والخطبة والحمل وكل المناسبات الممكنة. حيث يرغب المرء أن يعرف منها ما إذا كان المرض قابلا للشفاء وكم سيستمر، ما إذا كانت الخطبة ستحقق السعادة، وما إذا كان الطفل المرتقب صبيا أو بنتا وغير ذلك. وإذا ما حدث عكس ما جرى التنبؤ به، وهو ما يحدث بالطبع كثيرا جدا، فإن للعرافة دائما ذريعتها المعقولة، ستقول إنها كانت سيئة الطالع في ذلك اليوم، وإنها تأمل أن تكون أوفر حظا في المرة القادمة. ويقبل هذا العذر عادة. من يقبل على مثل هذه المهنة فإن حاله لن تكون سيئة وسيكون قريبا رجلا ناجحا أو بالأحرى إمرأة ناجحة.

خبر الوفاة

تتابعت الأيام والأسابيع و لم يصل أبي، الحركة الدائمة للعرافات وحدها قصرت الوقت، فكان لها على الأقل جانب ايجابي، رغم أن تنبؤاتهن لم تتحقق. أخيرا انتشر خبر سار بعد ظهر أحد الأيام وكان الكثيرون لا يزالون مشغولين بالصلاة، بأن صياد أسماك رأى بعيدا في عرض البحر عدة سفن تحمل أعلامنا، إلا أنه لم يستطيع الاتجاه إليها بسبب الطقس العاصف. لا يمكن أن يكون هذا إلا أبي! أسرع الجميع ليلبسوا الملابس الفاخرة التي كانوا قد أعدوها منذ أسابيع ليستقبلوا أبي الذي انتظروه طويلا. كان يجب على المرء عندنا دائما أن يتزين ويضع الحلي عندما يعود شخص حبيب إلى الوطن من السفر أو الحرب منتصرا، بينما يعبر المرء عن حزنه في يوم الفراق بالملابس البسيطة الخالية من الزينة.

بينما كان على الصياد أن يقسم المرة بعد الأخرى أنه يقول الحقيقة، أرسل فارس إلى زوجة أبينا الجليلة في بيت المتوني ليبلغها هي الأخرى بالخبر. ذبحت المواشي في الفناء، وشرع بالطبخ والخبز، عطرت الغرف ورتب كل شيء على أحسن وجه. كان يتوقع وصول السفن

خلال ساعتين أو ثلاث حسب قول الصياد.

أسرع ماجد مع حاشيته ليبحر في استقبال أبي. مضوا في زورقين شراعيين صغيرين وكان عليهم أن يجاهدوا ضد عاصفة شديدة كانت تهدد بتدمير قواربهم تدميرا كاملا في أي لحظة. كانوا يأملون أن يكونوا في السابعة في أبعد الأحوال مع أبي بيننا. إلا أن الإنسان يفكر والله يُوجه.

مضى الوقت، تجاوزت الساعة السابعة منذ وقت طويل و لم يُر أثر للسفن. عم في المدينة بأكملها القلق، وبشكل أساسي في بيتنا. حدس المرء بوقوع شر ولكن ليس ما كان علينا أن نعرفه بعد وقت قصير. خفنا أن يكون ماجد ومرافقوه قد ماتوا في الإعصار الهائج، وأن وصول أبي تأخر بالطبع بسبب هذا الاكتشاف المرعب. وانتشر التخمين بأن جميع المراكب الكبيرة والصغيرة غرقت في العاصفة، وتكاثرت التخمينات، ورفض الكل الذهاب للنوم حتى أصغر الأطفال قبل أن يصل المنتظرون بسلام.

فجأة انتشر خبر لم يرد أحد أن يصدقه في البدء. قيل أن القصر بأكمله محاط من قبل بضع مئات من الجنود وموضوع تحت مراقبة شديدة. تزاحم الكل على النوافذ ليتأكدوا من ذلك بأنفسهم. كان الليل حالك السواد، و لم نر في كل مكان حولنا سوى رؤوس بنادق الجنود تلتمع، نظرة زادت من مشاعر الخوف. وعلمنا فوق ذلك أن الجنود لم يسمحوا لأي شخص بالدخول.

تساءل الجميع، ماذا حدث؟ ولأي سبب حوصرنا؟ ولكن جرت

مناقشات خاصة عمن يكون قد أوعز بهذا الإجراء. فماجد لم يعد قدر ما نعرف، وكان بيته الذي رأينا حوله بوضوح حين كان الضوء مشتعلا أشخاصا يروحون ويجيئون في قلق، مراقبا من أشخاص مخيفين، مثل بيتنا.

وكانت حالنا أسوأ لأن الخصيان وجميع العبيد من الرجال ينامون خارج البيت، كان البيت بأكمله يؤوي فقط النساء والأطفال العاجزين. لقد مضت بعض النساء الجريئات بشجاعة كبيرة حتى القاعة الأمامية في الطابق الأرضي حيث لا يفصلها عن القاعة الكبيرة التي تقوم خلف البوابة مباشرة والمخصصة للحرس إلا باب، وقد استطعن عبر نوافذ القاعة التحدث مع الحرس بسهولة. إلا أن هؤلاء أظهروا صلابة وقسوة، متمسكين بالتعليمات رفضوا تقديم أي معلومات، وحين أزعجهم ضجيج وأسئلة الإماء أقسموا أغلظ الايمان أن يطلقوا عليهن الرصاص إن لم يلتزمن الهدوء.

بكت النساء وشكون من السلطة غير المرئية التي لا بد أن تكون شريرة، بكى الأطفال وصرخوا في كل مكان، ولم تكن تهدئتهم ممكنة. وصلّت الورعات لله القدير. باختصار جرى في بيتنا عرض يفوق كل وصف. ولو أن شخصا وجد نفسه فجأة في ذلك الاضطراب الوحشي في تلك الليلة دون أن تكون لديه فكرة، لظن أنه في بيت للمجانين دون شك.

بدأ الصبح ينبلج وكنا لا نزال نجهل سبب معاملتنا كسجناء ولا أين صار ماجد. ولكن رغم الخوف والقلق تفرقت المجموعات في وقت

معين لأداء صلاة الصبح. ثم، ومن يستطيع أن يصف ذعرنا حين رأينا أخيرا بوضوح اسطولنا ترتفع عليه راية الحداد يرسو أمامنا. كان النواح يجل عن الوصف حين فتحت الأبواب في الصباح وجاء إلينا إخوتنا بغير أبينا!

أصبح واضحا لدينا الآن فقط، لمن كان حداد السفن، يا لها من خسارة لا تعوض لنا ولبلادنا. لم يعد أبي الطيب موجودا! خلال الرحلة من عمان إلى زنجبار لبى نداء ربه الذي خدمه في خشوع كبير دائما، بين عدد صغير من أبنائه والمخلصين له. أخيرا قضى الجرح الذي سببته طلقة في ساقه والذي عانى منه طويلا على حياته الغالية.

لم يكن المرحوم رئيسا محبوبا لعائلته فقط، بل كان أيضا الأمير الأنقى ضميرا والأب الحقيقي لشعبه. وقد أظهر الحزن على وفاته مقدار حب الشعب له. رفت على جميع البيوت أعلام سوداء، ورفع حتى أكثر الأكواخ فقرا راية صغيرة سوداء.

علمنا من برغش الذي كان مع أبي على نفس السفينة وكان حاضرا لدى وفاته تفاصيل أكثر عن مرض أبي وساعة موته. ويعود الفضل له إلى أن الجثة الغالية لم تلقَ في أعماق البحر كما يقضي الدين الإسلامي. لقد أكد بإصرار أنها يجب أن تؤخذ إلى زنجبار، وقد أوعز حتى بوضعه في تابوت، ليمكن نقله. كان ذلك الاحترام الطبيعي للأب الطيب، التي منحه كل شيء، وخرق بذلك عاداتنا وأعرافنا، وديننا. فالتابوت غير مسموح به لدينا، إذ يجب أن ندفن جميعا سواء كان المرء أميرا أم متسولا في أمنا الأرض مباشرة، لنعود إلى التراب

الذي خلقنا منه.

عرفنا الآن أيضا لماذا وضعنا الليلة الماضية تحت الحراسة المشددة. لقد كابد ماجد ومن معه من العاصفة مكابدة شديدة وظن أنه هالك لا محالة، فقد كانت زوارقهم الصغيرة مخصصة لخدمات الشاطىء فقط وكان عليهم أن يمضوا بها إلى عرض البحر، قبل أن يصلوا إلى السفن. إلا أنهم لم يجدوا برغش نفسه، كان قد استلم قيادة الأسطول باعتباره أكبر الأبناء وحين ظهرت له اليابسة توجه به وعليه الجثة بكل هدوء إلى الشاطئ، ليدفنه في مقبرتنا سرا ودون أن يلاحظه أحد.

كانت التقاليد لدينا تقضي أن تحل المنازعات على العرش أمام جثة الأب أو الأخ، منطلقين من أن الاحترام الطبيعي يساعد الوريث الشرعي عادة. لكن برغش أراد أن يفوز بالسلطة، وكان يعرف أن كل شيء سيكون في مثل هذه المفاوضات الاحتفالية من نصيب أخيه الأكبر ماجد فقرر أن يحبط مثل هذه النتيجة. أعتمد أكثر من ذلك على القوة المكشوفة وخاصة على مباغتة سريعة للناس الذين كان خبر الموت قد هزهم.

لهذا أيضا أوعز بعد وصوله مباشرة بمحاصرة بيتنا وبيت ماجد. إلا أن خطته فشلت بالدرجة الأولى لأنه لم يقبض على ماجد الذي كان قد خرج قبل ذلك إلى البحر. حاول بعد ذلك أن يبرر إجراءه بأنه أراد أن يمنع ثورة محتملة.

وقد احتفظ ماجد الذي كان ينوب عن أبي بعد وفاة خالد كما ذكرت بالعرش، وأعلن نفسه حاكما في الصباح التالي. إلا أننا كنا

جميعا معلقين في شك خائف فيما إذا كان هو بالفعل رئيسنا أم أن أخانا الأكبر ثويني الذي كان قد بقي في عمان ثانية، سيسعى إلى الحصول على هذا المنصب المستحق له بالقوة.

مأتمنا

كان مأتمنا مليئا بالشكليات. كان علينا جميعا صغارا وكبارا أن نخلع في البدء ثيابنا الثمينة، ونلبس بدلا منها الثياب القطنية السوداء البسيطة، ووجب استبدال الأقنعة المطرزة بأخرى بسيطة سوداء. جرى الابتعاد عن أي نوع من العطر والمسوحات، وإذا ما رشت أحداهن ثيابها المصبوغة بزيت الورد أو حتى قطرات من ماء الورد لإزالة رائحة الصبغة اعتبرت بلا قلب، أو ساءت سمعتها واعتبرت لعوبا. نام جميع الراشدين في الأيام الأولى على الأقل ليس على الأسرة، وإنما على الأرض مباشرة كما ينام أبي، لا يجوز لأفراد عائلته إذا أرادوا أن يظهروا البر، أن يتمتعوا بهذه الراحة.

أصبح بيتنا طيلة أربعة عشر يوما يشبه أكبر دار ضيافة في العالم. فقد كان يجوز للكل أن يأتي في هذا الوقت ويأكل حتى الشبع، الأمير والمتسول علي السواء. كانت تطبخ الأطعمة التي كان الميت يفضلها خاصة طبقا للعادة وتقدم للفقراء بكميات هائلة.

وكان على كل زوجات المتوفى دون استثناء، الشرعيات والإماء اللاتي جرى شراؤهن، أن يخضعن لطقوس حزن ديني يستمر أربعة

أشهر كاملة. فيكون على هاته التعيسات أن يحزن على زوجهن أو سيدهن في غرفة مظلمة، فلا يجوز لهن الخروج إلى ضوء النهار متعمدات، ناهيك عن الخروج إلى ضوءالشمس. وإذا ما كان على "التركة" (الأرملة) أن تغادر مرة غرفتها المعَتّمة وتمر عبر الشرفة يكون عليها أن تلقي بمنديل أسود سميك فوق قناعهاوتتحجب بشكل يمكنها من تبين طريقها وحسب. تكون العين قد أصبحت جراء ذلك حساسة إزاء الضوء وعليها بعد مرور انقضاء فترة الحزن أن تعرضها للضوء بحذر وبصورة تدريجية.

في البداية تماما وبكلمات طقسية معينة يُثبِّت القاضي الذي يظهرن أمامه محجبات تماما، وضعهن كأرامل رسميا، ثم يعلن في طقوس معينة بعد انقضاء أربعة أشهر إنتهاء فترة عدتهن رسميا. ثمة طقوس أخرى نشأت من الخرافات السوداء يتعين على الأرملة أن تمر بها في يوم إنهاء عدتها. كان عليهن قبل كل شيء أن يغتسلن جميعا اغتسالا كاملا من الرأس حتى القدم في نفس الوقت، تقف خلف كل واحدة خلال الاغتسال أمة تضرب نصلي سيفين ببعضهما فوق رأس سيدتها. وبسبب العدد الكبير من الأرامل اللائي تركهن والدي لم تكن إقامة هذا الطقس ممكنة في الحمامات التي كانت رغم سعتها محدودة المساحة، فأقيم اغتسال هاته النساء على الشاطيء، وهو ما شكل عرضا فريدا وغريبا ونشيطا.

كانت الأرملة ترتدي الآن ملابس أخرى، ويكون لها منذ الآن فقط أن تفكر في الزواج ثانية. وإذا كان يجوز للرجال من أفراد

عائلتنا فقط وعبيدنا الخاصين الدخول علينا، فإنه لا يجوز لأمهاتنا خلال هذه الشهور الأربعة الظهور إلا أمام إخوتنا.

زار بعضنا في السنة الأولى من حزننا قبر أبينا في أيام الخميس بانتظام، أي في ليلة يوم أحد المسلمين. كان بناء مستطيلا تغطيه قبة كبيرة يستريح فيها العديد من إخوتي. بعد أن نكون قد قرأنا الفاتحة وسورا أخرى من القرآن ودعونا الله للرأفة بالمتوفين وبمغفرة خطاياهم، كنا نرش الزيت وماء الورد فوق القبور ونبخرها بالمسك والعنبر، وكان كل هذا يتم مع النواح بصوت عال على الخسارة التي لحقت بنا.

يؤمن المسلم إيمانا راسخا بالخلود، وهو يعتقد أنه يسمح لروح الميت أن تزور مكان حياته السابقة وأقاربه بين حين وآخر، بالطبع دون أن يلاحظه أحد. لهذا يحب المرء الذهاب إلى قبر محبوب، لإبلاغ الروح الخالدة للمتوفى الذي يشاركنا بعمق أحوالنا في الآخرة أيضا، بالأفراح والهموم. باختصار يحترم المرء الموتى بكل الطرق. فإذا أقسم مسلم مستقيم برأس أو باسم موتاه يستطيع المرء أن يكون واثقا بأن هذا يفضل أن يهلك على أن ينكث قسمه.

وما دامت أمهاتنا في حداد بقي كل شيء في بيتنا على ما هو عليه، لم يكن في هذه الفترة انجاز الأعمال التجارية بأية صورة ممكنا. فضلا عن هذا كان علينا أن نتناقش مع إخوتنا في عمان أولا. أرسلت سفينة إلى هناك في الحال لتنقل خبر المصاب الجسيم الذي حل بنا. كيف سيكون موقف ثويني وهو الذي ينبغي أن يكون الخليفة الشرعي لأبي

لكونه أكبر الأبناء؟ هل سيتفق مع ماجد، أم أننا مهددون بانقسام العائلة واحترابها؟ كان مثل هذه الأسئلة يناقش يوميا.

بعد شهور طويلة وصل زنجبار أخونا محمد كنائب لجميع إخوتنا الذين يعيشون في عمان، ليشارك في تقسيم التركة خاصة. ما كادت مهمته تنتهي حتى عاد بأسرع ما يستطيع إلى مسقط. كان محمد يعتبر الأكثر ورعا في عائلتنا بأكملها، وكان منذ شبابه قليل الاكتراث بالدنيا وبالمصالح الدنيوية. كان عدوا للكل بريق خارجي وكل مظاهر الثراء و لم يكن يشعر بالراحة كأمير. لم يحترم المال و لم يكن يرتدي الملابس الفاخرة أبدا وإنما كان دائما متواضعا جدا وبسيطا. لذلك لم يعجبه البذخ في زنجبار، خاصة أن المرء لم يكن في عمان معتادا على مثل هذا الثراء، لم يشعر بالسعادة في هذا البهاء. من هنا كانت عجلته الكبيرة للعودة بعد وقت قصير في الطريق الذي جاء منه إلى الأوضاع البسيطة في وطننا الحقيقي.

بقيت قضية خلافة العرش غير محلولة. و لم يهتم ماجد الذي كان يمسك بزمام الأمور في زنجبار ما إذا كان ثويني الذي تسلم الحكم كاملا في عمان، راضيا بهذا التحديد غير الشرعي، و لم يعترف ثويني به كسلطان لزنجبار أبدا. جرى التوصل بعد ذلك بوساطة انكليزية إلى نوع من التسوية، يقوم ماجد بدفع مبلغ معين من المال سنويا لأخيه الأكبر. وقد التزم ماجد بهذا وقتا قصيرا فقط ثم أوقف الدفع، لأن هذا يمكن أن يعتبر نوعا من الأتاوة وينظر إليه كتابع لعمان. لم يكن ثويني قادرا على فعل شيء إزاء هذا، وكان لديه في عمان نفسها

نزاعات عليه أن يخوضها، و لم تكن إمكاناته المادية تكفي لمواجهة إمكانات حاكم زنجبار الغنية ومحاولة استعادة حقوقه بقوة السلاح. فأصبحت عمان وزنجبار منذ ذلك الوقت ومن غير نزاع رسمي يستند إلى عقد، مملكتين منفصلتين مستقلتين عن بعضهما.

على العكس إتفق الإخوة بمشاركة محمد على تقسيم تركة أبي الخاصة. لا توجد لدينا دولة بالمفهوم الأوروبي، وهكذا لا يوجد أيضا كل ما ينبثق من هذا المصطلح، هذا المفهوم، ولا يعرف المرء بالدرجة الأولى موارد الدولة ونفقاتها. كل ما تعود به الكمارك كان ببساطة ملكا شخصيا للحاكم، لوالدنا. من هذا المال ومن ريع مزارعه خاصة، حيث أنه كان أكبر مالك أرض في الجزيرة، كان يغطي جميع النفقات ويملأ خزينته. وبالمقابل لم تكن ثمة ضريبة على الدخل أو العقار أو الصناعة، في زماني على الأقل، كما هي موجودة بكثرة هنا.

قسمت هذه التركة الخاصة بيننا نحن الإخوة، اعتبرت حتى السفن الحربية جزءا منها، فانتقلت إلى ثويني وماجد بعد حساب رسم معين عليها واحتسبت ضمن حصتيهما. تفضل الشريعة الإسلامية في مسائل الميراث البنين على البنات تفضيلا كبيرا، حجة ذلك أن الرجل مكلف بإعالة عائلة بكاملها، وهو ما لا تحتاج إليه المرأة. وهكذا حصلنا نحن الأخوات على نصف ما حصل عليه إخوتنا فقط.

اعتبرت أنا يومذاك مع أخي رالوب، رفيق لعبي القديم في بيت المتوني، راشدين رغم أن كلانا لم يكد يكون قد الثانية عشرة. وكان

ذلك مبكرا بصورة غير معتادة حتى بالنسبة لتقاليدنا، ولكن الزمن كان بالنسبة لعائلتنا غير اعتيادي تماما، وقد أعقبت التقلبات بعضها. لذلك أيضا حصل كل منا على نصيبه من التركة كاملا وأصبحنا مستقلين في سن الثانية عشرة. أما إخوتنا الأصغر سنا فقد أصبح ماجد وصيا عليهم وأدار ثروتهم.

كان أبي قد طلب في وصيته الإنفاق على زوجاته اللائي لا أطفال لهن مدى الحياة. وعلى العكس حصلت أمهات أبنائه على رأسمال صغير نسبيا مرة واحدة وحسب. لا بد أن يكون قد افترض أننا سنقوم من أنفسنا بإعالة أمهاتنا، إلا أنهن سيكن تابعات لأبنائهن تماما، لم تكن الأمهات يملكن شيئا تقريبا، بينما كان الطفل يملك كل شيء. لقد حكم أبي على أبنائه في ذلك حكما صحيحا، أستطيع أن أؤكد لسعادتي ولشرف جميع إخوتي (كنا الأحياء جميعا ٣٦ لدى وفاته) أنه ما من أحد خيب ثقته الحسنة. كان الكل يحب ويحترم أمه كما في السابق، وما أساء أي منهم استخدام وضعه المفضل إزاءهن. وإلا لكان يستحق اللعنة تماما. تبقى الأم أما، سواء كانت أميرة أو كانت أمة مشتراة، وهي لا تحتاج إزاء طفلها إلى مرتبة أو ثراء، وهي تستحق دائما الاحترام الكبير.

بعد تقسيم التركة بوقت قصير أصبح بيتنا الذي كان مكتظا، موحشا وفارغا، مقارنة بوضعه السابق على الأقل. ترك عدد كبير من إخوتي مع أمهاتهم وعبيدهم الشخصيين وإمائهم بيت الساحل ليؤسسوا بيوتا خاصة بهم. و لم تشأ خولة وشيفانة وعائشة أن

يحذون حذوهم في الحال، وبقيت مع أمي في بيت الثاني ومعهن بعض الوقت.

حدثت تغيرات في بيت المتوني أيضا، فقد انتقلت سمسم إلى مزرعتها وأقامت هناك حتى زواجها لاحقا وانتقلت مثلة إلى مسكنها. كان ضروريا في الواقع أن يغادر بعضنا البيوت الكبيرة، بعد أن أصبحنا جميعا قادرين على أن نتابع العيش مستقلين دون تقييد حسب ذوقنا الخاص. وكان يتوجب تخفيف ضائقة السكن عن الإخوة القاصرين الأصغر سنا.

إذا كان الطعام يعد للجميع في حياة والدي في قدر هائل الحجم، فقد تغير ذلك الآن. فقد أصبح على كل الذين حصلوا على نصيبهم من الميراث أن يوفروا الطعام لأنفسهم. بقيت أوضاع القاصرين فقط إلى جانب أمهاتهم وعبيدهم وللنساء اللائي لا أطفال لهن كما كانت من قبل. كان على ماجد أن ينفق عليهم جميعا حيث كانت ثروتهم وريعها تحت تصرفه.

ملامح وقصص من محيط إخوتي

لقد رويت الكثير عن أخوتي خلال حديثي، بتفصيل أكبر حول بعضهم وباختصار حول البعض الآخر. لا أعرف كم كان لي من الإخوة. من المؤكد أن عددهم كان كبيرا قبل وفاة والدي ولا أظنني أخطئ إذا قدرت مجموع عددهم بحوالي المائة. حين توفي والدي كان الأحياء منهم ٣٦، ثمانية عشر إبنا وثماني عشرة بنتا. لو أردت أن أعدهم فردا فردا وأصور طبائعهم ومصائرهم فلن يهم ذلك القارىء الأوروبي. إلا أنني لا أستطيع أن امنع نفسي من أن أقول المزيد عن بعضهم على الأقل وأريد في ذلك أن أبرز بشكل خاص سلسلة من الطبائع والخصائل التي تبدو مناسبة لتصوير الحياة والعادات والتقاليد في بلادي تصويرا أوضح وأكثر دقة.

شريفة

كان أبي الذي قاد الحكومة وأشرف على كل شيء شخصيا لا يجد الكثير من الوقت للإنشغال مع أطفاله الصغار، إلا أنه عامل الراشدين منهم بحب كبير. لم يكن نادرا أن يثير هذا حسد رهط الصغار الذين

كان عليهم أن يقفوا أمامه باستقامة مثل حاملي الدروع من الحرس بينما سمح لأخواتنا الأكبر سنا الجلوس إلى جانبه على الأريكة. كان حسدي الطفولي يتجه بصورة خاصة ضد أختي شريفة، وحسد إخوتي ينصب على هلال.

كانت شريفة، وهي إبنة لشركسية، ذات جمال أخاذ وكان لون بشرتها يشبه تماما لون بشرة شقراء ألمانية. وكانت تملك فضلا عن هذا ذكاء حادا جعلها مستشارة مخلصة لأبي. كانت يتبادل معها وجهات النظر في أوقات الحرب والسلم حول جميع الأشياء، ويقال أنها لم تخطئ في نصحه تقريبا. وهذا دليل أكيد على أن المرأة في الشرق ليست مجرد صفر.

لكنها كانت في فترة محدودة من الزمن ليست على وفاق مع أبي. متبعة قلبها تزوجت من ابن عم لها لم يبد لأبي متمتعا بالصفات التي يريدها لزوج إبنته الحبيبة. تجنبت في البدء البيت الأبوي حتى خف انزعاج أبي أخيرا. لقد احسنت الاختيار وبقيت الزوجة الوحيدة لزوجها. كان طفلها الوحيد شنون، وهو صبي رائع الجمال تحبه حبا لا مزيد عليه إلا أنها ربته تربية صارمة جدا، رفيقي في اللعب. كان كلما جاء مع أمه في أيام الجمعة إلينا يأتيني بشيء معه، خاصة حين كانت الرياح الموسمية تقود السفن من مسقط إلينا. كانت لشريفة هناك علاقات واسعة، وكانت تحب مسقط فوق كل شيء وقد ختمت حياتها أيضا هناك حيث رافقت أبي في رحلته الأخيرة.

حين تعرفت على بيت الساحل، كما ذكرت سابقا، أصبحت خولة مثلي الأعلى بدلا من شريفة. وكانت هذه أيضا قريبة من أبي، فقد كسبت حبه بطبعها الساحر ومرحها ولطفها. لم أر في حياتي أنثى ملكت تناسقا جميلا مكتملا مثل خولة. كانت تختار ثيابها بذوق رفيع كما كان كل شيء يناسبها. وحين كان الكل يرتدي المخمل المصنوع في ليون بينما ترتدي هي ثيابا من الجيت البسيط، فإنها كانت تتميز مع ذلك عنهن وكأنها حاكمة أمام رعيتها. وقد اعتبر حكمها في كل قضايا الملابس غير قابل للخطأ، مثلما كانت الامبراطورة أويجينيا في زمانها في العالم الأوروبي.

وكانت أم خولة التي تنحدر من بلاد ما بين النهرين، تمتلك الكثير من الحكمة والذكاء لذلك عهد إليها أبي بالإشراف على شؤون بيت الساحل. وكانت خولة تعاني الكثير من أختها الشقيقة عائشة وقد احتملت ذلك بصبر مؤثر. حين كانت عائشة ذات اللسان الحاد تريد أن تغتاب الآخرين لديها كانت تردها ببرود دائما. أنا وحدي التي باحت لي بمعاناتها رغم صغر سني، ولم تخفِ عني سرا، عرفت وحدي عمق ألمها من سلوك أختها. كثيرا ما كانت حينها تنفجر باكية، "يا إلهي، سالمة، ماذا فعلت وما ذنبي إذا كان أبي يحب أن يكافئني؟ ألست أقتسم كل عطاياه معها؟ أهو ذنبي أن أبي يطلب دائما أن أقوم بخدمته؟"

لاحقها آخرون كثيرون في البيت بعدم الرضا نفسه للأسف.

ولكنهم كانوا يتملقونها حين يحتاجون إلى شفاعتها لهم عند أبي، غير أنهم سرعان ما ينسون هذا بعد وقت قصير.

كانت تساعد أمها في الإشراف على شؤون البيت وقد عهد أبي إليها بهذه المهمة في وقت لاحق لتنهض بها وحدها. وكان ثمة سبب لشكاوى جديدة، كان من المستحيل عليها إرضاء الجميع في القصر المكتظ بالناس. فإذا ما فسدت في الطقس الحار دجاجة أو قطعة لحم أو سمكة أو تأخر وصول الفاكهة الى المزارع أو كانت مهروسة، أو لم تكن البضائع المشتراة للتوزيع مطابقة للرغبات، وإذا ما كانت محاصيل الورد في تركيا سيئة فلم نستطع الحصول على حاجتنا الكبيرة من ماء الورد وزيت الورد، فإن خولة هي المذنبة في كل هذا، لقد حملت مسوولية كل شيء.

وقد اعتبر جريرة لها أن يصطحبها أبي إلى خزانته أو يرسلها إلى هناك وحيدة. لكم ود أعداؤها لو تمكنوا من تفتيشها في كل مرة عند العتبة، تماما مثلما يفعل المرء في السفن الفارسية بالغطاسين بحثا عن اللؤلؤ، كي لا يأخذوا شيئا لأنفسهم سرا. بلغ عدم الرضا والحسد هذا الحد، وقد فاجأ هؤلاء الخصوم الكثيرين ذات يوم الخبر المفزع بأن أبي أهداها تاجا بهيا ثمينا جدا إشتراه خصيصا لها من بلاد فارس. كان هذا الإكليل الرائع يتكون من نخلات ذهبية كثيرة مرصعة بالماس بكثرة، واحدة كبيرة في الوسط ثم تتدرج في الحجم فتصبح في النهاية أصغر فأصغر. وكان شكله لا يسمح بأن تلبسه خولة مع غطاء الرأس المستخدم لدينا، كان أقرب إلى الكنز الثمين

لأيام الحاجة. ومع حب الشرقية للحلي يدرك المرء أن إهداء مثل هذه القطعة الفاخرة زاد من عدد أعداء خولة وحسب. وقد أخذ المرء أيضا على أبي، الذي كان من المستحيل عليه أن يرضي رغبات جميع أفراد عائلته الكبيرة، مثل هذا التفضيل.

وماذا كان موقف خولة من هذه الغيرة؟ كان ذلك أفضل صفاتها: بقيت دائما على نفس لطفها وتسامحها مع الجميع. لم يخطر لها أبدا أن تثأر أو تنتقم. كانت تقول دائما: "إذا كان أبي راضيا عني، فيجب أن يكون هذا كافيا."

اعتنت بي خولة بإخلاص وأنا طفلة وأصبحت لي فيما بعد أوفى صديقة. وأصبحت علاقتنا بالغة العمق منذ أن انتقلت بعد وفاة أبي من بيت الساحل إلى بيت المتوني خاصة. كنا معا على الدوام، كنت أتناول طعامي عندها أو تتناول طعامها عندي، وتتصل أحاديثنا حتى ساعة متأخرة من الليل وكنا نستريح إلى جانب بعضنا. وقد ظهر تأثيرها علي فيما بعد. بعد تصالحي مع ماجد تكدرت صداقتنا، ولكن ليس لوقت طويل. وقد احتفظت بحبها لي طيلة حياتها. عام ١٨٧١ بعد موت زوجي أوعزت بالكتابة إلي، فلم تكن هي تحسن الكتابة، أن علي أن أرسل لها أحد أبنائي لتتبناه. لكنني لم استطع أن أستجيب لذلك، إذ سيكون عليه القيام بما لا يناسب قناعاته.

كان كرمها وسماحتها قد أصبحا مثاليين. وكان خدمها مرتاحين في خدمتها، كانت تتعامل مع أخطائهم بروية، وكانت تشفع لعبيد الآخرين. كنت أملك مثلا أمة نوبية كانت قد تعلمت لدى مالكيها

الفرس السابقين فن الطبخ وبرعت فيه. ورغم أنها كانت تقوم بتغذيتي جيدا إلا أنها أصبحت بعد وقت قصير لا تطاق، فقد اختفى كل ما وقع قريبا منها. لم تنفع جميع التنبيهات ولا نفع كشفها فقررت أخيرا أن أبيع هذه اللصة. وحين علمت زعفران (كان هذا اسم الشيطانة) بنيتي، مضت سرا إلى مزرعة خولة للتضرع إليها طالبة مساعدتها الطيبة. وقد استطاعت أن تستدر عطفها و لم يبقَ لي حبا بأختي، إلا أن احتفظ بهذه المرأة الخطرة.

اشترت خولة بعد موت أبي بنصيبها من التركة (لم ترث أكثر مما ورثنا) واحدة من أجمل مزارعنا، والتي كان أبي يزورها أكثر من غيرها. وقد كلفتها هذه المزرعة بسبب القصر الجميل التابع لها وتأثيثه الفاخر ثمنا غاليا، ولكن ريعها كان صغيرا. لقد جعلها احترامها لأبي الذي أحبها مثل عينيه تغض النظر عن مثل هذه الحسابات، فقد كانت مستعدة لتقديم أكبر تضحية من أجل أن تمتلك مكان إقامته المفضل. كانت تذهب كل عام في موسم حصاد القرنفل شهرين أو ثلاثة إلى سيبا، كان هذا هو اسم المزرعة. إنها أيام لا تنسى بالنسبة لي حيث تنزهت مع خولة يدا في يد تحت الأشجار العطرة للحديقة، وتبادلنا الحديث بانشراح مع أطفال العبيد أو راقبنا حركة الناس ونحن نجلس في قوس النافذة.

لم تستخدم غرفة أبي المؤثثة تأثيثا فاخرا، و لم تفتح إلا لضيوف خاصين وبناء على طلب منهم.

وكانت مضيفة رائعة وقد اجتذب جمال سيبا الكثير من الضيوف.

زينت الحديقة النباتات النادرة غير المعروفة في زنجبار عادة، وقد اعتنى الناظر المحترم بكل شيء بإخلاص كما كان في حياة أبي.

أمام السور العالي المتين الذي يحيط بالحديقة، وفي ظل شجرة رائعة يزيد حجمها على أكبر شجرة بلوط هنا، قامت أجمل بناية حجرية، احتوت على صالة واحدة فقط بأرض من المرمر ومرايا جدارية ترتفع إلى السقف، مصابيح كثيرة ملونة وكراس كثيرة من القصب. اعتاد أبي حين يكون في سيبا أن يتعبد هنا ويشرب القهوة في المساء. استطعنا الآن أن نزور دون إزعاج هذا المكان الجميل البارد، ونفرح مثل الأطفال ونتذكر أبانا الحبيب.

لم تعد خولة المحبوبة والمحسودة والمكروهة على قيد الحياة، فقدتها عام ١٨٧٥ . يقال إنها كانت ضحية تسميم غادر، ولم تكن معرفة الحقيقة بهذا الشأن ممكنة. لكنها بقيت بالنسبة لي قريبة من روحي.

عائشة

يندر أن تري الطبيعة في خلق أختين شقيقتين مثل هذا المزاج، كما هو الحال مع خولة وعائشة. كانت عائشة قصيرة القامة سمراء، بينما كانت خولة طويلة القامة وبيضاء، وكانت عائشة قد تشوهت بسبب إصابتها بالجدري، بينما كانت خولة تمثل الجمال الكامل لإمرأة شرقية. كانت عائشة تظهر طبعا متحفظا، منغلقا على نفسه وباردا، بينما كانت خولة تثير البهجة بلطفها الطبيعي وطيبتها، رغم أن عائشة كانت متفوقة عليها في الجانب الفكري. ما كان يمكن

للتناقضات أن تكون أكثر حدة. ولم يرد بعض أقاربنا الآسيويين أن يصدقوا أن عائشة وخولة هما اختان شقيقتان. وقد كانت عائشة المسكينة تعي تماما كم كان وجهها قد تشوه بسبب بثور الجدري، ولهذا لم تظهر دون قناع تقريبا. وقد لبست الحجاب حتى حينما كانت بين أخواتها أو أمام خدمها. وكان مفهوما ألا تكترث بمظهرها. كانت ملابسها بالنسبة لمكانتها متواضعة جدا وبدت إزاء أخواتها فقيرة تقريبا. وقد قامت على خدمتهاحبشية واحدة، كانت ماهرة في الحلاقة والزينة، فكانت حلاقة وعاملة تجميل وخادمة في نفس الوقت.

وعلى العكس كانت تعتبر في كل مكان الذواقة الأولى في الطعام، وبالفعل كان بوسع المرء أن يطوف في كل مكان عندنا دون أن يجد مائدة في جودة مائدتها. لذلك أرسل الكثيرون من الشبان ليتعلموا أسرار الطبخ الكثيرة من طباخيها المجربين. وحتى أخي ماجد طلب منها أن يعد له في مطبخها خمسة إلى ثمانية أطباق يوميا ودفع لها لقاءها مبلغا ثابتا كل شهر.

وقد جعلها ذكاؤها تدعى للتحكيم، فعرفت دائما وبتواضع شديد أن تكون إلى جانب الصواب. وكان لذكائها الحاد فائدة لميزانيتها، كانت مثالية في تدبير المنزل، وهو ثناء لم يستحقه بيننا إلا القليلون. لم تنضب خزينتها أبدا، حتى قبل موسم الحصاد الذي كان عليه أن يملأ جيوبنا.

المخلوقات المبذرة تصبح على أي حال بين حين وآخر بخيلة.

كان هلال المسكين أخاها الأحب إليها. تعلقت به بتفان كبير، وبعد موته رعت إبنه الأكبر سعود كأم بكل معنى الكلمة.

خدوج

لقد تعرف القارئ قبل الآن على خدوج أخت ماجد. كانت في بيتنا أوفر حظا من المحبة من عائشة، وقد عاشت في بيت ماجد الذي كان يحبها فوق كل شيء، وهكذا ندر أن احتككنا بها.

احتلت في سنوات متأخرة مكان الأم لأخينا ناصر الذي كان يتيم الأبوين، وذهبت معه بعد موت ماجد، وكانت سئمة من الحياة، إلى الملاذ الأخير للمسلمين، مكة، وقد مات كلاهما هناك بعد وقت قصير، واحدا بعد الآخر.

شيفانة

حين جئت إلى بيت الساحل أصبحت شيفانة رفيقة لعبي، رغم أنها كانت أكبر سنا مني، إلا أنها كانت الأقرب إلي سنا بين جميع إخوتي. وهبت ذكاء شديدا وقوة عضلية كبيرة ونظرة يمكن أن تخضع بها أسدا، ولم يفتها أن تلعب دورا كبيرا في البيت. لقد جعلتني خادمتها ببساطة. وكان علي أن أقبل يدها كل يوم وأحصل كشكر على خدماتي المديح المتملق في أحسن الأحوال: "أيتها القردة البيضاء!" كانت إبنة لامرأة حبشية، شعب معروف لدينا أيضا بخشونته وعنفه وكذلك بذكائه أيضا. أما أنا فقد انحدرت من أم

"بيضاء" وهو ما عاد علي ببعض التهجمات من قبل أخواتي السوداوات. وكان على أخي جمشيد الذي لم يرث من أمه الشقراء لون الشعر وحسب وإنما العينين الزرقاوين أيضا، أن يعاني منهم أكثر مما عانيت.

فقدت شيفانه في سن مبكرة أخاها علي الذي كان ذا طبائع مختلفة تماما عن طبائعها ولذلك أيضا كان محبوبا أكثر منها. ومات بعد ذلك أبوها وأمها واحدا بعد الآخر بسرعة، فوجدت نفسها وهي لا تزال يافعة وحيدة في هذا العالم الذي كان مختلفا تماما عما كانت تتمناه. وبين العدد الكبير من الإخوة لم تشعر بمودة سوى لماجد في أحسن الأحوال وذلك إكراما لعلي فقط الذي كان صديقا حميما له.

منحها قوامها المهيب حقا وجمال وجهها التقليدي تقريبا مهابة تبهر الكل. كانت خصلتها الأساسية الشعور المؤكد بالاستقلال. لم تستطع مرة أن تقرر استشارة أحد، و لم يعرف أحد كيف كانت تنظر إليه. ولما كانت لا تعرف الكتابة فقد غالت أمة سوداء في استغلالها. رغم خشونة طبعها كانت عطوفة وكانت بالنسبة لتابعيها صارمة إلا أنها سيدة عادلة.

وقد سعت لامتلاك أجمل العبيد وأحسنهم وكانت تثقلهم بالأسلحة الثمينة والحلي. كان كل شيء في محيطها يشع بهاء وثراء كما في بلد اسطوري.

كنت الأخت الوحيدة التي استطاعت أن تتفاهم معها رغم المعاملة السيئة التي عانيت منها في سنوات صباي. وحين كنت أنقل إليها في

لحظة مناسبة بين حين وآخر كيف تنتقد بسبب نفقاتها الكبيرة وخاصة بسبب سلسلة العبيد الكثيرين، كانت تجيب دون انفعال بأنها تعرف تماما أنها لن تعيش طويلا وتريد أن تهدي جزءا من ثروتها في حياتها إلى الفقراء وتنفق الجزء الآخر بأسرع ما تستطيع كي لا يبقى شيء نرثه. كانت غنية، فما عدا نصيبها من تركة أبي آلت إليها أيضا ثروة علي التي لا يستهان بها. لكنها بقيت تعيش رغم ذلك في البيت الأبوي وهو ما يأخذه الجميع عليها.

لم تهتم شيفانة بآراء الآخرين، ورغم أنها كانت تعيش مع مئات الناس تحت سقف واحد فلم تهتم بأحد وعاشت لنفسها وحسب ومع عبيدها الكثيرين. وهكذا لم نعرف بمرضها العضال إلا متأخرا. حانقة على خولة وعلى قسوتي رفضت منذ ذلك الوقت استقبال أحد، ورغم أن ذلك كان يدمي قلوبنا إلا أننا لم نستطع أن نتصرف ضد رغبتها. كانت صارمة في تحقيق ما تريد. وحين رأت أن حياتها اليانعة تمضي إلى نهايتها نتيجة للسل الذي تطور بصورة سريعة لا يمكن إيقافه فيها تركت من حولها يقسم ألا يراها أحد بعد موتها سوى غسالة الموتى. وقد جرى الالتزام بأمرها بصرامة. فما أن قضت حتى أغلقت غرفتها بإحكام. بعد غسل الجثة وفق الشرائع ورشها بالكافور فقط ولفها بالكتان الذي يغطي الوجة أيضا سبع مرات، سمح لنا بالدخول إليها. غير مصدقة جثوت أمام الجثة وعانقتها، غير مبالية بالأشخاص الخائفين الذين حاولوا إبعادي محذرين اياي من العدوى. في مثل هذه اللحظات تتخلى عنا أنانيتنا التي تسيطر علينا

تماما، ولو لفترة قصيرة جدا.

كنت قد أحببت شيفانة رغم اختلاف طبائعنا من كل قلبي، وقد دافعت عنها دائما، ومَن غض النظر عن خشونتها وغرابتها فلا بد أن يحبها. لقد أكسبها تعاليها وطموحها بعض الأعداء، وكان الناس المسنون بوجة خاص لا يطيقونها. وقد كان تعاليها بالذات واحدا من الألغاز الكثيرة في شخصيتها، فيما كان الايمان الراسخ يملأ روحها.

وقد اهتمت بعبيدها في المدينة والريف وهي على فراش الموت إيضا. لم تعتقهم من العبودية فقط وإنما أهدتهم أيضا أسلحتهم الثمينة وحليهم ومزرعة كاملة لتدبير معيشتهم فوق ذلك. فلم يكن على الذين عملوا من أجلها أن يضطروا للعمل من أجل المال بعد موتها.

متله

كانت متله مثل شيفانة إبنة لأم حبشية، إلا أن المرء ما كان ليرى أصلها لبياض بشرتها. وقد كانت هي وأخوها رالوب رفيقي في اللعب طيلة إقامتي في بيت المتوني. كانت أمها قد أصيبت بالشلل الكامل نتيجة إصابتها بأحد الأمراض و لم تستطع العناية بأطفالها، ولكن هذا لم يلحق الضرر بهما، لقد أصبح كلاهما شخصا مستقيما، طيب الخلق.

كان على المريضة المسكينة أن تعيش في الطابق الأرضي حيث لا يوجد عادة إلا مخازن عملاقة، وهكذا كان المكان مناسبا كغرفة

لمريضة كان هواء السراديب العفن يملأ الغرفة التي نشأ فيها أخواي.

أمام هذا البيت على شاطىء نهر المتوني مباشرة حيث يسمع خريره، أقيمت غرفة استجمام ذات طابع خاص، يقل ارتفاعها عن متر وتبلغ مساحتها ثلاثة إلى أربعة أمتار مربعة. هنا كانت تضطجع المريضة أو تجلس طول اليوم، حيث كان يعنى بها طفلاهما وعبيدها. وقد كان أبناء زوجها وأمهاتهم يحبون زيارتها ويتبادلون معها الأحاديث. وقد اعتادت أمي خاصة أن تقرأ لها شيئا من القرآن والكتب الدينية الأخرى، حيث كانت المريضة مثل الكثيرات من النساء اللاتي يأتين إلينا راشدات فلا يتعلمن القراءة والكتابة.

كانت متله ورالوب أخوين نادرين، كانا يحبان أمهما حبا طفوليا عميقا ويبذلان جهدهما ليدخلا البهجة على قلبها. كانت متله التي تكبرني ببضع سنوات طيبة القلب بصورة خاصة، وكانت تتبع مزاجنا، أفضل رفيقة لعب في العالم.

بعد موت أبي حصلنا أنا ومتله على مزارع متجاورة، فتبادلنا الزيارات يوميا حين كنا في المزارع. كان رالوب المرح وحده يحب أن يقلق هذا الهدوء، إذ كثيرا ما فاجأنا مع أصدقائه، فيسود دائما ارتباك كبير، حيث لم نعتد أن نظهر أمام الغرباء، وكان هذا ما يريد رالوب أن يراه.

عاشت متله بقية الوقت، بعد موتها أمها أيضا، في بيت المتوني، حتى تزوجت أحد أبناء عمومتنا وانتقلت إليه في المدينة. وكانت

بهجتها الوحيدة صبيين توأمين ساحرين. كنت أستطيع الذهاب إليها متى شئت، فأراها تحمل دائما أحد الصبيين على ذراعها أو تضعهما كليهما في حضنها. لم يكن في بيتنا شخص آخر راض بلا مطالب مثلها. كانت النقيض الكامل لشيفانة. ولكن هذا أيضا لم يعجب البعض، فقد كان يرى أن مثل هذا التواضع لا يناسب أميرة. ثم أنها أعلنت أنها ستبقى هي نفسها دائما، سواء كانت تخالط أميرا أم متسولا، فذلك في نظرها لا يمس نبلها. "إنه أمر يخصني وحدي، وأنا لا أحب أن أخرج مرتدية المخمل والحرير، هل أكون لذلك أقل قيمة من أخواتي؟ ألا أبقى مع ذلك إبنة أبي؟" يجب أن أعترف وهو ما يخجلني، أنني لم أكن أتفهم هذه الفلسفة، وأن الفرصة سنحت لي لاحقا أن أفكر في حكمتها وأؤيدها تماما.

زيانة

زيانة وزمزم أخوان شقيقان لأم حبشية. كانت ثمة علاقة صداقة حميمة بين أمي وزيانة حين كنا لا نزال نسكن في بيت المتوني كما ذكرت سابقا. لهذا كان لديها شيء من الضعف إزائي فكانت تحابيني أكثر مما كانت أمي تستحسنه. كانت غرفتا سكننا بعيدتين عن بعضهما فكان علي أن أمر فوق سلمين وأعبر الفناء بأكمله قبل أن أصل إلى زيانة وزمزم. ولذلك كنت أمكث طويلا عندهما، غالبا حتى سبع ساعات في اليوم، وهو ما يشعر أمي باليأس. كثيرا ما كان يأتي رسول بعد الآخر ليعود بي، دون أن يحالف النجاح أيا منهم،

فكانت أمي تأتي بنفسها أخيرا وتمكث هي الأخرى مع أخوي.

يعود الفضل في تعلمي حياكة الدانتيل لزيانة، كانت تملك مهارة خاصة في ذلك. وقد استحدثت أجمل النماذج وحدها أو مع أمي، ولم تكن تسمح لأحد أن يراها إلا بعد أن تكون قد رضيت عنها تماما.

كسبت زيانة بطباعها الحميدة أصدقاء في كل مكان، خاصة وأنها لم تتعب أبدا من رعاية المرضى والعاجزين وتقديم العزاء لهم.

استطاعت النساء في بيت المتوني طيلة غياب أبي وحاشيته أن يخرجن كما يرغبن في النهار، وهكذا كثيرا ما رأى المرء زيانة يرافقها عبدان محملان تطوف على عائلة هذا الموظف أو ذاك فتترك لدى مغادرتها دائما قلوبا مفعمة بالعرفان.

حين حل يوم انتقالنا إلى بيت الواتورو بكت أمي وزيانة بكاء مرا، كان واضحا لديهما أنهما لن تريا بعضهما إلا نادرا. كانت زيانة تكره المدينة ولم تكن تستطيع إرغام نفسها على زيارتها، ولكن انشغال أمي بالواجبات المختلفة جعلها تعجز عن زيارة بيت المتوني بكثرة.

مضيت إلى زيانة في الأيام الأخيرة في الصباح الباكر، حيث كانت أمي مشغولة، لأبقى لديها قدر ما استطعت. انفجرت باكية وأغرقتني بهدايا الوداع، أعطتني بيضا مسلوقا، كما كنت أحبه، باختصار حاولت أن تثبت لي كل المحبة. كما أنها أوصتني أن أكون فتاة طيبة وورعة وأمنح أمي السعادة الحقيقية.

لا أستطيع أن أصف فراقها، لقد أثر في مشاعري الطفولية أكثر حين ذهبنا أنا وأمي بعد ذلك مباشرة إلى زوجة أبي عزة بنت سيف لنودعها أيضا.

زمزم

كانت زمزم أجمل من زيانة بكثير، وكانت تملك كل الصفات النبيلة والطيبة التي كانت تملكها أختها التي اختطفها الموت مبكرا. لقد عرفتها معرفة جيدة في وقت لاحق حين أصبحنا جارتين في المزرعة. كانت عملية بطبعها، عازفة عن البذخ المغالى فيه، تحب البسيط والمستقيم. كل شيء يزدهر بين يديها وهو أمر نادر في بيت عربي. كانت أقرب إلى نموذج ربة البيت الألمانية إذا جاز لي التعبير.

كانت تتصرف بأمومة إزائي، فقد كنت محبوبة زيانة التي تحبها بحرارة. وإذا ما أخطأت في عمل ما، وهو ما كان يتكرر كثيرا للأسف، كانت تنظر إلي طويلا بعينيها الكبيرتين المليئتين بالحياة صامتة. ثم تقول "مؤسف أن تكون أمك قد تركتك وحيدة في هذا العالم الشرير. أجل، لو كانت زيانة على قيد الحياة لأمكن لها أن تكون أمك الثانية ولبقيت طويلا طفلة. فإنك كذلك وليس لديك إدراك بعد." ثم تختتم كلامها بلهجة مسترضية: "لا تغضبي مني، حين أقول لك شيئا كهذا فإنني أفعله حبا بزيانة التي كنت عزيزة عليها، ألا ترين أن الأخريات يرتكبن نفس الحماقات ولا يخطر لي أن ألومهن."

كانت لي عونا كبيرا في الزراعة خاصة، ركبت معي ساعات طويلة في المزرعة ونبهتني إلى هذه الفائدة وتلك. توجهت مرة إلى ناقورتي (نوع من المفتشين): "سيدتك لا تزال طفلة (متوتو بالسواحيلية) ولا تفهم من هذه الأمور شيئا، لهذا عليكم أنتم أن ترعوها، وما لا تعرفونه تستطيعون أن تسألوا ناقورتي عنه". لم يكن هذا ليرضي اعتدادي بنفسي وغروري، وبما أنها كانت حسنة القصد فلم أشعر بالضغينة عليها.

تزوجت زمزم من حمود، أحد أبناء عمومتنا البعيدين في سن متأخرة. (فقد كان العرف لدينا أن نتزوج من أقاربنا ما أمكن، للحفاظ على الدم الأزرق). لقد كان نفس الشخص الذي جرؤ على أن يطلب من خالد في المسجد يد أخت أخرى لي، ورفض بشدة بسبب هذا التطاول. حاول بعد وفاة خالد حظه لدى المرأة التي اختارها مباشرة، لكنه جوبه بالرفض. و لم يحتمل طموحه المجروح أن يقوم بدور العاشق المرفوض، فتحول إلى زمزم الذي قبلته. فاحتفلا بزواجهما بعد ذلك مباشرة احتفالا بسيطا دون بذخ. فقد كان حمود رغم أنه كان من أغنى الناس في زنجبار بخيلا جدا. و لم يكن يلتزم حتى بأصول الضيافة التقليدية عند العرب. كان فضلا عن هذا متطرفا دينيا ويتظاهر بالورع الشديد، الذي يعتبره الغالبية محض دجل، فقد كان قادرا على ارتكاب أكثر الأعمال وحشية لأصغر الأسباب. وهكذا لم يحبه أحد، بل احتقره الكثيرون، ولكنهم تجنبوا فقط معاداة الرجل الغني ذي النفوذ الكبير.

لم أر زمزم بعد زواجها كثيرا، وقد بدت سعيدة مع هذا الرجل المكروه، لا بد أن تكون قد عرفت بطريقتها العملية كيف تتصرف معه.

نونو

أريد أن أتحدث بعض الشيء عن أخت قست عليها الطبيعة واستحقت شفقة الآخرين. كانت نونو إبنة امرأة شركسية سميت لدينا بسبب جمالها المشرق تاجا. كانت لتاج حظوة خاصة لدى أبي حصدت بسببها حسد وكراهية الأخريات. وحين ولدت طفلتها كانت بمثل جمالها سوى أنها عمياء تماما، رأت الكثيرات أن ذلك عقاب للأم لأنها ارتكبت ذنب أن تكون المفضلة لدى أبي. عانت الأم المسكينة من ذلك، ولم يستطع أن يخفف من معاناتها بعض الشيء إلا ايمانها الراسخ بأنها إرادة الله. ولم يكن عليها أن ترى طفلتها العمياء طويلا فقد قضى عليها بعد وقت قصير نوع من مرض الاستسقاء.

وهكذا بقيت العمياء المسكينة نونو وحيدة. وهنا أيضا صح القول بأنه حيث تكون الحاجة أكبر يكون عون الله أقرب. وقد أقسمت أمة حبشية مخلصة لتاج وهي على فراش الموت أن تعتني بنونو بإخلاص حتى آخر حياتها وألا تتركها. وقد وفت بوعدها بصورة مثالية وحمت سيدتها الصغيرة من كل شرور الحياة، رغم أن هذه كثيرا ما قدمت مبررا للشكوى العادلة. ولم تخضع إلا لأوامر أبي الذي فاق

حبه واهتمامه بالمسكينة العمياء بالطبع اهتمامه بأطفاله الآخرين. بالطبع كانت هنا أيضا ثمة أحاديث من كل نوع تنطوي على الضغينة.

كانت نونو الأكثر شراسة والأقل تهذيبا في من رأيته من الأطفال في حياتي: كانت تسبب الذعر لجميع الأمهات الذين لهم أطفال صغار.

فقد طاردت وهي بين السادسة والعاشرة من العمر جميع إخوتها الذين يصغرونها سنا لتقلع عيونهم، رغم أن هذا لا يبدو قابلا للتصديق. ما كانت تعلم بولادة أخت أو أخ صغير حتى تسأل عما إذا كانت له عينان سليمتان ويستطيع أن يرى. وبالتدريج أصبح المرء يفضل ألا يخبرها بالحقيقة، وكان بالإمكان ملاحظة فرحها بوضوح، حين تعلم أن ثمة آخرين لا يستطيعون أن يبصروا الشمس والقمر. كان الحسد المر يملأ قلبها الصغير. كان لي أخ صغير يثير الإعجاب بأهدابه الرائعة الطويلة. ذات يوم سمع يصرخ صراخا مرعبا وكانت أمه قد ذهبت لتناول الغداء وتركته الأمة للحظات، فأسرع الجميع إليه ووجدوا أن نونو قد قصت أهدابه وحاجبيه.

لم يترك أي طفل في بيتنا دون حراسة منذ ذلك الوقت. كانت نونو تملك معرفة للمكان لا يتوقعها المرء من أعمى وتتحرك بخفة كبيرة. كان يمكن رؤيتها في كل مكان ناشرة الخراب فيه، مثل إعصار صغير خطير. وكانت تحطم بسرور كبير كل ما تصل إليه يدها من خزف وبلور، بالأخص دوارق الماء الأسيوية المزخرفة.

ولا بد أن أذكر واحدة من خصال نونو. كانت تريد أن تعامل كما لو كانت مبصرة تماما. فما أن تعلن إطلاقة المدفع غروب الشمس حتى تطلب إضاءة غرفتها. وكانت تريد أن تختار بنفسها الأقمشة لملابسها، وتقف دائما أمام المرآة حين تلبسها الإماء ثيابها. إذا سمعت أن لإحدانا شعر جميل أو عينان أو حاجبان جميلان، أسرعت تتحسس المنطقة المقصودة من الرأس، وهو فحص شديد الخطورة، لتلاحظ أن توقعاتها خابت أو العكس.

مع مرور السنوات أصبحت نونو عاقلة ورزينة وهو ما أفرح الجميع، فلم يعد يخشى منها باستمرار وإنما أصبح يتعرف على جوانبها الطيبة ويحبها. وكان على المسكينة، عاثرة الحظ أن تفقد بعد الأب والأم مربيتها المخلصة أيضا. ولأنها لا تستطيع أن تعيش وحدها وتحتاج إلى وصاية معينة، فقد أخذتها أختنا عائشة عندها فعاشتا في بيت مشترك.

شيمبوا وفارشو

لا بد من ذكر اثنتين من بنات أخي هنا، هما شيمبوا وفارشو اللتان ذهبتا معي إلى المدرسة، وكانتا رفيقتي في اللعب وفيما بعد انتسبنا إلى نفس الحزب. كانتا تسكنان في بيت مقابل لبيتنا ولما كانت الشوارع في زنجبار ضيقة فقد كان بوسعنا دون أن نستعين بلغة الإشارات التي تدربنا عليها، أن نتبادل الأحاديث من النوافذ عن الملابس وشؤون البيت وفي السياسة كما نحب. كنا نستخدم في الموضوع الأخير

وحسب بعض الإجراءات التحفظية، فقد كنا نكلف خدما لا يلفتون النظر عند زوايا بيوتنا ليحذرونا عند اقتراب شخصية معادية بترك العصا تسقط من أيديهم أو بالسعال أو الصفير بصوت واطئ. سأتحدث لاحقا عن هذه الفترة المثيرة بتفصيل أكبر.

كانت شيمبوا وفارشو الطفلتين الوحيدتين لأخي خالد، وكانتا تحبان بعضهما منذ الطفولة حبا عميقا، فما كانتا تريدان أن تفترقا أبدا. وكثيرا ما وقعتا في نزاع مع والدتيهما اللتين كانتا تشعران بغيرة عميقة من بعضهما. وكانت شيمبوا التي تكبر أختها ببضع سنوات رقيقة بطبعها ومتواضعة على العكس تماما من فارشو، وقد كان أمرا مفهوما للغاية أن ترعى شيمبوا أختها مثل أم.

كانت كلتا الأختين غنية، فقد ورثتا ثروة أبيهما خالد التي لا يستهان بها كاملة. ومن حبهما لبعضهما رفضتا تقسيم التركة وإنما احتفظتا بملكية مشتركة. وقد زاد هذا غيرة أم فارشو، وهي حبشية، فطلبت بإصرار إنهاء هذه الشراكة. رفضت فارشو الحادة بطبيعتها هذا وأعلنت بحزم بأنها لن تقتسم الثروة مع أختها ما دامتا غير متزوجتين. وقد شعرت أمها بأنها قد جرحت في مشاعرها بعمق فضلا عن أن الأوضاع كانت متوترة إلى حد بعيد، فتركت البيت والابنة مع رزمة صغيرة وقليل من المال. لم يعرف أحد في البدء أين ذهبت، ولكنها ما أن هدأت بعض الشيء حتى عادت إلى فارشو. و لم تكن هذه نية الأم المهانة، فلم تكن تريد أن ترى ابنتها أبدا، ناهيك أن تعيش تحت رحمتها، بل قررت أن تكسب رزقها بعملها اليدوي.

لقد سبق أن ذكرت أن الأرملة تعتمد بعد وفاة زوجها كليا تقريبا على أولادها. وقد شهدنا هنا مثالا على أن القانون لا يناسب الجميع.

بقيت الأم التعيسة مفقودة طالما كان لديها شيء من المال، وبعد أن أنفقت آخر "بيزا" جاءت إلى أختي الكبرى زوينة في بيت المتوني والتي كانت على صداقة متينة مع خالد في وقت من الأوقات، وسكنت عندها بشرط ألا تحاول زوينة مصالحتها مع إبنتها قبل أن تدرك هذه خطأها من نفسها وتعترف به طائعة. ومما لا يمكن فهمه أن فارشو بقيت مع وصول هذا الخبر إليها غير مكترثة و لم تقم بأية خطوة للتصالح مع أمها، حتى حين بدأ المرض يضعف هذه. و لم ينفع اللوم العام الذي نالها لهذا السبب، عبثا حاولت أن أذكرها بواجبها كإبنة، بقيت متصلبة وعنيدة. ما كان المرء ليظن مثل هذه الصلابة في ذلك المخلوق الصغير الرقيق، لكن عينيها الجميلتين كانتا تشيان بثبات لا ينثني في قراراتها. بعد مغادرتي زنجبار بوقت قصير قضى السل الخبيث على حياة فارشو و لم أعلم ما إذا كانت قد تصالحت مع أمها قبل موتها.

كانت أجمل ممتلكات ابنتي أخي مزرعة مرسيليا الرائعة. أعطاها خالد هذا الاسم لحبه لفرنسا وكل ما هو فرنسي. كانت كل الجدران عدا غرف الصلاة مغطاة بالمرايا التي تعكس الضوء الساقط عليها وتخلق أثرا رائعا. وكانت أرض الغرف مرصوفة بألواح المرمر البيضاء والسوداء التي كانت برودتها في الجنوب لا تقدر. ساعة مشغولة بفن تخرج منها عندما تدق أشكال تعزف وترقص، مرايا

زينة دائرية تظهر الأجسام بتشويهات مختلفة، كرات زئبق كبيرة كتلك التي يراها المرء هنا في الحدائق بين حين وآخر وأعمال فنية أخرى جعلت من قصر مرسيليا متحفا حقيقيا بالنسبة للإنسان البسيط الذي لم يتعرف على الحضارة إلا قليلا، خاصة بالنسبة لأقاربنا من عمان. وكم مرة سمعت كلمات التعجب :"ياإلهي، المسيحيون شياطين حقيقية!" كانت مرسيليا والحياة فيها مناسبة لتعطي الشخص غير المنحاز نظرة عن الشرق الحقيقي.

لقد قضيت هنا أياما رائعة. كانت الحركة هنا حرة، فقد كانت إبنتا أخي تحبان الانعتاق واعتبرتا متسامحتين جدا، وكان البيت مليئا دائما بالضيوف. لم يتوقف الذهاب والمجيء. وكان المرء يسمع على الدوام صراخ العدائين أو الفرسان الذين يسبقون الضيوف: سميلة! سميلة! (إفسحوا الطريق! إفسحوا الطريق! بالسواحيلية) أو أصوات العبيد يبلغون بقدوم الضيوف. كان المرء يصادف هنا أناسا فرحين فقط، لا يبدو أنهم يعرفون الهم. لم يكن نادرا أن تأسر طيبة المضيفات من كان قد حدد لزيارته ثلاثة أيام في الأصل فيمكث أربعة عشر يوما، فلا يبقى للآباء والأزواج سوى الخيبة.

وكان المرء يستمتع في النهار بالحرية، كان الكل يستطيع أن يفعل أو يترك ما يشاء دون أن يعتبر قليل التهذيب. هذه هي الضيافة الحقيقية التي لا تقيد وإنما تضمن الحرية الكاملة. كان القوم يجتمعون أولا حوالي المساء، مع غروب الشمس، ليسهروا في الصالات المضاءة بالمصابيح والشموع التي لا عد لها أو في الحديقة في ضوء القمر حتى

الساعة الواحدة أو الثانية. وإذا لم يكن ثمة ضوء قمر تشبع أكوام مرتفعة من الخشب موزعة في مواضع مختلفة بزيت النخيل وتشعل، لتبقى متقدة حتى وقت متأخر من الليل.

تعرض موضع البريق والبهجة هذابعد وقت قصير للدمار. اعتصم أخواي برغش وعبدالعزيز، وهو ما أثار استياءنا، في القصر ضد ماجد، وهنا وقعت المعركة الحاسمة. تدمرت المزرعة بكاملها وخسرت ابنتا أخي الكثير. ولكنها كانت خسارة قابلة للاحتمال لمن هو في مثل ثروتهما، فلم تكثرا من الكلام حول ذلك، إذ لم يكن الأمر يستحق الذكر.

هلال

من بين إخوتي أريد أن أتحدث عن اثنين، كلاهما سيء الحظ، كان الأول ضحية أخطائه والثاني ضحية إبنه.

يحرم الدين كما هو معروف تعاطي جميع أنواع المشروبات الروحية على المسلمين. وطائفتنا التي تحرم التدخين أيضا أكثر تشددا بكثير من الأتراك أو الفرس مثلا. وقد انتشرت في عائلتنا الإشاعة الخبيثة القائلة أن أخانا هلال غرر به من قبل المسيحيين، خاصة القنصل الفرنسي، وقتذاك فأدمن الشراب. بدأ فجأة يعاني من نوبات الدوار التي لا يمكن تفسيرها وبعد وقت قصير شم المرء رائحة النبيذ تفوح منه. لم يستطع المسكين أن يتخلص من الروح الشريرة التي سيطرت عليه. كان هلال الأبن المحبوب لدى أبي وقد سبب له هذا

هما كبيرا. ومن أجل أن يصلح المغرر به فرض عليه الإقامة الجبرية في البيت، ثم كان عليه أن يبعده عن محيط العائلة تماما.

كانت أختنا خدوج القريبة من هلال أكثر من تألم لذلك. وكثيرا ما كان يزورها في البيت الأبوي حتى بعد طرده منه. وكان يستطيع التسلل إليها مواجها صعوبات كثيرة وخطرا كبيرا، فيقضي الليل معها ومع الآخرين المخلصين له في الغرفة المظلمة، إذ ما كان ينبغي للضوء أن يشي به. و لم يكن ثمة من يطاوعه قلبه ليخبر أبي عن هذه الزيارات المؤثرة. ولما كان أبي لا يعطيه إلا القليل كي لا يتبقى لديه ما ينفقه على الخمر، كانت خدوج تساعده بسخاء، ولكن لم يكن ذلك لمصلحته للأسف.

وقد تدهور حال هلال أكثر فأكثر بتأثير إدمانه الخبيث، وأصبح لا يُرى صاحيا إلا نادرا، ثم قضى الموت على حياته المحزنة. وقد حزن أبي رغم كل ما حدث حزنا لا يوصف على إبنه الحبيب. كثيرا ما كان يغلق الباب عليه في غرفة صلاته، فتظل آثار الدموع في الموضع الذي اعتاد أن يركع فيه أمام خالقه. وكان يعبر عن أحزانه بالكلمات وهو ما لم يحدث لديه أبدا، مكررا دائما: "يا لتعاستي، يا ليأسي عليك يا هلال!"

خلف هلال ثلاثة أبناء، سعود، فيصل ومحمد. تبنت الأصغر محمد زوجة أبيه عزة بنت سيف التي لم يكن لها أطفال. لا أعرف كيف حدث ذلك، ربما فعلت ذلك حبا بأبي. وقد عرف محمد كيف يكسب بيبي عزة إلى جانبه، وهو فن لم ينجح فيه أي منا. كانت حتى

الآن تعتبر دقيقة ومقتصدة، و لم يرد أحد أن يصدق عينيه حين كان محمد يسمح لنفسه بالتبذير الشديد، من نقودها طبعا. رغم أن أحدا عندنا لم يكن قد فكر في تربية كلب، فقد استورد محمد من أوروبا قطيعا بينها كلاب رائعة، لم يكن المرء قد رأى مثلها لدينا. وقد ملأ الإنشغال بهذه الكلاب التي لم يسمح بها في البيت بالطبع، وبعض الخيول الجميلة حياة صاحبها. لم يسمح بإطعام الكلاب من بقايا الطعام بالطبع، فأنشئ لها مطبخ خاص لم يكن ينقصه التنوع. فذهب أسمن الدجاج وأفضل قطع اللحم وأكبر السمكات إلى القدور العملاقة. وقد روت الإشاعات أيضا أن هذه الكلاب مثل الخيول لا تشرب الماء الرخيص وإنما الشامبانيا. لا أدري ما إذا كان هذا صحيحا، وعلى أي حال فقد قيل عن محمد الكثير بسبب الحسد والكراهية، فقد كان له بسبب مغالاته كثير من الأعداء وقليل من الأصدقاء وحسب.

وقد أظهر سعود أيضا من كل الوجوه أنه معجب بحياة وعادات وتقاليد الأوروبيين، وكان في طباعه الأكثر شبها بأبيه.

وعلى العكس كان الإبن الثالث لهلال مختلفا عن أخويه تماما. فبينما كان محمد وسعود يميلان إلى البذخ والرفاهية، بدا فيصل الرقيق في كل مكان متواضعا، حتى ليظن المرء أنه مواطن عادي، وليس أميرا. كان ذا طبيعة ميالة إلى الفلسفة فلم تعجبه المسرات المادية وبقي لغزا بالنسبة لأخويه. إشترى فيما بعد مزرعة صغيرة قريبة مني ومن هنا كان يزورني بكثرة. نادرا ما كان يذهب إلى المدينة دون أن يأتيني

معه بهدية صغيرة حتى لو كانت بضع علب من الألعاب النارية التي كنت أحبها جدا.

لم يكن المسكين سعيدا، حيث لم يفهمه أخواه، وكان له طبع رقيق ونبيل، حتى أن المرء يغفله بسهولة في هذا العالم . من يقترب منه فقط يكسب بعد وقت قصير من خلال طبعه الودود ولطفه صداقته. كان قد فقد أمه مبكرا فلم يعرف الحنان. "من هنا فإنني أشعر بأني حزين حزنا مضاعفا" فتح قلبه ذات مرة للعمة التي تصغره كثيرا، "وأن يعتبرني أخواي أيضا فائضا تماما ولا يكترثان بي. الأمر متساو لدي في الواقع إن عشت أو مت. فالكل يستطيع أن يستغني عني." لكم أدمى قلبي أن أسمع الإنسان الطيب الذي كان يستحق كل الحب يتكلم هكذا. أليست حياة الدير التي تمنح السلام هي الأفضل لروح متعبة كهذه لا تعبأ بالعالم؟

حين استجبت لرجاء أخي ماجد بالعودة إلى المدينة، لم يؤلم هذا أحدا كما آلم فيصلي المسكين. لقد تعود مع الزمن أن يحدثني بهمومه وأفكاره كما لو كنت عمة واعية وليس كما كنت في ذلك الوقت صبية متوحشة قليلة الخبرة.

ثويني

ولد ثويني أكبر الإخوة في مسقط وقضى حياته بأكملها في عمان. لم يأت إلى زنجبار أبدا وبقي حكمه المسبق على مكان ولادة الكثير من إخوته راسخا. كان محرما لدى المسلمين أن ترسم صورة

للشخص، والاعتقاد الراسخ بالخرافات تجعل التمسك بهذه الوصية أشد، ولم يكن في ذلك الزمن ثمة تصوير فوتوغرافي بعد. وهكذا بقي ثويني لنا جميعا، نحن الذين لم يسمح لنا أن نزور مسقط، شخصية مجهولة. وقد سمعنا ما يروى عن لطفه وشجاعته وعزيمته في الحرب. كان جنوده يكادون يعبدونه، كان مجرد ظهوره يمنحهم ثقة كبيرة. أحب منذ صغره الحرب مثل أبي، وكان الجندي الأكثر اجتهادا بين إخوتي. وقد قضى القسم الأكبر من أيامه في المعسكرات وهو ما كان يسبب الهم لزوجته غالي، وهي إبنة عم لنا، أنجبت منه عدة أطفال.

كان ثويني ينوب عن أبي خلال فترة إقامته في زنجبار. إلا أنه ترك إدارة الشؤون الداخلية، أي الحكم الحقيقي، عادة لثاني أكبر إخوتنا محمد، الورع الذي لا يحب زنجبار أيضا كما ذكرت. كان لدى ثويني الكثير ليفعله فيما يتعلق بالدفاع عن المملكة. كان عليه أن يحارب الفرس حول بندر عباس مرة، وصد القبائل البدوية القادمة من داخل الجزيرة العربية مرة أخرى. كانت هذه القبائل الكثيرة فقيرة جميعها ويعيش الكثير منها على النهب. من النادر أن يملك عربي من الصحراء أكثر من بعير، وبعض الأسلحة التي لا يمكنه الاستغناء عنها (بندقية، سيف، خنجر، حربة ودرع)، واحدا أو اثنين من قدور الطبخ الحديدية، كيسا من التمر وفي أحسن الأحوال معزة حلوبا. يستخدم جميع الرجال صغارا وكبارا السلاح في المعركة، بينما تتبعهم النساء والبنات من بعيد على الأقدام، لينعشوهم بعد القتال

بالماء البارد والحليب والطعام. كانت مثل هذه الفرق تدخل عمان كل عام، مرة قوية ومرة ضعيفة وتوقع الاضطراب الدائم في البلاد. ولا يستطيع أن يصمد هناك سوى حاكم ذي عزيمة وحزم.

وقد كانت هذه هي الأوضاع السائدة حين توفي والدنا في طريق عودته إلى زنجبار. لو عاجله الموت في مسقط لكان ثويني قادرا أن يضمن السيادة على زنجبار أيضا، بينما استطاع ماجد، رابع أكبر إخوتنا أن يستغل الأوضاع الآن ليعلن نفسه سلطانا لزنجبار. لقد سبق أن رويت كيف تعهد ماجد بدفع مبلغ من المال سنويا إلى ثويني وكيف أنه تنصل من هذا التعهد بعد وقت قصير. وقد ناله اللوم من الجميع، فضلا عن أن وضع ثويني أصبح من يوم إلى آخر أكثر صعوبة.

لقد التهمت الحملات المتصلة الكثير من المال في الوقت الذي توقفت فيه المدفوعات من زنجبار بالذات. كان على ثويني أن يحصل على المال بأي ثمن ووجد نفسه مضطرا إلى فرض ضرائب على بضائع مختلفة، ولم يكن المرء في عمان ليفكر لحسن الحظ في القروض التي دمرت بعض الدول الشرقية اليوم. ولكن هذه الضرائب القليلة أثارت الاستياء، ونجح الساخطون في التأثير على سالم، الابن الأكبر لثويني وإيقاعه في شباكهم، فارتكب أعظم إثم يمكن أن يرتكبه إنسان.

كان ثويني قد عاد ذات يوم من اجتماع واستلقى على الأريكة ليستريح وقتا قصيرا. هنا دخل عليه إبنه وطلب منه بالحرف الواحد

إلغاء التعليمات الضريبية، فكان على أبيه أن يوضح له ضرورتها بحمية. استشاط سالم غضبا وسحب مسدسا كان قد أخفاه وأطلق الرصاص على أبيه فأرداه قتيلا.

لم يستمتع الصبي الأرعن بثمار جريمته طويلا، فقد ناله الانتقام أيضا بعد وقت قصير. لم يكد ينصب نفسه حاكما لعمان حتى قرر زوج أخته عزان أن ينتزع العرش منه. هجم ذات ليلة دون توقع على العاصمة مسقط وملأها نهبا وقتلا. وقد سهل استياء الشعب من سالم الشرير هذا العمل على عزان، فلم يرد أحد أن يحمل السلاح من أجل قاتل والده. وهكذا لم تلاقِ الثلل المتسللة المتوحشة مقاومة، فنهبت كل ما يمكن حمله ودمرت ما كان عليها أن تتركه وراءها. فخربت قصر سالم خاصة تخريبا كبيرا، أما هو فقد استطاع وسط المخاطر الهروب مع عائلته إلى إحدى السفن الحربية، فأنقذ حياته وحسب.

وقد استطاعت أمه التعيسة غالي أن تهرب بصعوبة مع بقية أطفالها أيضا إلى إحدى السفن. كانت قد فقدت كل شيء. وقد أفلح تاجر هندي شاب إسمه عبد الرب فيما بعد أن يشتري القسم الأكبر من حليها من بدوي لقاء ثمن بخس (يقال إنه ثلاثمائة من ريالات ماريا تيريزا)، وأعطى الأميرة المنكوبة ملكها المفقود بشهامة كهدية!

وقد طورد الدخيل عزان بعد وقت قصير من قبل ثالث أكبر إخوتي تركي، والذي أصابه بدوره الشيء نفسه من أخي الصغير عبد العزيز. كان هذا أحد الأبناء الذين رعتهم خولة، يتميز بالذكاء والشجاعة

والعزيمة. وقد شارك وهو في الثانية عشرة معنا في المؤامرة والقتال ضد ماجد ثم عاش بعدها فترة من الزمن في بلوجستان التي اشترينا جنودنا منها. ونجح أخيرا أن يحقق لعمان فترة قصيرة من الهدوء. و لم يكن هو أيضا قادرا وحده أن يضمن الحكم بصورة دائمة. عاد تركي واستعاد الحكم، فهرب عبد العزيز للمرة الثانية إلى ميكران في بلوجستان، حيث يعيش الآن.

من المؤكد أنها صورة محزنة ، صراعات العائلة هذه التي لا يفهمها المرء إلا إذا كان قد تعرف شخصيا على طموح الأمراء الشرقيين في الحكم وعواطف الشرقي بصورة عامة. و لم تبق هذه الأوضاع المحزنة غريبة عني أيضا.

مكانة المرأة في الشرق

قبل أن أستأنف رواية الأحداث التي عشتها شخصيا، أريد هنا أن أدخل بعض الفصول التي تتناول بعض جوانب الحياة الشرقية. لا أريد أن أقدم تصويرا مطولا تماما لكل العادات والتقاليد، فليس هدفي هو أن أضع كتابا علميا، وإنما أن أحاول تمكين القارئ الأوروبي من فهم رؤى الشرق المهمة وعاداته فهما صحيحا.

سأمضي في الحال إلى أهم هذه المسائل، إلى عرض مكانة المرأة في الشرق. يصعب علي أن أتناول هذا الموضوع، فأنا مقتنعة أن المرء سيعتبرني متحيزة لأنني شرقية الأصل ولن أنجح أيضا في القضاء قضاء تاما على وجهات النظر المخطئة والبعيدة عن الصواب التي تزداد رواجا في أوروبا وخاصة في ألمانيا حول مكانة المرأة العربية إزاء زوجها. لا يزال الشرق رغم سهولة المواصلات البلد الاسطوري القديم، حيث يستطيع المرء أن يتحدث عنه بما يريد بغير عقاب. يذهب سائح بضعة أسابيع إلى القسطنطينية أو سوريا أو مصر، أو تونس أو المغرب ويكتب كتابا سميكا عن الحياة والعادات والتقاليد في الشرق. إنه لا يستطيع نفسه أن يرى سوى أشياء قليلة ظاهرية ولن

يستطيع أن يلقي نظرة على الحياة العائلية الحقيقية أبدا. وهكذا يكتفي بتسجيل قصص تنتقل من فم إلى فم وتزداد تشويها من خلال ذلك، كما سمعها من نادل فرنسي أو ألماني في الفندق الذي ينزل فيه، من بحار أو حَمّار ثم يبني عليه رأيه! بهذه الطرق لا يمكن معرفة الكثير أيضا، فهو ببساطة يشحذ خياله ويكمل حسب هواه. فإذا كان كتابه مسليا وممتعا فإنه سينتشر أكثر من كتب محبة للحقيقة لا تقدم إلا القليل مما هو شهي، وهكذا يسود الحكم بين الجمهور الكبير.

لقد حدث معي الشيء ذاته، فقد حكمت على أوروبا وقتا طويلا من خلال المظاهر الخارجية. حين رأيت الوجوه المشرقة في المجتمعات هنا، اعتقدت أن العلاقة بين الرجل والمرأة في أوروبا منظمة بصورة أفضل وأن الزيجات لا بد أن تكون تبعا لذلك أكثر سعادة مما هي في الشرق المسلم. إلا أني عندما أصبحت أكثر تماسا بالعالم بعد أن كبر أطفالي و لم يعودوا بحاجة إلى رعايتي المستمرة، شعرت أكثر فأكثر أنني كنت قد حكمت على الناس والعلاقات حتى الآن حكما خطأ وأن الظاهر أعشى بصري كثيرا. لقد راقبت بعض العلاقات التي يسميها المرء زيجات، إلا أنها في الحقيقة لا تهدف إلا إلى تعريض الزوجين المقيدين إلى بعضهما لعذاب الجحيم وهما لا يزالان في هذا العالم. لقد رأيت زيجات تعيسة كثيرة تمنعني من الاعتقاد بأن الزواج المسيحي أفضل كثيرا حقا، وأنه يحقق السعادة للناس أكثر من الزواج الإسلامي. ليس الدين ولا الأعراف السائدة والرؤيا تجعل الزيجات سعيدة أو تعيسة مسبقا، حسب قناعتي. إن الأمر يتوقف على فهم

الزوجين لبعضهما فهما حقيقيا في كل مكان.

أريد إذن وقد تعلمت من هذه التجارب أن أبذل جهدي ألا أحكم وإنما أنوي أن أتحدث عن مكانة المرأة في الشرق، خاصا في إطار الزواج. لا أعرف الأوضاع إلا في زنجبار بدقة وتلك السائدة في عمان بنفس القدر تقريبا. وقد احتفظت الرؤى الإسلامية التي تستند إليها الشعوب الشرقية في بلاد العرب بالذات ولدى الشعب العربي بنقائها أكثر من أي مكان آخر، بصرف النظر طبعا عن الفساد والتشويه اللذين لحقا بها بسبب الاختلاط الكثيف مع الغرب المسيحي خاصة.

إنه لخطأ تماما أن يعتقد المرء أن المجتمع في الشرق أقل احتراما للمرأة من الرجل. فالزوجة (إذ لا بد من استثناء السراري اللائي يُشتَرين) مساوية للرجل من كل النواحي، إنها تحتفظ بمرتبتها وبالحقوق التي تنتج عن ذلك بصورة كاملة. ما يجعل المرأة العربية تبدو عاجزة وأقل حقوقا بشكل ما هو أنها تعيش منطوية على نفسها وحسب. وهذه العادة موجودة لدى جميع الشعوب المسلمة في الشرق (وكذلك لدى شعوب غير مسلمة كثيرة)، وكلما ارتفعت الطبقة التي تنتمي إليها المرأة صار عليها أن تلتزم بذلك بصرامة أكبر. لا يجوز أن تظهر إلا أمام أبيها، ولدها، عمها أو خالها وأبناء إخوتها وجميع عبيدها. فإذا كان عليها أن تظهر أمام رجل غريب وحتى أن تتحدث معه، فإن الدين يفرض عليها أن تتحجب.

يجب أن يكون جزء من وجهها مستورا، فضلا عن الذقن والرقبة

ورسغ القدم بصورة خاصة. فإذا ما التزمت بهذا فإنها تملك حرية الحركة في النهار أيضا وتستطيع السير في الشوارع دون تقييد. أما الفقيرات اللاتي لا يملكن عبيدا، فإنهن مضطرات بسبب هذا إلى الخروج كثيرا في النهار وهكذا فإنهن يتمتعن بحرية أكبر. فإذا سئلت إمرأة كهذه عما إذا كانت لا تشعر بالحرج فإنها تجيب: "مثل هذه القوانين للأغنياء فقط، و لم تسن من أجل النساء الفقيرات!" وأستطيع أن أقول أن النساء ذوات المقام الرفيع لا يندر أن يشعرن بالحسد من الفقيرات من أجل هذه الفائدة التي تتمتع بها بصورة خاصة العمانيات، حيث لا يمكنهن فقر البلاد من الاحتفاظ بعدد كبير من العبيد.

تستطيع المرأة الوجيهة كما قلت سابقا أن تخرج في النهار أيضا حين يمرض أو يموت أحد الناس القريبين إليها، فهي تستطيع أن تزوره في حجابها، وتستطيع أن تظهر أيضا أمام القاضي لتمثل مصالحها شخصيا، حيث لم يكن يعرف المرء المحامين. لكن العرف يفرض أن تستخدم هذا الحق في الحالات الضرورية فقط، ويؤثر الإعجاب بالنفس بنفس الاتجاه، حيث أن التحجب الموصى به يشوه النساء بصورة كبيرة فيبدون مثل مومياءات متجولة.

أعترف اليوم حقا أن المرء في الشرق يبالغ بهذا الشأن، إلا أنني لا أجد لذلك أن العادات الأوروبية أفضل. حين يرى المرء هنا إمرأة وجيهة في ملابس الحفلة فإنه يجوز له أن يعتبر قلة ملابسها، عن وجه

حق، مغالاة أكثر سوءا.

إلا أن المرأة الوحيدة في الشرق تبعث على الأسى. معزولة من خلال الدين والعادات عن عالم الرجال تماما تجد نفسها أحيانا في وضع مخجل. إذ لا يندر أن يستغلها موظفوها ومديرو أعمالها الذين لا تجوز لها رؤيتهم إذا كانوا عربا. أنا نفسي أعرف عدة سيدات تزوجن من أجل أن يحمين أنفسهن من الخداع وحسب.

وهكذا يمكن أن تكون عزلة النساء مزعجة حقا، وإن المرء ليبالغ في التمسك بالعادات. ومع ذلك لا يحتاج المرء أن يشفق على الشرقية بسبب ذلك كثيرا، كما يفعل المرء هنا. فهي لا تشعر أن هذا القسر شديد بوجه خاص.

يشفق المرء على المرأة الشرقية أكثر من ذلك بسبب تعدد الزوجات، وأن يكون عليها أن تشارك إمرأة أو نساء أخريات كثيرات في حب زوجها. يبيح القانون للمسلم أن يحتفظ بأربع زوجات شرعيات في نفس الوقت، ويستطيع أن يأتي بخامسة إذا ماتت إحداهن أو طلقت، أما السراري فيستطيع أن يشتري منهن ما يشاء ما دامت لديه الرغبة والمال. لكني لم أر أحدا يحتفظ بأربع نساء معا. يستطيع الفقير بالطبع أن يتخذ زوجة واحدة، ويكتفي الغني أيضا بواحدة، وفي أسوأ الأحوال باثنتين تسكنان في منزلين منفصلين عن بعضهما ويكون لكل منهما ميزانيتها.

من المفهوم أنه يوجد في الشرق أيضا نساء يعرفن كيف يحافظن على استقلالهن. وهن يتحرين ما إذا كان للخاطب زوجة ويشترطن

عليه في عقد الزواج ألا يتزوج إمرأة ثانية أو يشتري سرية.

يسود في الحياة العملية الزواج بواحدة غالبا. أما من أراد أن يستعمل حقه القانوني كاملا، فلا مفر بالطبع من قيام أوضاع غير مريحة بين النساء المختلفات. إنه لأمر طبيعي أن تولد الغيرة والحسد، فمع حرارة طبع الجنوبيات تنشأ الغيرة بسرعة. لا يمكن أن تملأنا الغيرة بسبب شيء أو شخص لا يهمنا، وإنما فقط إذا ما بدت ملكية ما نحب بكل جوارحنا ونريد أن ننفرد بحيازته، موضع سؤال. ألا يدل انفجار هذه العواطف على أن الشرقية قادرة على أن تحب بعمق أكبر كثيرا من الشمالية الباردة؟

يمكن أن يكون تعدد الزوجات بسبب الغيرة عذابا قاسيا، وهذا شيء جيد حقا، يدفع بعض الرجال الأغنياء والوجهاء إلى الخوف من تعريض أنفسهم لهذه المشاهد اليومية فيفضلون الزواج بواحدة. وتتقلص بذلك هذه العادة البغيضة. لا يمكن الدفاع عن تعدد الزوجات بأي حال من الأحوال أو ايجاد العذر له، ذلك ما يستطيع كل شخص منطقي وقبل كل شيء كل أمرأة أن تدركه. ولكن ثمة سؤال مقابل. كيف هو الحال لدى المسيحيين، لدى الأوروبيين المتحضرين فيما يتعلق بالزواج؟ أريد أن أصمت تماما عن أنه في دولة مسيحية، تناصر طائفة المورمونيين التي تسمي نفسها مسيحية تعدد الزوجات. ولكن في المجتمع المهذب في أوروبا هل يعامل الزواج كشيء مقدس؟ أليس الحديث عن زوجة "واحدة" مجرد وهم غالبا؟ لا

يجوز للمسيحي بالطبع أن يتزوج بأكثر من واحدة وهذه فضيلة كبيرة للمسيحية، يُدّعى أن القانون المسيحي يريد ما هو طيب وصحيح، بينما يسمح القانون الإسلامي بما هو سيء، ولكن العادة المتبعة والأوضاع القائمة تخفف في الشرق من حدة عواقب القانون بدرجة كبيرة – بينما تطغي الخطيئة هنا بكثرة حقا رغم القانون. يبدو لي أن الفرق الوحيد تقريبا بين وضع الشرقية ووضع الأوروبية أن الأولى تعرف عدد وأشخاص وطبائع منافساتها، بينما تبقى الأخرى في جهل عطوف.

والسراري لا يستطيع شراءهن إلا الرجل الميسور. وهن قبل ذلك إماء، وما أن ينجبن طفلا حتى يعتبرن منعتقات. وفي أحوال نادرة فقط ولدى الأشخاص القساة يمكن أن يحدث أن يبيع السيد السرية ثانية بعد موت طفلها بسبب العوز أو الضيق بها. فإذا مات الرجل فإن سراريه ينلن الحرية تماما، ليس لديهن سيد فوقهن. فإذا أراد أخ للسيد المتوفى أو أحد أقاربه أن يتزوج سرية فإنها تستطيع كإمرأة حرة أن تتزوجه زواجا شرعيا.

أما أن العربي لا يحترم زوجته كما هو الحال هنا، فتلك هي مجرد اسطورة. وهذا ما يكفله الدين، رغم أنه يمنح المرأة في بعض النقاط حقوقا أقل من الرجل، لكنه ينصح بحماية الرجل لها مثل طفل عاجز. يعرف المؤمن والمسلم الذي يخاف الله الإنسانية جيدا مثل أي أوروبي متعلم ومهذب، وربما كان الأول أكثر صرامة مع نفسه لأن الله تعالى الذي أصدر هذه الوصايا حاضر بالنسبة له في كل مكان،

وهو يؤمن إيمانا راسخا بالجزاء العادل عن أعماله الخيرة والشريرة حتى آخر حياته.

يوجد بالطبع إلى جانب الطباع النبيلة، كما هو الحال هنا أيضا، طغاة لا يعاملون نصفهم الآخر بما يستحقه من محبة واحترام. إلا أنني أستطيع أن أقول بضمير مرتاح أنني سمعت هنا عن الأزواج المهذبين الذين يضربون زوجاتهم أكثر مما كنت قد سمعته في وطني، فالعربي الطيب يعتبر هذا انتقاصا لشرفه هو. الأمر مختلف بالطبع لدى الزنوج، وقد حدث أكثر من مرة أن تدخلت بين زوجين لأفض نزاعهما.

ولا تخضع المرأة بأي حال من الأحوال لمزاج زوجها بالضرورة. فإذا لم يعجبها فإنها تجد لدى أقاربها حماية، ولها الحق حين يتركها زوجها أن ترفع دعوى عليه أمام القاضي.

كانت واحدة من صديقاتي قد تزوجت وهي في السادسة عشرة من العمر أحد أبناء عمومتها، وكان يكبرها كثيرا، و لم يكن جديرا بها من كل النواحي. وقد اعتقد أنه يستطيع أن يقدم كل شيء لزوجته، لكنه فوجيء حين عاد إلى البيت ذات مساء عندما وجد بدلا من زوجته رسالة عنيفة. كنت أزور صديقتي هذه دائما في مزرعتها دون أن أخبرها مسبقا، فقد كنت أعرف أن زوجها الطيب يفضل أن يستمتع بوقته في المدينة. بعد حين جاءت إلى ذات يوم وأخبرتني أنني لا أستطيع أن أزورها بعد الآن دون إبلاغها مسبقا، لأن زوجها صار

يبقى معها الآن. لقد تبعها نادما وطلب منها الصفح، بعد أن أدرك مبلغ حزم زوجته الصغيرة، لم يجرؤ أن يجرح مشاعرها ثانية. وثمة أمثلة كثيرة على استقلال المرأة الشرقية.

حين يلتقي الزوجان يقبل أحدهما يد الآخر. يتناولون الطعام مع أطفالهم. وتعبر المرأة عن حبها لزوجها بتقديم خدمات مختلفة له، فتناوله السلاح حين يخرج وتتناوله منه حين يعود، تقدم له الماء ليشرب. باختصار تقدم له كل الأعمال الصغيرة التي تجعل الحياة المشتركة مليئة بالمحبة والدفء. إنها خدمات طوعية تعبر عن المحبة، وهي ليست مستعبدة بأية صورة.

تشرف المرأة على شؤون البيت بأكملها. فهي في هذا المجال السيدة الوحيدة غير المقيدة. ولا يعرف المرء مصروف البيت الذي يقدمه الرجل هنا لزوجته، فكلاهما ينفقان من كيس واحد، وعلى الرجل المتزوج زواجا شرعيا من إمرأتين تعيشان في مسكنين مستقلين لكل منهما نفقاته، أن يقسم دخله.

إلى أي حد توسع المرأة مجال سيطرتها هذا فهو أمر مختلف حسب طبائع الزوجين. مرة عرضت علي واحدة من صديقاتي وهي امرأة شابة حين كنت قد دعوت ضيوفا كثيرين إلى واحدة من مزارعي وخشيت ألا تلبي الكثيرات الدعوة لأنها وصلت متأخرة، فبعض السيدات لا تستطيع أن توعز بإحضار مطيتها من الريف في وقت قصير، عرضت علي هذه الصديقة في الحال عددا كبيرا من الحمير العمانية إذا اقتضى الأمر بكامل تجهيزاتها وحتى بسائقيها. وقد قلت

لها أن عليها أن تتحدث مع زوجها أولا عما إذا كان موافقا على هذا العرض الكبير، فأجابتني باختصار، إنها لم تعتد أن تطلب من زوجها أذنا من أجل أشياء صغيرة كهذه.

وكانت سيدة أخرى من معارفي في زنجبار تشرف على جميع الشؤون الاقتصادية والثروة أكثر من هذا بكثير. كانت تدير وحدها المزارع الكبيرة التي يملكها زوجها وبيوته في المدينة. لم يكن الرجل حتى ليعرف كم كان مدخوله، و لم يبد أنه كان يضايقه أن يأخذ منها النقود التي يحتاجها. وكان قد أصبح من الأغنياء نتيجة لتبصرها ومهارتها.

أما تربية الأطفال فهي من مسؤولية المرأة، سواء كانت زوجة شرعية أم أمة مشتراة. وهي ترى في هذا سعادتها الكبرى. بينما هي عادة مهذبة في إنكلترة أن تلقي أم نظرة خاطفة على غرفة أطفالها خلال أربع وعشرين ساعة، ويبدو هذا كافيا، وترسل الفرنسية طفلها إلى الريف موكلة تربيته إلى ناس غرباء تماما، تهتم العربية بأطفالها اهتماما مستفيضا، تحافظ عليهم وترعاهم بعناية كبيرة ولا تكاد تتركهم بعيدين عنها ما داموا بحاجة إلى حمايتها. وهي تحصد لقاء تضحيتها برا مخلصا وحبا عميقا. علاقتها بأولادها تعوضها بسخاء عن الغبن الذي يلحقها بسبب تعدد الزوجات وتجعل حياتها العائلية حياة سعيدة راضية.

لا بد أن يكون المرء قد رأى الدعة والبهجة لدى النساء في الشرق ليقتنع بخلو الحكايات عن اضطهادها والحط من قيمتها وعن حياتها

الخالية من الهم وانشغال الذهن غير اللائقة بالبشر، من الصحة. ولكن المرء لا يستطيع أن يلقي نظرة أعمق في جوهر هذه الأوضاع من خلال زيارة قصيرة آنية. كما أن المحادثة لا تكون ممكنة، حتى لو أن هذا أو ذاك ترجم بصورة صحيحة، فإن المرء لا يتجاوز العبارات التقليدية المعتادة.

لا يحب العربي رغم كل مجاملته أن يطلع غريب على شؤونه الشخصية، وخاصة عندما ينتمي هذا إلى أمة أخرى أو دين آخر. كانت إذا ما جاءت أوروبية إلينا تواجه بالدهشة من قبل الجميع في البداية، بسبب حجم ثوبها العملاق، فقد شاع ارتداء الكرينولين الذي يغطي السلم بأكمله يومذاك. وكان الحديث المقتضب جدا الذي يتبادله الطرفان نادرا ما يتناول شيئا آخر غير أسرار الأزياء المختلفة. وبعد أن تكون السيدة المعنية قد ضيفت على الطريقة المعتادة، ورش عليها الخصيان زيت الورد، وحصلت على هدايا التوديع، فإنها كانت تنسحب دون أن تكون قد عرفت أكثر مما كانت تعرفه عند مجيئها. لقد دخلت بيت الحريم ورأت النساء الشرقيات اللائي يثرن الشفقة محجبات فقط، وشعرت بالدهشة من زينا، من حلينا ومن مرونة حركتنا لدى الجلوس على الأرض، ولكن هذا هو كل شيء. إنها لا تستطيع أن تدعي أنها رأت أكثر مما رأته الأوروبيات الأخريات اللائي جئن إلينا قبلها. لقد رافقها الخصيان إلينا، خدموها، ثم رافقوها لدى المغادرة، تبقى على الدوام مراقبة. نادرا ما يريها المرء أكثر من الغرفة التي ينوي استقبالها فيها. وكثيرا ما يتعذر

عليها معرفة من تكون المرأة المحجبة التي تحدثت إليها. باختصار لم تعط لها فرصة بأي طريقة لتلقي نظرة تنفذ إلى الحياة العائلية الشرقية ومكانة المرأة.

ثمة نقطة أخرى، جوهرية للفهم الصحيح للزواج الشرقي. لا يغير زواج الفتاة اسمها ومرتبتها. فلن يخطر لزوجة أمير تنحدر من عائلة بسيطة أن تطلب حمل لقب زوجها، فهي تبقى رغم زواجها بنت فلان، وتخاطب بهذا الاسم. وبالعكس فإذا ما سمح أمير أو رئيس قبيلة في بلاد العرب بزواج ابنته أو أخته من عبد، فهو يقول في نفسه: خادمي يبقى خادمها أيضا، فهي سيدته كما كانت في السابق. إنه يكف بزواجه أن يكون عبدا حقيقيا، لكنه يخاطب زوجته بالطبع بـ "صاحبة السمو" أو "سيدتي" دائما.

وإذا ذكر رجل زوجته في حديث له مع رجل آخر، وهو ما يفضل تجنبه على أي حال، فإنه لا يقول أبدا "زوجتي" وإنما يسميها "بنت فلان" أو يستخدم تعبير "أم العيال"، سواء كانت قد أنجبت أطفالا أم لا.

ومن المفهوم أن الزوجين اللذين لم يعرفا بعضهما مسبقا يجدان صعوبة في التفاهم، فتنشأ أوضاع معقدة ومخجلة لأسباب أخرى كما حدث معي أبي وشيزاده ومع ماجد وعائشة. في مثل هذه الحالات تقدم الشريعة الإسلامية فائدة لا يمكن إنكارها، إذ تسهل الطلاق تسهيلا كبيرا. فإنه من الأفضل أن ينفصل زوجان مختلفان في الرؤيا والطبائع إختلافا كبيرا، على أن يبقيا مقيدين إلى بعضهما إلى الأبد

ويعاني كلاهما من العذاب الذي كثيرا ما يدفع إلى الجرائم البشعة.
تأخذ المرأة عند الطلاق كامل ثروتها التي كانت بالمناسبة حرة في التصرف بها في فترة زواجها أيضا، وإذا ما طلب الرجل الطلاق أمام القضاء فإنها تحصل أيضا على المهر الذي أعطي لها لدى الزواج، أما إذا كانت هي الراغبة في الطلاق فيكون عليها أن تعيد المهر إلى زوجها.

أعتقد أن كل ما ذكرت يظهر بقدر كاف أن المرأة في الشرق ليست مستعبدة ومضطهدة، ومحرومة من الحقوق كما يعتقد المرء هنا. أما مقدار السلطة والنفوذ اللذين تستطيع بعض النساء كسبهما فقد أظهره نموذج زوجة أبي عزة بنت سيف. كانت تسيطر على أبي تماما، وكثيرا ما كانت أحوال البلاط والدولة متوقفة على مزاجها وحسب. وقد أخفقت كل محاولاتنا، نحن أبناء زوجها المنقسمين في الأمور الأخرى والمتفقين في هذه النقطة تماما، في إضعاف تأثيرها. وإذا ما أراد أحدنا أن يحصل من أبي على شيء مباشرة فإنه ينبه بانتظام إلى الإلتزام بتسلسل المراجع ويطلب منه أن يطرح طلبه على بيبي عزة أولا، وهو حق كانت تطالب به إلى حد ما. لقد عرفت كيف تحافظ على سلطتها على أبي من كل النواحي حتى موته.

وهذا مثال آخر، جاءت إبنة أحد قادة حصننا من عمان مع زوجها إلى زنجبار، كانت أوضاعهما المالية متوسطة، ولم يكن لهما أطفال كما قالت لي الزوجة "لحسن حظهما". كانت ذكية وذات طبع مرح (ولا يمكن للمرء أن يكون موفور الحظ بالخصلة الثانية كما هو

عندنا)، لكنها كانت قبيحة كالليل. ورغم ذلك كان زوجها مدلها بها، فكان يتحمل رغباتها الكثيرة بصبر الملائكة حقا. كان عليه حين تريد الخروج أن يرافقها مثل عبد إلى حيث تريد، ويعود بها سواء رغب في ذلك أم لم يرغب. لم يكن حرا في التصرف بأوقاته، وكان عليه منذ الصباح الباكر بعد أن يكون قد أنهى صلاته، أن ينتظر قرار سيدته عائشة فيما إذا كانت ستبقى معه أم أنها تتفضل عليه بإطلاق سراحه طول النهار. كان عبدها تماما.

أريد أن أذكر أيضا شخصية من عائلتنا تُكذب قبل كل شيء تلك الحكايات عن نقص المرأة الشرقية. اعتبرت عمة أبي حتى يومنا هذا نموذجا لدينا، فقد كانت ذكية، شجاعة وقوية العزيمة، تروى حياتها وأعمالها المرة بعد الأخرى فيصغي الصغار والكبار إليها بكل انتباه.

حين توفي جدي سلطان إمام مسقط ترك ثلاثة أطفال، أبي سعيد وعمي سالم وعمتي عائشة. كان عمر أبي تسع سنوات، لذلك كان نصب وصي عليه ضروريا. وقد أعلنت هذه العمة خلافا للأعراف أنها ستتولى الحكم حتى يبلغ ابن أخيها سن الرشد، ورفضت أي اعتراض. وكان على الوزراء الذين لم يكونوا قد فكروا في مثل هذا القرار، بل أنهم فرحوا سرا لأنهم سيستطيعون أن يحكموا البلاد بأنفسهم بضع سنوات، أن يرضخوا. كانت الوصية تستدعيهم كل يوم لتتلقى تقاريرهم وتبلغهم بالأوامر والتعليمات. كانت تراقب كل شيء وتعرف كل ما يدور، فلم يخفَ عليها بنظرتها الحادة شيء، وهو ما كان يزعج المتقاعسين والكسالى.

لقد تخلت عن الشكليات وظهرت أمام وزرائها محجبة بالشيلة فقط، أي بالملابس التي ترتديها المرأة لدى خروجها. و لم تبالِ بما كان يعيبه العالم وإنما سلكت طريقها بثبات ومهارة ونشاط.

وكان عليها بعد وقت قصير أن تمر بتجربة صعبة، لم يكن قد مضى عليها في الحكم وقت طويل حتى اندلعت في عمان حرب خطيرة، كما يحدث كثيرا. لقد ظن أقارب لنا أنهم يستطيعون أن يسقطوا حكم المرأة وبالتالي حكم عائلتنا بسهولة ويستلموا هم أنفسهم الحكم. انطلقت مجموعاتهم تعيث في البلاد نهبا وتقتيلا وبلغت أخيرا مشارف العاصمة مسقط. كانت آلاف كثيرة من المواطنين قد هربت من الريف تاركة أموالها، بحثا عن الحماية والمؤازرة في مسقط التي كانت محصنة جيدا وقادرة على الصمود في وجه الحصار. ولكن ما فائدة أقوى الأسوار إذا نفد الزاد والعتاد؟

لقد أثبتت عمة أبي في هذه الفترة الصعبة قدرتها وحصلت على اعتراف وإعجاب الأعداء. كانت تركب فرسها مرتدية ملابس الرجال وتطوف وحيدة ليلا لتتفقد خطوط مواقع الحراسة، وكانت تقوم بالإشراف على جنودها في جميع المواقع الخطرة ونجت أحيانا بفضل سرعة فرسها وحسب من هجوم مفاجئ. خرجت ذات مساء مهمومة لأنها علمت أن العدو يحاول أن يدخل بالرشوة الحصن ليلا ليقتل الجميع. فأرادت أن تختبر ولاء جنودها. توجهت على فرسها بحذر شديد إلى موقع للحراسة وطلبت أن تتحدث مع العقيد، وقدمت له باسم المحاصرين عروضا مغرية. وقد طمأنها انفجار

الضابط الشجاع غاضبا، على ولاء جنودها، إلا أنها عرضت بذلك حياتها للخطر. فقد أريد ضرب الجاسوس في الحال، وكان عليها أن تستخدم مهارتها الكبيرة كي لا تقتل من قبل جنودها.

أصبحت الحالة في مسقط أكثر صعوبة. عمت المجاعة وامتلأت القلوب يأسا. لم يعد المرء ينتظر مساندة من الخارج، وليسقط بشرف على الأقل، تقرر القيام بهجوم أخير يائس. كان البارود يكفي بالكاد لمعركة. بينما كان الرصاص القاتل للبنادق والمدافع قد نفد تماما. هنا أمرت الوصية أن يجمع كل ما يمكن جمعه من المسامير للبنادق، والبحث حتى عن الحصى المناسبة لاستخدامها بدل الرصاص. كسر كل ما وجد من حديد ونحاس أصفر وعبئت به المدافع. فتحت الحاكمة أبواب خزائنها وحولت ريالات ماريا تيريزا إلى رصاص. حشد المرء كل شيء، فإذا بالمساعي اليائسة تجزى. فوجئ العدو فتفرق في جميع الاتجاهات تاركا أكثر من نصف أفراده ميتا أو جريحا. وأنقذت مسقط. وإذ تحررت من همها ركعت المرأة الشجاعة وشكرت ربها بصلوات مخلصة على مساندته الرحيمة.

كانت فترة حكمها منذ ذلك الوقت هادئة، وقد استطاعت أن تسلم ابن أخيها، أبي، المملكة وهي في حالة من النظام، حتى أنه استطاع أن يوجه نظره إلى أهداف أخرى أبعد وخاصة فتح زنجبار. ونحن مدينون بالفضل في أن تكون لنا هذه المملكة الثانية لعمة أبي.

لقد كانت إمرأة شرقية أيضا!

الزواج عند العرب

يقرر الآباء أو رؤساء العائلة بوجه عام زواج الأولاد في بلاد العرب. هذا ليس غريبا وهو يحدث في أوربا أيضا حيث تسود الحرية الكاملة في اختلاط الرجل بالمرأة. فكم سمع المرء عن أب غرق في الديون و لم ير أمامه مخرجا فأعطى إبنته الجميلة أو الحسيبة كضحية للدائن، أو كيف تدفع أم محبة للحياة إبنتها إلى زواج تعيس لمجرد أنها تريد التخلص منها بأي ثمن.

لا يقل عدد الآباء الطغاة الذين لا يكترثون عند تزويج بناتهم بسعادتهن ويصمون أذانهم عن صوت الضمير المحذر عند العرب. ولكن حين يختار الأبوان لبناتهما بوجه عام، فلا ينطوي ذلك على إساءة استخدام سلطتهما، حيث أن عزلة النساء ترغمهن على قبول هذه المساعدة. فالنساء يعشن منفصلات على أي حال ولا يجوز لهن الاختلاط إلا بأقرب أقاربهن. ولا أحد يستطيع أن يجادل في أن لقاءات مع عالم الرجال تجري بين حين وآخر ويبقى الاتصال مستمرا بعد ذلك. ولكن بوجه عام تنطبق القاعدة بأن الفتاة لا ترى زوجها المقبل، عدا من الشباك ربما، ناهيك عن التحدث معه قبل ليلة

الزفاف. ومع ذلك لا يبقى غريبا عليها تماما. حيث تتسابق أمه وأخواته وعماته على إعطائها وصفا يحدد ملامحه ما أمكن وإخبارها بما يمكن أن يهمها.

كثيرا ما يعرف الزوجان بعضهما من أيام الصبا. فحتى سن التاسعة يجوز للبنات الإختلاط مع الصبيان في مثل سنهن دون حرج ويتعرفون على بعضهم بهذه الطريقة. ثم يأتي رفيق اللعب بعد سنوات إلى أب رفيقته السابقة في اللعب، ليطلب يدها بعد أن تكون أمه أو أخته قد استطلعت رأي الفتاة.

وأول سؤال يوجهه الأب الحذر للخاطب: "ولكن أين رأيت ابنتي؟" فيكون الجواب: "لم يتهيأ لي أبدا أن ألقي نظرة على المحشومة ابنتك، غير أني سمعت الكثير عن عفتها وجمالها من أهلي."

وحين لا تتوفر لدى الخاطب المواصفات التي يشترطها الأب فقط يحصل على جواب بالرفض في الحال. وفي العادة يطلب الأب مهلة للتفكير في الموضوع. وفي البيت يتصرف الأب بهدوء كما لو كان لا يعرف شيئا، ويراقب بانتباه الأحاديث بين زوجته وابنته. ثم يعلن في فرصة مناسبة متظاهرا بعدم الاكتراث بأنه ينوي أن يدعو في الأيام القادمة مجموعة صغيرة من الرجال، وحين تستطلع زوجته أو إبنته عن الذين ينوي دعوتهم يعد باسترخاء أصدقاءه. فإذا لاحظ أنهما شعرتا بالفرح عند ذكر اسم الخاطب، فإنه يكون مقتنعا بأن نساء العائلتين متفقات تماما. عند ذاك يفاتح ابنته أخيرا بأن فلان بن فلان قد طلب يدها ويسألها عن رأيها. ويقرر جوابها الايجاب أو النفي دائما

تقريبا، ولا يتخذ القرار دون أن ينتظر موافقة أو رفض ابنته إلا أب طاغية وعديم المشاعر.

وفي مثل هذه المسائل أيضا كان لأبي الإحساس الصحيح وترك مصير بناته في أيديهن. كانت أختي الكبرى زوينة قد بلغت الثانية عشرة من العمر حين تقدم سعود، أحد أبناء العمومة البعيدين، لخطبتها. كان أبي متضايقا من هذه الخطبة بسبب صغر سنها، ولكنه لم يشأ أن يرفض دون أن يعلمها بذلك. كانت زوينة قد فقدت أمها التي لا تعوض في مثل هذه السن الحرجة. في عجلة وهي لا تزال طفلة وجدت فكرة أن تكون زوجة، مسلية إلى حد جعلها تصر على عدم رفض سعود وقد عمل أبي برأيها.

ولكن يوجد أيضا ما يكفي من الحالات التي يوعد بها الأطفال في سن مبكرة أو يزوجون. وهكذا فقد اتفق إثنان من الإخوة على تزويج أبنائهم وبناتهم من بعضهم. وقد شاءت الصدفة أن ينجب كل منهما طفلا واحدا، أحدهما صبي والآخر بنت. ما كاد الصبي يبلغ السادسة أو السابعة عشرة بينما كان عمر الفتاة سبع أو ثماني سنوات، حتى بدأ المرء يتحدث عن الزواج. كثيرا ما شكت لي أم الصبي وهي جارة لي في المزرعة، وقد كانت إمرأة ذكية ومتبصرة جدا، صرامة زوجها وحميها اللذين أرادا أن يأتياها بدلا من كنة بطفلة عليها أن ترعاها وتربيها أولا. ولم تكن أم الفتاة أقل يأسا لأن المرء يريد انتزاع طفلتها منها في سن مبكرة. وقد نجحت المساعي الموحدة للمرأتين في تأجيل الزواج سنتين وحسب. تركت زنجبار

بعد وقت قصير من ذلك ولا أدري كيف انتهى الأمر.

تعلن الخطبة على جميع الأصدقاء والمعارف في طقوس خاصة. حيث تطوف إماء متأنقات يصل عددهن إلى العشرين غالبا، من بيت إلى بيت ليعلن الخطبة ويحملن الدعوة إلى حفلة الزفاف فيحصلن على هدايا سخية.

تعم في بيت أهل العروس حركة نشيطة نشاطا استثنائيا، إذ يتم الزواج غالبا بعد أربعة أسابيع. وعلى أي حال فإن فترة الخطبة لا تدوم طويلا، ولا يحتاج المرء في الجنوب المبارك أن يفعل الكثير من أجل ذلك. فلن يخطر للشرقي حتى في الحلم شيء من حاجات الشمالي الضرورية التي لا بد منها، ولو رأت العروس العربية جهاز الأوروبية لأنعقد لسانها. لماذا يحب المرء هنا أن يثقل نفسه بأثقال كثيرة؟

تأخذ العروس العربية أشياء قليلة نسبيا معها، حيث يتألف جهازها حسب مكانتها وثروتها، من ثياب ثمينة، حلي، عبيد وإماء، بيوت، مزارع ونقود. لا يقدم أبواها وحدهما لها الهدايا، وإنما العريس وأبواه أيضا. يبقى هذه كله ملكها الخاص، فإذا مات أبواها لن يدخل الجهاز في الحساب لدى تقسيم التركة.

تستغرق خياطة الثياب وقتا طويلا، إذ يكون على السيدة الوجيهة أن تستبدل ثيابها في الاسبوع الأول بعد الزفاف مرتين أو ثلاثا في اليوم. وثوب الزفاف الخاص، كما هو الحال هنا بشأن الثوب الأبيض والحجاب الأبيض، غير معتاد في الشرق. على العروس أن ترتدي

فقط ثيابا جديدة من الرأس حتى القدم، ولون الثياب متروك لذوقها تماما. هنا تتألق واحدة بكل ألوان القوس قزح ومع ذلك لا يمكن أن يقال عن بدلتها أنها عديمة الذوق أو قبيحة.

تعد إلى جانب ذلك عطور خاصة تلعب دورا كبيرا في حفل الزفاف. فـ "الريحة" وهي خليط ثمين من خشب الصندل المطحون والمسك والزعفران والكثير من زيت الورد، تستخدم لدهن الشعر، وبخور ذو رائحة لطيفة يصنع من خشب "العود" (الند)، وأفضل أنواع العنبر والكثير من المسك. فالشرقية لا تشبع من العطور من كل الأنواع.

إلى جانب ذلك يأتي إعداد الكعك من مختلف الأنواع، وإعداد حيوانات الذبح، باختصار لدى المرء الكثير ليعمله.

أما العروس فعليها أن تخضع لعادات مختلفة مزعجة، إذ يتعين عليها في الأيام الثمانية الأخيرة أن تبقى في غرفة مظلمة وتتجنب الزينة وارتداء الملابس الأنيقة. حيث يعتقد المرء أنها ستبدو بعد ذلك في يوم الزفاف أجمل وألطف.

إنها مبتلاة في هذه الفترة، حيث تتبع زيارة الأخرى. فتزورها جميع من تعرف من النساء المسنات، مرضعاتها اللائي ربما لم تكن قد رأتهن منذ سنوات، ويمد جميعهن يده طالبا، يذكرها رئيس الخصيان الذي قص شعر رأسها أول مرة بفخر بتلك الخدمة الشرفية ويطلب رضاها ويحصل للذكرى على شال ثمين وخاتم لخنصر اليد اليسرى، ساعة جيب أو بعض الليرات.

لا يخضع العريس للحبس في غرفة مظلمة، وإلا لكان عليه أن يعاني أيضا. يأتي لزيارته جميع الأشخاص الذين خدموه أو خدموا عروسه ذات يوم ثم يزورونها ويحصلون على هذا النحو على هدايا مضاعفة.

يبقى العريس في الأيام الثلاثة الأخيرة في البيت لا يغادره ولا يستقبل إلا أقرب أصدقائه . وتصبح الاتصالات بين العائلتين أكثر حيوية.

ولا ينتهي نقل التحيات وإرسال الهدايا بين العروسين.

وأخيرا يأتي اليوم الكبير. يجري عقد القران غالبا مساء في بيت العروس، وليس في المسجد. يقوم به قاض وعند عدم وجوده رجل معروف بورعه بوجه عام. وقد يبدو غريبا للأوروبي أن العروس نفسها، وهي الشخص الرئيس في الواقع، لا تكون حاضرة في هذا العمل الاحتفالي، إذ ينوب عنها أبوها أو أخوها أو شخص آخر من أقربائها الرجال.

ولا تظهر أمام القاضي إلا إذا لم يكن لديها قريب، من أجل أن ترتبط عبر الكلمات الطقسية بعريسها. تدخل في هذه الحالة، وهي محجبة بحيث لا يمكن التعرف عليها، وحدها الغرفة الخالية التي سيدخل إليها بعد ذلك القاضي والعريس والشهود. بعد الإنتهاء من عقد القران الذي لا يكاد يسمع صوت العروس فيه، يخرج الرجال أولا قبل أن تنهض العروس وتعود إلى غرفتها.

تعقب عقد القران حفلة عشاء لجميع الرجال الحاضرين بما فيهم

العريس، حيث يجري حرق البخور والتعطير بزيت الورد بكثرة.

لا يعقب الزفاف عقد القران مباشرة دائما، بل غالبا في اليوم الثالث بعده. ينشغل عدد لا يحصى من الأيدي بتزيين العروس وجعلها أجمل ما تكون. ثم تقودها نساء عائلتها في التاسعة أو العاشرة مساء إلى بيتها الجديد. فيظهر العريس في الحال، يتبعه رجال عائلته. وبين التمنيات بالسعادة والبركة يودع العروسان أمام غرفتهما الخاصة، ويمضي الجمع إلى غرف الاستقبال في الطابق الأرضي للبدء باحتفال الزفاف الذي يستمر عدة أيام .

بعد أن يدخل العريس غرفة عروسه تجري بعض المشاهد الشكلية. فحين تكون العروس أعلى مرتبة من زوجها فإنها تبقى جالسة لدى دخوله وتنتظر أن يكلمها. ولا يجوز لها أن تتكلم معه قبل هذه المغازلة الإحتفالية. إلا أنها تبقى محتفظة بحجابها الذي يغطي وجهها، ويكون على الزوج الشاب أن يضع هدية حسب إمكاناته تحت قدميها لقاء رفع حجابها وليعبر لها عن حبه واحترامه. وتكفي بعض القروش بالنسبة للفقراء أما الأغنياء فيعطون مبالغ كبيرة.

وفي هذا المساء كما ذكرت، تبدأ الضيافة العامة في بيت الزوج الشاب وتستمر ثلاثة أيام أو أسبوعا أو أسبوعين. حيث يرحب بالأصدقاء والمعارف والغرباء ويقدم الطعام بوفرة، لا يقدم النبيذ والبيرة بالطبع، وتمنع الطائفة الأباضية التي ننتمي إليها التدخين أيضا. وهذا لا يقلل من بهجة وسرور الناس. يأكل الضيوف ويشربون حليب اللوز وعصير الليمون، يغنون ويؤدون رقصات الحرب

ويصغون إلى المنشدين. يحرق الخصيان العود ويرشون الضيوف بماء الورد المنعش اللذيذ الذي يتبخر بسرعة للأسف.

تبقى النساء معا حتى قرابة منتصف الليل، بينما يقضي الرجال غالبا الليلة بطولها في بيت الاحتفال، حتى ينبههم الفجر بواجبهم، بالصلاة.

لا يعرف المرء في الشرق طبعا رحلات شهر العسل. يبقى العروسان في بيتهما في الأيام السبعة أو الأربعة عشر الأولى وحدهما ولا يظهران أمام الآخرين.وبعد مضي هذه المدة تستقبل الزوجة الشابة الزيارات فتمتلئ غرفتها بالصديقات اللائي يأتين لتهنئتها كل يوم من السابعة حتى الثانية عشرة .

زيارات النساء العربيات

لقد ذكرت تكرارا شيئا عن كثرة الزيارات التي كنا نقوم بها لصديقاتنا ومعارفنا وعن استقبالنا لهن. ولعل مما يهم القارئ أن يعرف المزيد عن مثل هذه الزيارات بين النساء العربيات، عن الشكليات التي تسود فيها وعن المحادثات.

إذا أردنا أن نزور أحداهن فإننا نرسل إليها في نفس اليوم عادة إماء في ملابس أنيقة لإبلاغها، ونادرا ما كنا نتجرأ على القيام بزيارة دون إبلاغ مسبق. نذهب في جميع الزيارات داخل المدينة ماشيات، ولا نذهب راكبات إلا في الريف. وهناك أيضا تتزين النساء بشكل خاص في مناسبات كهذه، ليس فقط إكراما للصديقة التي يذهبن إليها وإنما أيضا ليعرضن ملابسهن وحليهن ويتفوقن على الآخريات. كما هو الحال هنا!

لا يجوز للعربية أن تظهر وجهها، حيث يغطيه قناع في البيت غالبا ولدى الخروج دائما. ولكن لا ينبغي أن يفكر المرء في قناع المصرية القبيح والذي يعيق التنفس، كانت أقنعتنا أنيقة جدا، مصنوعة من الأطلس الأسود وذات حاشية رائعة مشغولة من الحرير الملون

وموشاة بخيوط الذهب والفضة. وهي تتكون من قطعتين رئيستين مربوطتين برباط رفيع، تغطي الأولى الجبين وتغطي الثانية الأنف وجزءا من الوجنتين. فتبقى العينان وأرنبة الأنف والفم والرقبة ونصف الوجنتين مكشوفة تماما. يثبت القناع بسلسلة بطول المرفق تلف عدة مرات حول الرأس وتمسك بغطاء الرأس في نفس الوقت.

ويشعر المرء بثقل الأيام الممطرة، رغم أنها نادرة، لأن المرء لا يجد ما يفعله غير أن يهتم بالبيت ويبقى داخل جدرانه الأربعة. فالمظلة، هذه المرافقة التي لا يستغنى عنها في الشمال، لا يملكها الكل في الشرق، وليس سهلا أيضا استعارة واحدة من أجل الخروج. تحمل الطبقة الوسطى وبين حين وآخر الزنوج مظلات هائلة الحجم مستوردة من الهند، ذات قماش أصفر أو أخضر ونادرا جدا أسود.

ولا أحتاج إلى أن أذكر مرة أخرى أن السيدات المسلمات لا يخرجن إلى الشوارع العامة في العادة في وضح النهار، وإنما في الصباح الباكر فقط وفي المساء بعد غروب الشمس. لم تكن الشوارع في أيامي مضاءة في زنجبار، وكان علينا أن نوفر الضوء بأنفسنا، لنشق طريقنا في الشوارع الضيقة غير الممهدة والتي تنقصها النظافة. وقد كانت الفوانيس مظهرا للبذخ، قطر كبيرها يصل من متر إلى مترين، وكان أجملها على شكل كنيسة روسية، يتكون من قبة كبيرة في الوسط تحيطها أربع قباب صغيرة. حيث تشعل شمعة في كل قبة فتلقي بضوئها من خلال زجاجة بيضاء أو حمراء أو خضراء أو صفراء أو داكنة الزرقة على الشارع. وكان عدد الفوانيس التي تتقدم السيدة

الوجيهة يتراوح بين اثنين وستة فوانيس حسب مكانتها وثروتها، لا يستطيع حملها إلا عبيد أقوياء مختارون. أما المواطنون من الطبقة الوسطى فكانوا يكتفون بفانوس واحد. ويتألف موكب السيدة المعتبرة عدا ذلك من رهط كامل من العبيد المسلحين، الذين يملكون مظهر المقاتلين أكثر مما هم في الواقع. وقد كان هؤلاء يكلفون دائما مبالغ كبيرة. فالأسلحة فيما عدا البندقية والمسدس مرصعة بالذهب والفضة وغالية الثمن. لكن هذا لم يكن يمنع هؤلاء الأوغاد أن يرهنوها لدى المرابين (فهؤلاء ناس نزيهون من الهندوس أو البانيانيين عادة) ليبتاعوا خبزا بالزبدة أو من أجل شيء صغير، لأن هؤلاء الصبية المتهورين يريدون أن يطفئوا عطشهم بالبومبا (نبيذ النخيل). فلا يبقى أمام السيدة إلا أن تستعيد الأسلحة بعشرة أضعاف ثمنها أو أن تشتري للغول سلاحا جديدا وتنزل به في نفس الوقت عقوبة الضرب المبرح التي استحقها. إلا أن هذه الطريقة في التخويف لم تساعد كثيرا، وكان الاحتفاظ بسلاح العبيد الثمين يكلف أكثر من اقتنائه أول مرة.

كان يسبق موكب السيدة الوجيهة عشرة إلى إثني عشر عبدا يحملون الفوانيس مثنى مثنى أو ينتظمون في صفوف. تمشي خلفهم السيدة نفسها، وفي بعض الأحوال مع مرافقة عربية، وفي آخر الموكب يمشي رهط من الإماء المتأنقات.

وإذا صادف المرء في الشارع أحد المارة سواء كان ذا مكانة رفيعة أم متدنية، فإنه يبعد من قبل العبيد عن الطريق، ويكون عليه أن يمضي

في شارع فرعي أو يدخل بابا مفتوحا أو دكانا حتى يمر الموكب. ولكن هذا لا يطبق بصرامة إلا مع أفراد عائلة الحاكم، أما السيدات الوجيهات الأخريات فلا ينجحن دائما في استخدام نفس الحق، و لم يكن المارة الخشنون خاصة يبتعدون برضا عن الطريق.

كان لموكب الماشيات المرتديات أثوابا ثمينة وانعكاسات الفوانيس الملونة في الشوارع الضيقة المظلمة تخلق منظرا ساحرا. ورغم أن العادات الحميدة في الجنوب أيضا تتطلب أن يمضي المرء في الشوارع هادئا دون ضوضاء، فكثيرا ما تغلب الطبيعة الحيوية فيمضي المرء متحدثا بصوت عال ومتندرا بحيث يجتذب الفضوليين والمتنصتين إلى الأبواب والنوافذ أو إلى السطوح المنبسطة المنخفضة.

وقد كان يحدث كثيرا أن ألتقي واحدة من أخواتي أو صديقة لي تنويان زيارتي. عندها كنا نذهب معا فيتضخم الموكب ويصبح حجمه ضعفي أو ثلاثة أضعاف ما كان.

وأخيرا نكون قد وصلنا هدفنا فنبلغ عن وصولنا كما تقتضي العادة، ولكن لم يكن ثمة انتظار في الممرات المظلمة أو في غرفة الاستقبال حتى تنتهي سيدة البيت من إكمال زينتها: كنا نتبع خطى الشخص الذي يقوم بالإبلاغ عن وصولنا. تستقبل الزائرات في الغرفة أو في الليالي المقمرة على السطح النظيف الممهد المحاط بالدرابزين.

تجلس المضيفة على "المدة" وهي حشية سمكها حوالي عشرة

سنتمترات، تكون مصنوعة عادة من قماش مذهب ناعم، مسندة ظهرها على التكية، وهي ما يشبه الوسادة، التي تستند إلى الجدار.

التقدم لاستقبال الضيوف كما تتطلب المودة هنا أو المجاملة الكاذبة أيضا غير معتاد لدينا، حيث يعبر المرء عن مودته الشخصية لهم أو احترامه لمكانتهم الرفيعة من خلال الوقوف.

وبشكل عام فإن العربية شديدة التحفظ إزاء الغرباء سواء كانوا ذوي مرتبة عالية أو واطئة. والأمر مختلف بالنسبة للمعارف القريبين. فما أن يكسب المرء صديقة حتى تتلاشى فوارق الولادة والمكانة. صحيح أن المرأة من الجنوب تصاب بالغيرة أكثر من غيرها، إلا أنها تحب بطريقة تختلف أيضا عن المرأة في الشمال البارد. إنها هناك تترك السلطة المطلقة لقلبها، أما هنا فتترك السيادة للعقل البارد المتحسب وربما وجب عليها ذلك بسبب صعوبة الحياة. لقد شهدت أكثر من مرة في وطني صديقة تشعر بالتعاسة وتمرض لأنها تشعر أنها خذلت رغم صداقتها النقية المخلصة!

بعد أن تكون الضيفات قد قبلن يد أو رأس أو حاشية شال المضيفة (النساء المتساويات في المكانة يتصافحن فقط)، يجلسن حسب مكانتهن. ولا يجوز لإمرأة أن تجلس دون دعوة على المدة وتستمتع بالراحة على التكية إلا إذا كانت ندا للمضيفة، بينما تجلس النساء الأقل مكانة على بعد معين.

تحتفظ الضيفة بالقناع، وبشكل عام لا تخلع شيئا، فتحتفظ بالشيلة الرقيقة الخفيفة. النعال وحده ينزع. فبدلا من القبقاب الخشبي الذي

نلبسه في البيت عادة نلبس لدى الخروج "كوشا" جلديا مطرزا، نوعا من الشبشب، ولكن ذي كعب عريض. يدع المرء هذا الحذاء ينزلق من القدم بخفة قبل دخول الغرفة، وهي عادة يتبعها الجميع من الحاكم حتى العبيد. ثم تكون مهمة العبيد الواقفين أمام الباب أن ينظموا الأحذية المتشابهة غالبا زوجا زوجا، فتستطيع الضيفة عند مغادرتها إدخال قدميها في الحذاء مباشرة. تسود هنا أيضا شكليات صارمة، يوضع حذاء السيدة الأعلى مكانة في الوسط، وتوضع أحذية السيدات الأدنى مكانة في نصف دائرة حولها.

يقدم العبيد القهوة بعد الوصول بقليل في فناجين صغيرة ويتكرر هذا كلما وصلت زائرة جديدة. وعدا هذا يتناول المرء الفاكهة والحلوى. ولحسن الحظ لا يعرف المرء "الإلحاح" على الزائرات.

ولا تضطر المضيفة إلى أن تكفل محادثة كثيرا ما تكون قسرية، تعتبر هنا من آداب المجاملة وتتطلب جهدا كبيرا. كلا، فالمرء يتحدث بحرية تامة ودون حرج حول كل ما يخطر على البال. لا يوجد مسرح وحفلات موسيقية وكرات وسيرك وما شابه ذلك، فتتحدد مادة الحديث إلى حد ما، ولا يحب المرء هناك الملاحظات الطريفة عن الطقس. تجري الأحاديث غالبا عن الشؤون الخاصة وعن الزراعة وكل ما يتعلق بذلك. فكل وجيه وكل وجيهة تمارس الزراعة، ليس على أسس اقتصادية، ولكن باهتمام كبير.

تستطيع كل واحدة أن تطلق لمزاجها الطيب الحرية دون قيود، فتضحك وتتندر دون أن تحسب بدقة إن كان ذلك ينتقص من

مهابتها. وإلى جانب الفضائل الكثيرة الأخرى فإن الجنوب يملك فضيلة أن سكانه فرحون مبتهجون غالبا ويحبون المرح. لم لا، فالطبيعة أعطتهم مثالا طيبا، وهي تبدو دائما مشمسة ومرحة؟ فسماء صافية يملؤها ضوء الشمس لا تسمح بظهور غرابة الأطوار في الجنوب أبدا. وفضلا عن هذا فإن الطبيعة تكفل للإنسان ما يحتاجه للعيش بيد مبذرة لا تسمح للهموم بإثقاله إلا نادرا.

لا يسمح لرب البيت بدخول غرفة زوجته أو ابنته أو أمه خلال فترة الزيارة. ولا يستثنى من هذا إلا الحاكم ورجال عائلته القريبون، فحين كانت تأتي إلينا من عمان ابنة عم مساوية لنا في المكانة، لم يكن يسمح لإخوتي وأولادهم بالدخول علينا دون إشعار مسبق. وحين أزور أختا متزوجة لي، يكون على زوجها البقاء في غرفة الاستقبال في الطابق الأرضي حتى أغادر. وإذا كان لدى الحاكم في فترة الزيارة موضوعا ملحا يريد أن يتحدث به مع زوجته أو ابنته أو أمه فإنه يرسل في طلبها إلى غرفة أخرى لحظة من الزمن. وتتصرف النساء بنفس الطريقة حين يردن الحديث مع أفراد عائلتهن من الرجال حين يكون هؤلاء في حلقة من أصدقائهم.

تتبع هذه العادة بنفس الصرامة حين تزور سيدة صديقتها ليوم كامل، أي من الخامسة والنصف صباحا وحتى السابعة مساء. ويكون على الرجال أن يتحملوا! مشقة تجنب مصادفة السيدات الغريبات، فيرونهن ضد رغبتهن. من المؤكد أن هذا مزعج. ولكن ثقل هذه وغيرها من العادات لا يشعر بها الشرقي على الإطلاق. إنه

قد نشأ مع هذه الأفكار، و لم يعرف غيرها ليعقد المقارنات، وهكذا فهو يجدها طبيعية وصحيحة. إنها سلطة العادة بتأثيرها العميق في كل مكان! لا أنكر أبدا وجود الكثير في الشرق مما يبدو لدى المراقبة الموضوعية فائضا أو حتى مغالى فيه. أتكون أوروبا وحدها خالية من هذه الأفكار والعادات السقيمة؟ الفصل الصارم بين الرجال والنساء هناك، والحرية التي ليس ما يكبحها هنا. الحجاب الدائم والأقنعة رغم حرارة الجو هناك، وعري الصدر هنا في الشمال البارد وهكذا دواليك. هذه متناقضات حادة بالتأكيد والمرء يبالغ هنا وهناك على السواء. تمتد الزيارة النسائية من ثلاث إلى أربع ساعات يسود فيها جو نشيط من الأحاديث والإشارات. وأخيرا ينهض المرء للمغادرة، فيوقظ العبيد من نومهم العميق لينتظموا مرة أخرى في الموكب. وتبقى الفوانيس مشتعلة أثناء الزيارة، دون فائدة ولكن من أجل اللياقة.

وبعد أن تكون المضيفة قد قدمت هدية لضيفتها حتى لو كانت صغيرة، وجرى التوديع وفق نفس طقوس الاستقبال، يتحرك الموكب للعودة إلى البيت. وإذا غادرت البيت مع أحدى أخواتي نشأت في الشارع دائما فوضى صغيرة قبل أن تنحل عقدة مجموعتَي المرافقين.

يستطيع أي واحد أن يتعقب طريقنا بعد ذلك بوقت طويل، إذ تكون عطورنا قد تغلغلت في الشوارع التي مررنا بها بكثافة وعلقت بهوائها. ويجب أن يكون الجميع في البيت عند منتصف الليل، فذلك آخر موعد لصلاة المساء.

للعربية امتياز خاص على الأوروبية وهي أنها معفاة من واجب تقديم الشكر لمن وجهت الدعوة إليها. فهن لسن بحاجة إلى الرياء والتظاهر. إنه لسيء بما يكفي أن يشعر المرء في مجتمع ما بالملل، ويشكر على ذلك أيضا؟ كثيرا ما سمعت كيف تثني سيدات على مضيفتهن بأجمل الكلمات وأكثرها تملقا حول حضورها الساحر، وينتقدنها ما أن يكن قد أصبحن في الخارج أمام الباب انتقادا لاذعا. يا له من تظاهر بغيض! ألن نكون أقرب إلى الخالق الرحيم لو سعى الكل إلى التعامل مع الناس بصراحة وصدق؟ فيم التنكر الدائم؟

المجلس وتعامل الرجال مع بعضهم

إنها عادة قديمة أن يفتح الحاكم بابه مرتين في اليوم وذلك بعد الإفطار وبعد صلاة المغرب للرجال من أقربائه ووزرائه وموظفيه وكذلك لكل الذين يريدون مقابلته أو التحدث إليه. كانت غرفة الاستقبال (البرزة) المخصصة لهذه الاجتماعات تقع في الطابق الأرضي، على شاطئ البحر مباشرة حيث تغسل أمواجه في فترة المد السور الأساس لهذا الجناح، ويشرف المرء من النوافذ على المنظر الرائع لسطحه الواسع المتحرك. كانت الصالة واسعة ومع ذلك كثيرا ما ضاقت بالزوار الكثيرين. وكان لأثاثها نفس الطابع البسيط الذي لأي غرفة عربية، ففيما عدا السجاد والمرايا التي تصل إلى السقف، والساعات وعدد كبير من الكراسي على طول الجوانب، لم يكن ثمة أثاث آخر.

ولأن العربي الوجيه لا يخرج وحده، فقد تزاحم أمام الباب دائما بضع مئات من التابعين. من وجد مكانا جلس على المصاطب الحجرية المحاذية لجدران البيت، أما من جاء متأخرا فكان عليه أن يقف في فناء القصر بانتظار خروج سيده أو صديقه. وقد كانت هذه صورا

مسلية لنا دائما. كان الرجال يأتون إلى المجلس في ملابس رسمية كاملة، بعمامة، وثوب يصل حتى الكاحل (جبة) ووشاح كحزام.

يضع العربي على رأسه الذي يحلق مرة في الأسبوع طاقية بيضاء فقط، ذات حياكة جميلة حقا، ولكنه يضع العمامة حين يخرج. وربط هذه العمامة يحتاج إلى مهارة، يحتاج بعضهم لذلك نصف ساعة ليلفها بطريقة صحيحة. لذلك يرفعها المرء بحذر شديد إذ يمكن بشيء من عدم الحيطة أن تنفك بأكملها. ومن كان يعير مظهره اهتماما فإنه ينظمها من جديد كلما خرج. القماشة التي تستخدم للعمامة رخيصة نسبيا ولا تكلف أكثر من خمسة إلى ثمانية دولارات. وأغلى منها كثيرا قماش الوشاح (المحزم)، حيث تتراوح أسعاره من عشرين إلى مئتي دولار. فهذه الأقمشة مصنوعة من الحرير الذي تتخلله خيوط من الذهب والفضة. والرجل الوجيه يملك دائما عددا كبيرا منها ويستبدلها كما يستبدل المرء ربطة العنق هنا. أما الشيوخ والناس الورعون الذين لا يستلطفون الموضة فيلبسون محزما بسيطا من الحرير الأبيض أو الأسود.

ولا يكتمل زي العربي إلا بسلاحه طبعا، كما سبق أن ذكرت أكثر من مرة، تناوله اياه في العادة زوجته أو ابنته أو إبنه حين يكون مستعدا للخروج.

قبل أن يدخل السادة إلى غرفة الاستقبال، يخلعون نعالهم، ويمكن التعرف على التراتبية في الطبقات في هذا. حيث يخلع الناس العاديون الوطية على مسافة بعيدة، بينما يخلعها الوجهاء أمام الباب

مباشرة. ولا ينبغي أن يفكر المرء هنا بالطغيان، فهذه عادة متبعة وطوعية. يظهر العربي وفق عادة قديمة احترامه في كل الأوضاع، وهو ممتلىء قبل كل شيء بشعور الاحترام إزاء حاكمه وعائلته بأكملها.

وإذا ما امتلأت صالة الاجتماعات يتوجه السلطان إليها ليحيي الوجهاء. كان موكبه الاحتفالي ينتظم في أيام أبي كالآتي: تمشي في الأمام كتيبة من الزنوج، تعقبهم مجموعة من الخصيان، ووراءهم رؤساء الخصيان، وأخيرا يأتي والدنا وأبناؤه خلفه، إذ يكون الأصغر سنا فيهم في آخر الموكب. في الأسفل يشكل الحرس والخصيان صفين أمام باب البرزة يمر بينهما أبي وأبناؤه متجهين إلى الصالة. ينهض الجميع لتحيته، وتعاد هذه الطقوس حين يغادر المجلس في موكبه المنظم ثانية. وبالعكس فإن أبي يظهر للجميع الاحترام اللازم. وإذا ما أراد وجيه أن يغادر فإنه يرافقه بضع خطوات، بينما ينهض الجميع ويبقون وقوفا خلال ذلك. قد يبدو هذا للأوروبي غريبا، وهو يتعارض مع الطقوس العربية على أية حال في أن يستطيع الكل أن يأتي ويذهب دون ارتباط بالملك فلا يغادر إلا بعد مغادرته.

لا تقدم القهوة في جلسة ما قبل الظهر إلا نادرا وعلى العكس تقدم في المساء دائما. ثم يبدأالعمل، إذا صح القول. يستطيع كل واحد أن يطرح طلبه، التماسه أو شكواه ويطلب جوابا. يعالج كل شيء تقريبا شفاها، حيث لا يجب المرء أنجاز الأعمال كتابيا. وهكذا كان على أصحاب الطلبات أن يحضروا بأنفسهم غالبا ليطرحوا قضاياهم.

تحال القضايا الصغيرة إلى الوزراء أو القضاة أو رؤساء الخصيان لاتخاذ قرار فيها. يدوم الاستقبال من ساعة ونصف إلى ثلاث ساعات، ومن لم يتسع الوقت لمعالجة قضيته، أو من جاء متأخرا لأنه لم يرد أن يتزاحم في البرزة المكتظة، فإنه يحصل على موعد من رئيس الخصيان لليوم التالي، فتعالج قضيته في البداية عندئذ.

وكان يسمح للأمراء أن يحضروا المجلس من سن الرابعة عشرة حتى سن السادسة عشرة، حيث يكونون بعد هذه السن ملزمين بذلك. وكذلك يتعين على كل وجيه أن يحضر يوميا احتراما للحاكم، إذا لم تعقه أسباب إضطرارية. فإذا غاب أحدهم أياما متتالية يرسل العبيد إليه ليستطلعوا سبب تخلفه. فإذا كان طريح الفراش فإنه يستطيع أن يكون واثقا من أن الحاكم سيأتي لزيارته قريبا. حتى لو كان مصابا بمرض معد كالكوليرا أو الجدري، فإن ذلك لا يمنع أحدا من زيارته، فكل شيء بإرادة الله ومشيئته! ويكون على المرأة التي تعنى بالمريض، زوجة أو أما أو إبنة أو أختا أن تنسحب من الغرفة حين يقوم الرجال بزيارته.

لكل عربي وجيه برزة مثل هذه في الطابق الأرضي من بيته، بعيدا عن غرف النساء، حيث يسكن عادة ويستقبل أصدقاءه ومعارفه. تكون الأرضية في الغالب مرصوفة بمرمر أسود وأبيض يستورد من فرنسا، ولا يوجد هنا سجاد أو حصران، إذ لا يريد المرء أن تسرق منه برودة الحجر اللطيفة.

يزور الرجال بعضهم في نفس الأوقات التي تتزاور فيها النساء،

الأفضل بعد السابعة مساء. وحين يخرج العربي فلا بد أن يكون له هدف محدد. أما أن يتمكن المرء أو يتوجب عليه الخروج للنزهة من أجل الصحة فهو أمر لا يفقهه العربي، وهو حين يرى أوروبيا يتمشى على سطح داره ذهابا وإيابا فإنه يظن أنه يؤدي الصلاة بطريقته المسيحية الخاصة.

لا أحتاج أن أضيف شيئا حول الطقوس عند زيارة الرجال وأحاديثهم، فهي تشبه اجتماعات النساء. إلا أن الرجال يتحدثون بالطبع في موضوعات أعم تتعلق براحة المدينة والبلاد وبصورة خاصة عن نتائج الاجتماع الأخير والالتماسات المختلفة والقضايا المتنوعة التي اتخذ فيها قرار. وفي اجتماعات الرجال وخاصة استقبالات السلطان يسمح للأوروبيين أيضا بالحضور، وهكذا فإن النشاطات الرجالية بكل جوانبها المشرقة والمعتمة معروفة في الشمال أكثر من حياة النساء الشرقيات المغلقة.

فترة الصيام

يعرف الجميع أن على المسلمين أن يصوموا شهرا كاملا، طالما تمكن رؤية الشمس في السماء. ولا يجوز مقارنة صيام المسلمين هذا بصيام الكاثوليك بالغ السهولة. الصيام فرض على كل مسلم، وعليه أن يحمل أطفاله على ذلك من سن الثانية عشرة. ولأن أمي كانت مؤمنة جدا فإنها جعلتني أصوم شهر رمضان وأنا في سن التاسعة.

إنه ليس سهلا على طفل في التاسعة بالتأكيد أن يمتنع عن الطعام والشراب أربعة عشر ساعة ونصف في اليوم. واحتمال الجوع أقل مشقة بكثير من احتمال العطش الفظيع الذي لا يمكن وصفه بالنسبة لشخص من سكان المنطقة الاستوائية. وفي مثل سني لم أكن أفقه من الدين الكثير، وهكذا على أن أعترف بخجل أنني شربت مرة أو أخرى الماء سرا في البداية. وحين سئلت بإلحاح اعترفت لأمي بهذه المعصية نادمة فغفرت لي شرط ألا أتجاوز الفرض الديني المقدس. كنت في الأيام الأولى مخدرة تماما، وقد تركت لأنام أطول وقت ممكن، كي لا أشعر بالإرهاق الشديد. التعليمات بشأن ذلك محددة بصرامة، لا يجوز أن يبلع المرء ريقه متعمدا إذا ما أراد أن يبقى مخلصا

للشرائع.

يطلق في الرابعة صباحا مدفع من سفننا كإشارة ببدء الصيام. يكون على المرء أن يتوقف عن الأكل في الحال حتى لو كان يتناول وجبته. وإذا كان المرء قد رفع قدحه ليشرب للمرة الأخيرة من أجل الأربعة عشر ساعة ونصف، وجب عليه أن يترك القدح دون أن يمسه حالما يسمع إطلاقة المدفع. لا يجوز لشخص راشد ومعافى أن يأكل أو يشرب منذ هذه اللحظة. ويحب المرء أن ينام في النهار طويلا ويبقى في الليل ويستمتع بمختلف المأكولات.

تغيب الشمس في الساعة السادسة، فيؤدي المرء صلاة المغرب ويستطيع أن يفطر في السادسة والنصف. تكون أروع الثمار قد أعدت، وقبل كل شيء الماء المستطاب اللذيذ في جرار الفخار ذات المسامات، المبردة لتقدم للعطشى ما ينعشهم. بعد قليل تجتمع العائلة لتتناول وجبة فاخرة حقا، تعوض بسخاء عن الاستغناء الصعب عن الطعام. ورغم أن العربي مقتصد في الأحوال الأخرى وبسيط عادة إلا أنه يسرف في وجبات الطعام في رمضان وينعم بوفرة من الطعام والشراب.

في هذه الفترة يميل الناس إلى الحياة الاجتماعية ويحبون أن يمضوا الأماسي أو بالأحرى الليالي مع بعضهم، تنشرح نفوسهم من خلال الأغاني الدينية والتراتيل والحكايات، يتخلل ذلك دائما تناول الطعام والشراب. في الثانية عشرة تدوي أول إطلاقة مدفع وتوقظ أولئك الذين كانوا قد ناموا ليعدوا السحور الذي يكون جاهزا بين الثالثة

والرابعة صباحا. يوقظ الأطفال الذين أرسلوا للنوم في التاسعة أو العاشرة. ويندر أن يجري تناول السحور بصورة جماعية، وإنما يتناوله كل واحد في غرفته عادة.

يعيش المرء على هذا النحو شهرا كاملا. في البداية تكثر الإصابات بالأغماء، ويصبح الناس أكثر نحافة وهزالا بصورة ملحوظة تقريبا. ولكن المرء يعتاد تدريجيا على ضغط الإمساك عن الطعام، ويكف عن النوم في النهار، ويظهر في الشرفة بصورة منتظمة الكثيرون الذين كانوا لا يخرجون إلا عند تناول وجبات الطعام ولدى الصلاة.

على الجميع أن يصوموا، وعلى السيد أن يأمر عبيده بالصيام. فيلزم بذلك الذين يحتاجهم المرء في البيت والخدمة الشخصية، أي اولئك الذين يمكن مراقبتهم. وعلى العكس فإن الأمر بالنسبة للعبيد الذين يعملون في المزارع، وأغلبهم لا دين لهم، متروك لهم إن كانوا يريدون الصيام أم لا.

يعفى الأطفال والمرضى من الصيام. وعلى الأخيرين أن يصوموا نفس العدد من الأيام التي أفطروا فيها "بصورة متصلة" حالما يستعيدون عافيتهم. وينطبق الشيء نفسه على المسافرين سفرة متعبة. ويحق للنساء اللائي ينتظرن الولادة أيضا أن يؤجلن الصيام إذا كان الصيام يشق عليهن. إلا أنهن يفضلن ألا يفعلن فلا يكون عليهن أن يتحملن الإمساك عن الطعام وحدهن فيكون الأمر أصعب عليهن. وإذا طمثت المرأة في رمضان فإن عليها أن تقطع صيامها في الحال وتستطيع أن تعود للصيام بعد أربعة عشر يوما على الأقل. ولكن

ينطبق دائما الواجب الصارم بأن المرء ملزم بصيام الأيام التي فوتها في وقت لاحق. إذا جرح المرء أي انبثق منه الدم أو شعر بوعكة مفاجئة دون أن يكون مريضا فإن عليه أن يتابع الصيام في ذلك اليوم ثم يعيده بعد إنتهاء شهر الصيام.

ليس الصيام امتحانا خارجيا للإنسان تماما، إذ يعود المسلم الورع في هذه الفترة إلى نفسه، إنه يحاول أن يكتشف أخطاءه الروحية ويحسنها ويصلي طلبا لمغفرة ذنوبه. أي مثلما يعد المسيحي الجيد نفسه في اسبوع الآلام للعشاء المقدس. ويمتنع المرء في هذه الفترة المقدسة عن قتل حتى الحيوانات الشريرة ويجتهد أن يفعل ما استطاع من حسنات. وهكذا فإن لرمضان شيئا وجدانيا، يصبح الإنسان مهما كان قاسيا ودودا ومتسامحا. إنه يشعر من خلال الإمساك الطويل عن الطعام والشراب في خدمة الله أنه يقترب من ربه أيضا، وهذا يرفعه ويحسنه، ربما فترة قصيرة بالنسبة للبعض طبعا، لكنه يستمر بالنسبة لآخرين مدى الحياة.

وتظهر ضيافة العربي التقليدية في هذه الفترة في ذروتها، إنها الآن واجب ديني. كل من كانت له عائلة وبيت يطعم من الغرباء قدر ما يجد، ويكون هؤلاء غالبا أشخاصا لا يعرف حتى أسماءهم. إنه يطلب ببساطة من إمام الجامع الذي اعتاد زيارته أن يرسل إليه كل مساء عددا معينا من الغرباء لتناول الطعام. إنهم ليسوا فقط أناسا فقراء ولكن أيضا رجالا من أصل رفيع وذوي ثروة ولكنهم غرباء ويفتقدون أوطانهم في هذه الفترة بالذات بشدة، ويسعد العربي

الأصيل المضياف دائما تقديم تعويض صغير لمثل هؤلاء. وليس ثمة من يجد في استضافته من قبل شخص قد يكون أفقر منه أمرا غير مناسب، وأبعد ما يمكن أن يفكر فيه هو أن يرد على هذه الضيافة، لأن هذا سيعتبر إهانة كبيرة. لا تستطيع الأنانية مع مثل هذه المبادىءحقا أن تضرب جذورا عميقة، سيما لدى الشعوب التي لا تزال ترى في مثل هذا الحب للآخر واجبا غير ملزم.

لشهر رمضان شبه بصورة ما بالفترة التي تسبق أعياد الميلاد هنا. على المرء أن يجهز هدايا مختلفة توزع في اليوم الأول من الشهر التالي، شوال، واحد من عيدين كبيرين لدى المسلمين. لا تهدى الأعمال اليدوية إلا للقليلين من الناس القريبين وليس لمن هب ودب. فهذه الأعمال كما هو الحال هنا تماما تحتاج إلى عمل كثير شاق. كنت أرى أحيانا مخلوقة وحيدة تجلس في ضوء القمر الأفريقي الساطع في مكان خفي تعذب نفسها وتجهدها بمثابرة وخوف في عمل دقيق.

وبشكل عام فإن الهدايا تشترى جاهزة، وأكبر من يربح في ذلك هم صاغة الذهب. ويسيطر على هذه المهنة تماما الهنود والبانيان الذين لا يتفوق عليهم بالشطارة والكذب والخداع. وهم بالغو المهارة في مهنتهم وقد استطاعوا أن يزيحوا الصاغة العرب من هذه المهنة تماما. يكون لديهم قبل العيد عمل كثير، حيث تعقب الطلبات بعضها وهم لا يرفضون طلبا. فإذا أردنا أن نحصل على ما طلبناه في الوقت الصحيح حقا، يكون علينا أن نرسل بعض العبيد المسلحين إلى ورشة الصائغ، ليراقبوه أثناء العمل ويمنعوه من إنجاز طلبات أخرى.

يبدو هذا شديدا، ولكن هذا الإجراء الذي فكرت فيه أخواتي هو وحده الذي استطاع أن يساعدنا، فإن هؤلاء الهنود والبانيان كما قلت أكبر المحتالين، لا تعني كلمتهم شيئا وهم في نفس الوقت جبناء جدا.

ومن الهدايا المحبوبة الأسلحة من مختلف الأنواع. قد يبدو للأوروبية غريبا أن تهدي العربية لزوجها أو أخيها أو إبنها الراشد أو خطيبها سلاحا ثمينا. ولكن في الأسلحة بالذات يبذخ العرب كثيرا، فهم يحاولون الحصول على كل قطعة جميلة الصنع ولا يشبعون من ذلك. ولا يبخلون بثمن حين يتعلق الأمر بشراء قطعة سلاح.

وهكذا فإن الأسلحة والمصوغات تأتي في مقدمة هدايا العيد. غير أن المرء يستطيع أن يهدي أي شيء آخر: خيولا أصيلة، حميرا بيضاء، و – ما يستفظعه الأوروبي المتحضر – حتى العبيد!

ينقضي شهر رمضان في مثل هذه الإهتمامات والمشتريات. يبدأ المرء في الأسبوع الأخير وقبل ذلك غالبا بإعداد المعجنات للعيد وإنجاز بعض الاستعدادات الأخرى في البيت. كلما اقترب الأول من شوال تصاعدت التوقعات والإنفعالات. الجميع في نشاط كبير، من أجل أن يكونوا قد أعدوا هداياهم وأنجزوا الاستعدادات في البيت في الوقت المناسب.

وتعتبر ليلة السابع والعشرين من رمضان "ليلة القدر" مقدسة خاصة، الليلة التي نزل فيها القرآن على محمد. فالمرء يتوقع أن تلبى الصلوات والدعوات التي تصعد إلى السماء في هذه الليلة مباشرة.

وأخيرا يحل اليوم الأخير من رمضان، التاسع والعشرون أو الثلاثون، فلدينا كما هو معروف أشهر قمرية عدد أيامها ٢٩ أو ٣٠ يوما، فيكون عدد أيام السنة أيضا ٣٥٥ يوما فقط. ويسعى الكل بحماسة لرؤية الهلال، فلا توجد تقاويم لدينا إلا لدى الفقهاء وهي في هذه الحالة أيضا لا تقدم عونا. إذ لا بد من رؤية الهلال حقا قبل أن يكون إنهاء فترة الصيام ممكنا. ولحسن الحظ فإن سماء الجنوب التي تمتد فوق المسلمين صاحية وصافية دائما تقريبا، نادرا ما تكون ملبدة بالغيوم كما هو الحال في الشمال المعتم.

ومن يملك منظارا أو منظارا صغيرا كالذي يستعمل في الأوبرا يحسد كثيرا، فتنتقل الأداة المرغوبة من يد إلى أخرى، ويرسل المعارف والأصدقاء لاستعارتها لوقت قصير. يرسل والدنا أشخاصا لهم عيون حادة الرؤيا إلى سطح قلعتنا التي أقيمت في فترة الحكم البرتغالي، ليشاهدوا الهلال من فوق رؤوس الصواري فوق الأرض والبحر.

يكون الجميع في المساء في أشد حالات الترقب، ففي كل لحظة يظن واحد أو آخر أنه سمع إطلاقة المدفع التي يكون عليها أن تبشرنا بالإكتشاف السعيد. ويظن المرء أي صوت هو هذه الإطلاقة، دون أن يفكر وهو في حالة من الإنفعال أن إطلاقة المدفع من السفن الموجودة أمام بيتنا مباشرة ستهز القصر بأكمله، فلا يسمعها المرء فقط وإنما يحسها أيضا. أخيرا تدوي الطلقة بالفعل، فيملأ المدينة هرج مبتهج، ويصيح كل في الآخر عيد مبارك.

هذا في المدينة.أما في الريف فإن الأمر أكثر صعوبة حيث لا يستطيع الحاكم أن يكفل إعطاء إشارة عامة نافذة للإفطار. أما من كان يسكن في مزرعة بعيدة فإنه يرسل خيالا إلى المدينة يبلغه بعد إطلاقة المدفع بالخبر الأكيد من أن المرء قد شاهد الهلال فعلا. يكلف البعض الآخر عبيدهم بالصعود على أشجار جوز الهند العالية حتى قمتها في مواقع مختلفة من أراضيهم لمراقبة الأفق من هناك. ويحدث أحيانا أن يتوهم مثل هذا اللوغاوس أنه رأى الهلال الرفيع، بينما لا يكون ما ظهر في السماء سوى شريط غيم رقيق. يقطع المرء صيامه في الحال، ثم يعلم لاحقا أن الصيام مستمر في المدينة حيث هي المعيار الوحيد، وأن على المرء أن يعوض بصيام هذا الوقت. وهي أسوأ خيبة يمكن أن يواجهها العربي الذي كان مبتهجا بحلول العيد.

العيد الصغير

لقد أعد ت المعجنات كما ذكرت قبل أسبو ع. وقد تم شراء ما يحتاج المرء إليه من حيوانات الذبح، من ثيران وغنم وماعز وغزلان ودجاج وبط وحمام فامتلأت بها الحظائر

(لحم العجل لايؤكل عندنا ولحم الخنزير محرم تحريما صارما لدى المسلمين)، وتوجب وضع الحيوانات المخصصة للذبح في العيد في الفناء. يكلف الخصيان لدى الناس الموسرين باستبدال العملات الفرنسية والغينية بريالات ماريا تيريزا، لتوزع في العيد على المحتاجين وخاصة على الفقراء الكثيرين المهاجرين من عمان والذين يخجلون من الاستعطاء ولا يعرفون العملة الذهبية.

ما أن يكون المدفع قد أطلق وانتشر الخبر المفرح بأن المرء يستطيع أن يحتفل في اليوم الثاني بـ"العيد الصغير" بالفعل حتى تصبح الحياة في البيت العربي أكثر تلونا، وأكثر إثارة وسحرا. يروح ويجيء مئات الأطفال بوجوه مشرقة بالفرح، مسرعين وقد نسوا خطواتهم المعتدلة المعتادة، يريد الكل أن يهنئ أحباءه ويبارك له بالعيد. ولا يندر أن يرى المرء في هذا الإنفعال الديني السار عدوا يمد يده لعدوه

ليتصالحا، لأنهما يؤملان أن يكونا قد حصلا على رضاء ربهما الرحيم في وقت العودة إلى التأمل والامتحان. لا تدع انفعالات الفرح ونداءات مئات الأصوات بمختلف اللغات، والشتائم المنفعلة للعبيد المثقلين بالعمل أحدا ينام في تلك الليلة.

ولا يجد الخدم الراحة، فالجزارون (وهم من العبيد) ينقضون على ضحاياهم الخائرة والصارخة والموقوقة، لينهوا حياتها بالكلمات المطلوبة "بسم الله الرحمن الرحيم". تقطع رقبة الحيوانات وفق الطقوس بصرامة، ويفصل الرأس بسرعة وتسلخ الذبيحة في الحال، وتذهب على هذه الصورة إلى المطبخ وتعد في الليل لطعام اليوم التالي. كانت المجزرة تبدو في ذلك المساء مثل بحر من الدم من كثرة الحيوانات المذبوحة، لو رآها نباتي إنساني لأسرع خارجا وقد أصابه الذعر. وقد كانت أعيادنا تبدو لنباتيينا الإنسانيين المحليين في زنجبار، البانيان، فظيعة، وقد تجنبوا هذه المجازر بوجل. وهم الصناع الحقيقيون وفي نفس الوقت المرابون الأكثر طمعا في العالم. يكرههم ضحاياهم كراهية شديدة ويسخر منهم في مثل هذه المناسبات بأكثر الطرق وحشية. فبذريعة أن هذه السيدة أو تلك تريد شراء شيء ما بمناسبة العيد يستدرج هؤلاء الحثالات البانيان، الذين لا يريدون أن يضيعوا فرصة للتجارة إلى المجازر المليئة بالدم ليسخر منهم هناك. وفي هذا إهانة كبيرة. لأن عبدة النجوم هؤلاء ذوي الأخلاق المنحطة لديهم جانب طيب على الأقل هو أنهم يبقون مخلصين للنظرة النباتية التي يفرضها دينهم عليهم.

وتشغل السيدات اللائي لا يكدن يستطعن النوم بسبب الضوضاء الشديدة هموما أخرى هي هموم الملابس المهمة. تريد كل واحدة أن تبز الأخريات في العيد، لقد تم إعداد ثلاثة بدلات لأيام العيد الثلاثة، وكل من هذه البدلات جديدة تماما من الرأس حتى أخمص القدم. ولن تستطيع أوروبية أن تصدق الكميات التي تستهلك من الورد الطازج والقداح والمسك والعنبر وماء الورد وزيت الورد وكل الأنواع الأخرى من عطور الشرق. ستقف أمام هذه الأرقام كما تقف الشرقية أمام كمية البيرة التي تستهلك في عيد الفصح في برلين. تنفق بعض السيدات العربيات خمسمائة دولار في السنة على العطور وحدها، وما كان يمكن للأعصاب أن تحتمل هذه الروائح لو لم تكن الأبواب والنوافذ مفتوحة.

وتلعب الحنة دورا مهما في الزينة الفخمة للسيدة الشرقية، تعد من أوراق شجرة متوسطة الحجم، تستخدم في تلوين أيدي وأقدام النساء والأطفال بلون أحمر ثابت. وتبدو أشجار الحنة المسكينة التي لا تصل أوراقها الذروة، في فترة الصيام مثل جذور يابسة تقريبا، لقد انتزعت عنها كل وريقة ولن تنمو لها براعم جديدة إلا بعد ستة إلى ثمانية أسابيع. إنه منظر محزن أن يراها المرء عارية بين الأشجار الأخرى الوارفة.

وتستخدم الحنة التي لا يستغني الشرقيون عنها بطريقتين مختلفتين: كعلاج للانتفاخات والفقاعات الناشئة عن الحرارة والحكة وكمادة تجميل لتلوين الأيدي والأرجل. لا تعطي الأوراق التي تشبه أوراق

الآس، وحدها التأثير المرغوب في الحالتين، يجب خلطها بعد تجفيفها وطحنها بعصير عدة ليمونات، وهي أصغر من الليمون الحامض الذي يعرفه المرء هنا إلا أنها أوفر عصيرا، وشيء من الماء. ويدعك الخليط ليتحول إلى عجينة صلبة ويترك بضع ساعات في الشمس، ليحمض كما يبدو، ويضاف إليه عصير الليمون مرة أخرى ليعود لينا.

والآن يمكن أن يبدأ تجميل السيدة المعنية. تستلقي على سريرها الثمين، على ظهرها إن أمكن، ولا يجوز لها أن تتحرك. توضع الحنة في البدء على القدمين بصورة مسطحة حتى حوالي بوصة عن باطن القدم وعلى أصابع القدم المنفردة التي لم يشوهها ضغط الأحذية طويلة العنق، ويبقى ظاهر القدم دون تلوين. يضع المرء فوقه أوراقا لينة كبيرة ويلف القدم بأكملها بالمناديل لفا محكما. ويفعل المرء الشيء نفسه للأيدي. هنا أيضا توضع عجينة الحناء في باطن الكف على شكل هلال وتغطي الأصابع حتى المفصل الأول على شكل كشتبان، وتلف اليد. وهكذا تقضي الجميلة ليلة كاملة مقيدة هنا ولا يجوز لها أن تتحرك، كي لا تزيح الحناء فتفسد الزينة، حيث يراد تلوين المواضع المؤشرة فقط. فإذا تلون ظاهر الكف أو عقدة أخرى من الأصبع اعتبر ذلك قبيحا جدا.

وقد يجذب الضوء الساطع البعوض والذباب إلى المسكينة عديمة الحيلة أسرابا فتعذبها دون أن تستطيع الدفاع عن نفسها. أما بالنسبة للوجيهات فإن العجز أقل وطأة، إذ تتناوب الإماء على حراستها

ويبعدن الحشرات المزعجة عن سيدتهن باستخدام المروحة حتى الفجر، حيث تغسل العجينة بحرص. وفي الليلة التالية يبدأ نفس العذاب من جديد. تحتاج هذه الوصلة من زينة المرأة ثلاث ليال مليئة بالعذاب، إذا ما أريد الحصول على لون أحمر داكن يبقى ثابتا رغم الاغتسال المتكرر حتى أربعة أسابيع.

قرأت مرة أن موضة انتشرت في فرنسا بأن تدع المرأة لحلاق ماهر فقط أن يعد تسريحتها، وفي الأعياد الكبيرة العامة كان على الحلاق المرغوب أن يبدأ عمله قبل يوم من أجل أن يستطيع إرضاء جميع زبوناته. وكان على السيدات اللائي أنجزت تسريحتهن الحديثة مبكرا أن يقضين ليلة كاملة متصلبات على الأريكة من أجل الاحتفاظ بها. يذكرني هذا بسنوات يفاعتي المليئة بالحيوية في الشرق، رغم أن عذابات إعجابنا بأنفسنا كانت أصعب من هذه التي ذكرتها.

أما النساء المسنات والأطفال الصغار فإنهم معفوون من هذا العذاب. والحنة بالنسبة لهم هي مادة للتبريد، إذ يغسلن اليد بأكملها بمحلول من الحنة أقل كثافة.

لقد حل يوم العيد. الجميع يقظ منذ الساعة الرابعة. تطول صلاة الصبح أكثر من المعتاد، فيشكر المرء في صلاة خاصة الله القدير، خالق وموجه العالم على كل ما أنعم به علينا من خير وما أصابنا من بلاء أمتحننا به.

يكون المرء قد انتهى من صلاة الصبح حوالي الخامسة والنصف. فيرى هنا وهناك سيدات يسرعن في الشرفة ليرين الأخريات

ملابسهن وحليهن، فبعد ساعة يكون البريق والبهاء عاما حتى ليبدو للنساء المنفردات أنه من غير الممكن لهن أن يبرزن ويدعن الأخريات يتأملنهن ويعجبن بهن. إذ يمكن تشبيه الأمر بصالة حفلة ممتلئة، لو لم تكن الملابس في الشمال ثيابا بيضاء باهتة متشابهة. لا يحظى في الشرق بالإعجاب إلا الجمع بين الألوان الحية. قد يجرح نظر سيدة موضة أوروبية أن ترى وجيهة عربية في زيها الفخم، ثوبا على شكل قميص من الحرير الأحمر، بنقوش من خيوط الذهب التي تتخلل نسيجه، تزينه أشرطة ذهبية وفضية، مع سروال من الأطلس الأخضر! ستعتبره بالطبع غريبا تماما، فسلطة العادة سلطة كبيرة. لقد حدث لي أنا أيضا هذا حين رأيت الناس في أوروبا يلبسون ملابس رمادية اللون أو سوداء بأكملها. أيكون علي أنا أيضا أنا أخرج بمثل هذه الملابس في المستقبل؟ لم أحب هذه الألوان المتحضرة، وقد استغرق الأمر وقتا طويلا حتى استطعت أن أخضع لما يسمى الذوق الرفيع.

تنطلق في الساعة السادسة إطلاقة مدفع جديدة من سفننا، والآن تتعاقب الإطلاقات معلنة الاحتفال بعيد المؤمنين. وإذا تواجدت سفن غربية في الميناء فإنها تشارك بإطلاق واحدة وعشرين إطلاقة مدفع. ويعبر كل عربي عن فرحه بالعيد من خلال إطلاق البارود ولا يبخل به في مثل هذا اليوم. سيعتقد الغريب بالتأكيد أن المدينة تتعرض للقصف. تكون جميع السفن قد زينت، ترفرف الأعلام من كل عارضة وصارية لسفننا والسفن الغربية.

بغد ساعة تكون جميع المساجد مكتظة حيث يذهب كل عربي

إليها ليؤدي صلاة خاصة لربه. تصلي المئات التي لا تجد مكانا في بيوت الله أمام الجوامع أو إلى جانبها. وترتبط صلاة المسلمين بجهد بدني، لأن المصلي لا يكف عن السجود ويضع جبينه على الأرض المنبسطة أمام العلي القدير. وهو أمر ليس هينا حين تؤدى الصلاة في شارع قذر مرصوف بالحجارة. ولكن لا يتوقف المسلم عن صلاته حتى لو سقط المطر أو هبت عاصفة، وأداء المسلم صلاته في أيام الأعياد في المسجد أو قربه هو واجب خاص. وقد كان أبي يذهب أيضا قبل وقت الصلاة ببضع دقائق إلى الجامع القريب منا يرافقه أبناؤه الكثيرون وعدد كبير من أفراد الحاشية.

تكون الحركة في بيتنا قد ازدادت نشاطا خلال ذلك، لأن خدمة العدد الكبير من المهنئين المتدفقين مع عودة أبي من المسجد تبدأ الآن. تعلن إطلاقات مدفع متعددة إنتهاء ساعة الصلاة، ويستطيع الكل الآن أن يستمتع بالأطعمة التي أمسك عنها طويلا دون تقييد، إذ يستمر الصوم في الساعات الأولى من الشهر الجديد وينتهي الصيام فعلا مع انتهاء صلاة الجماعة في المسجد.

كنا نحن النساء ننتظر عودة أبي في غرفته. وكنا نستطيع من هنا أن نراقب بسهولة أكبر أيضا تدفق الجموع القادمة لرؤية أبي وتذوق ما يقدمه مطبخنا أيضا.

فإذا دخل أبي نهض الجميع ومضى لاستقباله وتقديم التهنئة له واحدا بعد الآخر وتقبيل يده الطيبة إجلالا. وعلى اليد الجليلة في مثل هذا اليوم في الشرق أن تتحمل الكثير بصرف النظر عن الجنس، فلا

يتوقف غسلها وتعطيرها حتى وقت متأخر من الليل. الرجال الذين لهم نفس المقام وحدهم يقبلون أيدي بعضهم. أما الطبقة المتوسطة فتقبل من هو أعلى مقاما على الرأس المنحني لهذا الغرض، أو بالأحرى على غطاء الرأس، أما المرأة العادية فلا يجوز لها أن تطبع قبلتها إلا على القدمين.

لقد اقترب موعد توزيع الهدايا. كان أبي يذهب مع أختي خولة ورئيس الخصيان الأقدم جوهر، وهي ثقة يحسدان عليها كثيرا، إلى الخزانة، فيظهر الكثير مما يشتهى: أسلحة ثمينة مرصعة بحجارة كريمة بفن، حلي نسائية شرقية من كل نوع من أبسط الأنواع حتى أثمنها، أندر قطع الأقمشة، استوردت من فارس أو تركيا أو الصين لهذه المناسبة، زيت الورد وزيوت عطرية أخرى في زجاجات ماء كبيرة، يقسم محتواها في زجاجات صغيرة، وكمية كبيرة من النقود الذهبية البراقة.

كان أبي يقوم بالتوزيع بشكل عام فقط، فإنه من غير الممكن له أن يتذكر ما يملكه جميع نسائه وأطفاله من الحلي وما يرغبون فيه بصورة خاصة. فهو يسأل الجميع قبل ذلك بأيام عن رغباتهم وما إذا كانوا يرغبون في هذا أو ذاك. إلا أن المرء كان يتوجه عدا هذا إلى خولة، لتذكر أبي لدى اختيار الهدايا برغبات الأفراد.

يصنف الخصيان الهدايا بحضور أبي، يكتب اسم متلقي أو متلقية كل قطعة على شريط ورقي ويحملها أحد الخصيان إلى الشخص المعني. ومما يسهل فهمه أن المتلقي يخضع الهدية للفحص الأولي في

الحال بحضور حاملها، وكثيرا ما يكون على الخصيان أن يعيدوا الهدية إلى أبي مع الملاحظة المتطلبة بأن المرء لا يحتاج إلى هذا أو ذاك، ويرغب في كذا أو كذا. ويا للعجب! في أغلب الحالات يحصل الشخص على ما أراده. كان أبي شديد الطيبة ومتبصرا، ومن استنجد بكرمه لم يفعل ذلك سدى.

كان أبي يهدي بأيد مفتوحة إلا أنه لا يحصل بالمقابل على شيء. إنها عادة جميلة وعميقة العاطفة في ألمانيا أن يقدم الأطفال هدية حسب سنهم وإمكاناتهم للأبوين في عيد ميلاد المسيح وأعياد ميلادهما، وعلى العكس لا يحصل رئيس العائلة في الشرق على شيء، فالأطفال العرب سواء كانوا صغارا أم كبارا لا يهدون لأبويهم شيئا.

تحدثت حتى الآن عن هدايا أبي لأفراد عائلته، لكن واجباته لا تنتهي عند هذا. ينتظر الجميع في هذا اليوم منه هدية: عليه أن يفكر في جميع رؤساء القبائل الآسيويين والأفريقيين الموجودين في هذا الوقت في زنجبار وجميع موظفي الدولة، جميع الجنود ورؤسائهم، جميع البحارة وقباطنتهم، ناظري مزارعه الخمس والأربعين وأخيرا جميع عبيده الذين يتراوح عددهم بين ستة إلى ثمانية آلاف شخص. بالطبع يختار الهدية لكل حسب مقامه، فكان العبيد مثلا يحصلون على أقمشة بسيطة.

يضاف إلى ذلك مئات الفقراء الذين يشعرون بالحياء والذين يتقدم

بعضهم حتى بعد أربعة عشر يوما، ليطلبوا هدية العيد. ويعيش الفقراء فترة طيبة في كل مكان حيث يبذل الأغنياء ما في وسعهم لإطعام هؤلاء.

يسود في بيت المتوني أيضا مثل النشاط الذي يعم المدينة، تقدم الهدايا هنا أيضا بكثرة. وكان يبدو لنا شيئا عجيبا ألا تتوقف الخزانة مرة عن تلبية جميع المتطلبات الكثيرة التي تقدم إليها في هذه الأيام الثلاثة، خاصة فيما يتعلق بالنقود – وهو دليل على أن أبي لا بد أن يكون أيضا رجل أعمال جيدا.

العيد الكبير

يحتفل المسلمون بعيدين كبيرين في السنة، وهو ما قد يبدو للكاثوليكي بأعياده الكثيرة أمرا غير مفهوم. يفصل بين العيد الصغير والعيد الكبير شهران، عيد الحج هو ما يسمى في أوروبا وفي تركيا بعيد بيرام عادة.

كل شيء يعاد كما في العيد الموصوف سابقا، يكون الاحتفال أجمل وأروع فقط، والناس أكثر رهبة، إنه وقت الحج الكبير إلى مكة الذي يصبو كل مؤمن أن يشارك فيه مرة في حياته على الأقل. ولا يهم المسلم الورع الخوف من الكوليرا والأوبئة الأخرى التي كثيرا ما تفتك بآلاف الحجاج. تنطلق كل عام جموع لا حصر لها لطلب المغفرة الكاملة العظيمة لذنوبها في مدينة النبي. على المساكين أن يقطعوا مسافات طويلة مشيا على الأقدام، والنقل على السفن حيث يضطجع الواحد فوق الآخر تقريبا، أمر فظيع. لكنهم يمضون إلى هناك بثقة بالله، فحياتهم في يد الله. مثل هذا التفاؤل الذي لا يتهيب من التعب والمصاعب والمخاطر لأداء فريضة دينية، ينتظر الاستجابة

للدعاء حقا.

يقع هذا العيد الكبير للمسلمين في اليوم العاشر من الشهر الثاني عشر في السنة ويستمر من ثلاثة إلى سبعة أيام ويقدس الكثيرون هذا الشهر منذ اليوم الأول عبر صيام طوعي يستمر تسعة أيام، تماما كما يفعل الحجاج الورعون في مكة.

ويضحي كل من يسمح وضعه المادي برأس غنم يذبح في اليوم الأول من العيد ويوزع على الفقراء. تقضي الشريعة أن يكون رأس الغنم المخصص للتضحية أفضل ما يمكن الحصول عليه وأن يكون سليما من كل العيوب. يجب أن يكون طبيعيا تماما، ولا ينقصه حتى سن واحدة. وبالطبع فإنه من الصعب الحصول على حيوان خال من العيوب. كنا نرسل بضعة عبيد قبل العيد بأربعة عشر يوما للبحث في الجزيرة بكاملها وشراء خروف ضحية جيد، فإذا لم يجدوا خروفا مناسبا، كان عليهم أن يعبروا إلى الأراضي الأفريقية ليجربوا حظهم هناك في الداخل حيث تتوفر فرص أفضل للاختيار. وعلى هذا النحو ترتفع النفقات ويكون أعلي منها سعر الشراء نفسه. لقد كان مالكو القطعان يعرفون جيدا مبلغ حاجة العربي الوجيه إلى هذه القطعة النموذجية وأنه يدفع برضا أي ثمن لها. ولا يجوز للمضحي ولا لعائلته أو عبيده الأكل من لحم هذه الضحية، كما لا يجوز أن يبقى منها شيء في البيت، فكل شيء هو من نصيب الفقراء.

والعيد الكبير هو بالنسبة للفقراء أهم حدث في السنة بوجه عام،

فهنا تتجسد أفضل عادات المسلمين، حيث يفرض المرء على نفسه ضريبة لصالح المحتاجين.

لا يعرف المرء في الشرق الحقيقي (باستثناء تركيا ومصر وتونس بنصف ثقافتها) شيئا عن الأوراق الرسمية والملفات، كلمة "استثمار" غير موجودة هناك. ويتكون الملك بالدرجة الأولى من المزارع مدفوعة الثمن والبيوت والعبيد، والحلي والنقود الرنانة وحسب. ويكون على المسلم وفق أحكام الدين أن يعطي العشر للفقراء مما يتبقى في نهاية السنة مما يحصل عليه من ريع مزارعه وايجار بيوته ومدخولاته الأخرى .

وفي نفس الوقت عليه أن يدع شخصا مختصا يقوم بتقدير قيمة ما يملك من حجارة كريمة وذهب وفضة ويهدي الفقراء ما يعادل عشر قيمتها أيضا. وهكذا لا يوجد هناك ضريبة دخل وحسب وإنما أيضا ضريبة على الثروة.

يجري ذلك دون رقابة من جهة عليا، فالكل ملزم من خلال شعوره الخاص وضميره. ولكن هذه التعليمات التي قال بها النبي يلتزم بها بوجه خاص، ولا يتنصل منها إلا الأكثر سوءا بين الناس. ولا يتحدث المرء عادة عن مثل هذه الصدقات، حيث يتصرف المرء حسب الموعظة التي تقول، لا ينبغي أن تعرف اليد اليسرى ما تفعله اليمنى. لا ينبغي أن يعرف لا الأب ولا الأم ولا الطفل ما أتعامل به مع ربي الكريم. ويحاول المرء بأقصى ما يستطيع من عناية أن يؤدي

واجبه حتى أصغر التفاصيل كي لا يشعر فيما بعد بتأنيب الضمير.

في هذه الظروف يصبح واضحا أن عددا كبيرا من المتسولين، إذا جاز لي التعبير، هي مؤسسة ضرورية لا مفر منها في كل دولة مسلمة، وإلا كيف كان بالإمكان أداء الزكاة؟ ولا يمكن مقارنة هؤلاء الفقراءبأية حال من الأحوال بالفقراء الحقيقيين هنا الذين يستحقون العطف، فربما كان نصفهم من الناس الذين يملكون أكثر مما يحتاجون. التسول هو تجارتهم، وقد أصبح طبيعة ثانية لهم فهم لا يشعرون بالسعادة دون استجداء. وكثيرا ما تتوارث هذه المهنة بانتظام ويخاطب المرء بهذه الكلمات: "ألا تعرفني؟ إنني إبنة، أو إبن أو زوجة ابن فلان أو فلانة، الذين اعتدت أن تعطيهم الكثير حين كانوا أحياء. لقد حللت محلهم وعندما يكون عليك أن تدفع صدقات فأرجو أن ترسلها إلى في هذا المكان أو ذاك."

وفي النذور التي تتهيأ لنا فرصة الوفاء بها عدة مرات في السنة كان يأتي مثل هؤلاء الفقراء من جميع الجهات بالمئات، ليشاركوا في تقسيم الصدقات المتعارف عليها في ذلك. وإذا كان أحدهم طريح الفراش تناوب الفقراء الذين يعرفون كيف يتسقطون الأخبار من بعضهم الوقوف تحت شباكه طول النهار، وهم يحصلون دائما على عطايا سخية تسمى في هذه الحالة صدقة. لا يرد المسلم مستعطيا في مثل هذه المناسبة ولو أعطاه آخر ما يملك. قد يكون هذا حب الآخر، أو أنه يمنح الأمل بأن الله القدير سيكون أكثر رأفة من خلال هذه

العطايا ويمنح رحمته، وعلى أي حال فإنها عادة جميلة.

تغطي الجروح والأورام الكثير من المتسولين، بعضهم مشوه تشويها فظيعا دون أنف، إنهم ضحايا مرض عضال ندعوه "بيلاس" تصاب به الأيدي والأقدام غالبا ويبقى العضو المصاب في بياض الثلج إلى الأبد. لا يريد أحد أن يقترب من هؤلاء المرضى، يتجنبهم المرء في كل مكان لأن المرض قابل للانتقال بالعدوى. لا أدري ما إذا كان هذا المرض هو الجذام. هؤلاء الذين يستحقون الشفقة أيضا يحصلون على صدقات سخية تخفف عنهم حياتهم الصعبة.

لكن الهدايا لا تتوقف مع وجبة العيد، فمن كان مريضا ومن أعيق بصورة ما، أعاقه السفر مثلا للمجيء في الوقت المعتاد فإنه لا يتنازل عن الهدية التي هي نوع من الحق. يمكن أن تمضي على العيد أسابيع أو شهور وقد يقترب العيد التالي، إلا أنه يأتي ويطلب هديته.

ليس ثمة أعياد في الشهور التسعة أو العشرة التالية، تعود الحياة المنتظمة ثانية لا تقطعها إلا احتفالات في فترات متباعدة، وقد ذكرت عددا منها وسأتحدث في الفصل التالي عن واحد آخر منها.

لا يعرف المرء لدينا الاحتفال بعيد الميلاد.

عيد الأضحى أمام نبع جمشم

حين كنت في حوالي الخامسة عشرة من العمر ارتديت ثوبا جديدا من الحرير الأحمر الموشى للمرة الأولى، شعرت بوعكة، وفي اليوم الثاني انتشر نوع من الالتهاب في جميع أجزاء جسمي تقريبا. وقد عرف الأكبر سنا الذين يملكون الخبرات في الحال أنني ضحية للسحر بما لا يقبل الشك، أو أن شخصا حسودا على الأقل أصاب بنظرته الشريرة القماش الجميل. مرتابة بوجهة النظر هذه كما كنت دائما، لم أرد أن أتخلى عن ثوبي ولبسته رغم جميع التصورات في أقرب مناسبة. ربما كانت الصبغة تحتوي على مادة سامة أو لعب سبب طبيعي آخر دوره، فقد شعرت بالوعكة ثانية وكان علي أن ألازم السرير. وقد أصبح الآن واضحا أنه لا يجوز لي أن أرتدي الثوب ثانية، فأهديته لأستعيد بعض الهدوء، إلى مواطنة لا تؤمن مثلي بالسحر. في الواقع كان علي أنا وفق العادة السائدة أن أدعهم "يقرأون عليه"، أو أفضل من ذلك أن يمزق من أجل القضاء على ذلك التأثير الشرير قضاء مبرما.

هذه فقط عينة صغيرة من الإيمان بالخرافات التي تنتشر بشكل كبير في الشرق. لقد تحدثت عن هذا سابقا وأريد هنا أن أذكر بعض التفاصيل ضمن علاقتها بوصف عيد الأضحى الذي يقوم أساسه على الغيبيات.

تعتبر بعض الينابيع ذات تأثير عجائبي بصورة خاصة، ليس الماء وإنما الروح التي تسكن وتسود فيه. إذا ما عاملها المرء معاملة صحيحة فإنها تفعل كل شيء من أجل المؤمن الذي يشعر إزاءها بالإجلال. إنها تستطيع أن تشفي المرضى وتعيد المفقودين إلى الوطن وتقود الراغبين في الزواج إلى عش الزوجية، وتمنح العقيمين أطفالا، وترقق مشاعر الأبوين الغاضبين أو أحد الزوجين أو الأصدقاء فيميلون إلى التصالح، وتعيد الأشياء المفقودة كالنقود أو العبيد أو الأغنام وتسعد الفقراء بثروة قارون: يستطيع المرء أن يتوقع كل شيء منها.

يدعى الينبوع المفضل في زنجبار جمشم، وهو يبعد عن المدينة بضع ساعات. حين يزور المرء هذا المكان يتهيأ له أن الروح بالغة القناعة وأنها ترضى بعطايا صغيرة حقا. شريط صغير لا يزيد عرضه على البوصتين يرفرف في الريح، ويجد المرء هنا حتى مجرد قشرة بيض كتضحية يقدمها فقراء أو مؤمنون محتاجون. ولكن الروح تتلقى بشكل خاص الحلوى من كل الأنواع. مساحيق عطرة وبخور، وإذا ما أراد المرء أن يضمن النجاح فعليه أن يتبرع لها بالدم.

يذهب الكثيرون ممن هم في ضائقة إلى جمشم، ليقدموا لها التضحية التي نذروها، يحتاط المرء لدى النذر بذكاء، حيث يحدد المرء فترة يتعين على الروح أن تحقق خلالها الرغبة المرتجاة، فينذر المرء لها هذه الأضحية أو تلك. فإذا لم تلتزم الروح بهذه الفترة يكون المرء في حل من وعده، فهو إذن يستطيع أن يكون حذرا. ومن جهة أخرى فإن المرء إذا نذر وفى بنذره. فإذا ما نذر ومات قبل أن انقضاء الفترة فإن أفراد أسرته يتولون الوفاء بالنذر. كثيرا ما اصطحبت وأنا طفلة صغيرة إلى مثل هذا النبع المقدس وقد كانت تلك دائما أياما جميلة مريحة. ولكن منذ أن لم أعد كيببي (السيدة الصغيرة) وإنما بيبي حقا (سيدة)، أي في سن أستطيع فيها أن أراقب بحدة وأفكر بوضوح أكبر شهدت مرة واحدة وحسب عيد أضحى رائعا.

كانت أختي خدوج، التي توفيت الآن للأسف، طريحة الفراش، وقد نذر المحيطون بها القلقون عليها أن تذهب إذا ما شفيت من مرضها واستعادت عافيتها تماما إلى نبع جمشم بنفسها وتقدم له أضحية. وقد تعافت خدوج وكان عليها أن تنفذ الوعد الذي قطع عليها.

قبل اليوم المحدد بأربعة أسابيع دعت بعض أخواتها المحببات إليها وصديقاتها ومعارفها إلى الإحتفال. وفي نفس الوقت بدأت الإستعدادات الشاملة. ما كانت زيارة عشرة حفلات اكتتاب في برلين لتستطيع أن تثير هذا القدر من الانفعال وتسبب هموما

ونفقات مثل رحلة حجنا المزمعة. فلا يكون على المرء أن يوفر احتياجاته الخاصة وربما احتياجات بضع بنات مليئات بالأمل فحسب وإنما أن يجهز أيضا كتيبة كاملة من العبيد من الجنسين، ليعكسوا من خلال ملابسهم وحليهم ثراء سيداتهم، ثم توفير عدد كبير من حيوانات الركوب. كانت السيدات يردن الظهور في مناسبة كهذه حيث يتدفق الناس بالمئات، بالبهاء اللائق بهن، فيثرن إعجاب الأخريات ويتفوقن على صويحباتهن إن أمكن. فلا عجب أن يكون للفنانين والحرفيين الكثير مما يتعين عليهم عمله ليرضوا المتطلبات الكبيرة. لا يحتفظ الجواهريون بمخزون من بضاعتهم أبدا، وإنما ينجزون كل قطعة منفردة بناء على الطلب، فيكونون محاصرين أكثر من غيرهم ويتحملون أكثر من طاقتهم. مثلما كانت توكل إليهم أيضا مهمة فحص وتلميع الحلي الذهبية والفضية للسروج وأسلحة العبيد المرصعة بالأحجار الكريمة. فقد كان على السروج خاصة أن تتألق وتلمع إذ أن حج الأضحية هذا يتحول دائما إلى ما يشبه الموكب، حيث يقدم المرء كل شيء ولا يهتم بالثمن، ومع ذلك يكون عليه أن يدفع عن قطعة حلي عشرة أضعاف ثمنها بسبب الطلب الكبير عليها. كان علينا أن ندفع مبلغا كبيرا وعرقا كثيرا ثمن اعتدادنا بأنفسنا، فقد كنا لا نبالي بالشمس الأفريقية المحرقة، ونرتدي على الرغم منها المخمل المستورد من ليون وأقمشة حريرية ثقيلة أخرى مطرزة بكثافة. إذ أن رحلة البلاط تتطلب المعاناة!

ركبت في اليوم المحدد في الخامسة والنصف متوجهة إلى أختي للمجيء بها. لم يكن الوصول إليها عبر الجمع الغفير عملا سهلا. حين استقر الجميع على ظهور حيواناتهم المزينة زينة مفرطة أعطيت الإشارة للانطلاق، ومضى الجمع البراق مثنى مثنى وهم يتندرون ويتحادثون. كانت الرحلة طويلة ومتعبة، ولكنها كانت في الصباح مريحة. أخيرا وصلنا النبع الذي يقع في مكان رائع الجمال.

وجدنا أن الإستعدادت الضرورية كانت قد اتخذت، فتحول المكان المنعزل والخالي عادة إلى بلد سحر يتعذر وصفه. كان عدد كبير من العبيد قد أتوا منذ بضعة أيام بما هو ضروري من المدينة وشذبوا العشب المرتفع، وفرشوا السجاد تحت الأشجار العملاقة للاستراحة، وعلقوا مرايا على جذوع أشجار المانغو وأسندوا إليها مخدات الظهر وأعدوا كل ما يحتاج إليه. وكان الذبح والطبخ والقلاء قد تم في اليوم السابق من أجل الوليمة السارة.

أعدت المائدة بعد وصولنا بقليل فجلسنا لتناول الإفطار في ظل الأشجار التي سطعت زرقة السماء العميقة من بين أوراقها العريضة هنا وهناك. لقد انطبعت هذه الصورة عميقا في ذاكرتي. المجتمع المتألق جمالا بالملابس الملونة والحلي الثمينة بين النباتات الكثيفة الرومانسية الفطرية لغابة استوائية، أمام نبع ينهمر منه الماء بحيوية، أجمل منتجات الفن البشري وسط أغنى طبيعة فطرية، صورة لا يستطيع خيال رسام تصورها حقا، ولكنها تطابق تماما الوصف

الأسطوري في "ألف ليلة وليلة".

وقد رفعت السروج عن الحمير العمانية الكبيرة في الحال بعد أن قفزت راكباتها من فوقها بنزق أو هبطن عنها فوق ظهر خصي انحنى ليجعل من ظهره درجة. قيدت قوائمها الأمامية بحبل قصير ليجعل هربها صعبا وسيقت إلى المرعى، فبقيت هناك طول النهار دون مراقبة و لم يعد بها المرء إلا بعد الظهر.

تأهبنا بعد حوالي ساعتين من وصولنا لتقديم الأضحية التي جيء بها إلى هنا. كان لروح النبع في هذا اليوم أن تنتعش وتبتهج بدم ثور منتقى، عدا جميع الحلويات والكميات الهائلة من البيض النيء الذي كسر على حافة الماء. وقد قدمت لها رايتان أيضا، واحدة حمراء بلون الدم هي علم بيتنا والثانية بيضاء كإشارة للسلام.

كان موقع استراحتنا يبعد بضع دقائق عن المكان الذي ينبثق فيه الماء من باطن الأرض، ذهب الجمع بأكمله إلى هناك ليشهد الطقوس. تقدمت خادمة لأختي من أصل النبع وألقت كلمة مخاطبة بها الروح. تحدثت عن المرض الشديد الذي أصاب سيدتها وكيف كان على المرء أن يلجأ إلى النذر كوسيلة أخيرة. شكرت الروح الرحيمة التي أعادت إلى سيدتها العافية أخيرا، والتي جاءت بنفسها لتقدم أضحية الشكر المنذورة.

جيء بالثور وذبح، تلقى المرء الدم بعناية ورشه فوق النبع وما حوله، وقد نثرت كمية كبيرة من ماء الورد أيضا. وألقي المسك

والعنبر في أواني البخور الفضية التي امتلأت بجمر فحم الخشب فنشرت عطرا لطيفا. وقد اختتمت الطقوس ببعض الصلوات التي تليت وقوفا.

حصلت الروح غير المنظورة من الضحية على دمها فقط والأعضاء الكريمة مثل القلب والكبد، التي قطعها المرء قطعا صغيرة ونثرها حول النبع. أما باقي اللحم فقد كان ينبغي توزيعه طبقا للعرف على الفقراء، إذ لا يجوز للمضحية ولا أقاربها الأكل منه. ولكن لأن نبع جمشم بعيد عن المدينة، و لم يكن ثمة فقراء في المنطقة القريبة المحيطة به، فقد إتفقنا مع الروح اتفاقا صامتا على أن نتناول لحم الأضحية بسبب بعد المسافة، وهكذا أصبح لحم الأضحية جزءا من غدائنا.

كانت لدينا فرص كثيرة خلال إقامتنا في مكان الاستراحة أن نلاحظ أن هذه أو تلك من المجموعة اختفت وقتا قصيرا وتجنبت بحياء أي سؤال عن غيابها. وقد تجنب المرء أيضا الإلحاح عليها. كن يذهبن في هدوء تام إلى النبع العجيب ليشكون للروح القادرة بسرية همومهن ومتاعبهن الجسدية والذهنية، وخاصة حبا غير موفق، وطلب مساعدتها. بالطبع كانت الواحدة تريد أن تكون وحيدة أمام النبع، وقد كان مخجلا دائما حين تلتقي اثنتان مثقلتا الروح في المكان الهادئ على غير انتظار.

لم يكن الوفاء بجميع النذور بمثل هذه العلانية ممكنا بطبيعة الحال، فلم يكن المرء يريد أن يكشف أسراره الخفية لألسنة الناس الأحياء التي

لا ترحم. فإذا تحققت رغبة سرية جدا، فإنه يجوز إرسال وكيل مع الضحية الموعودة إلى النبع سرا ودون ضجيج، ولكن فقط حين يكون قد اتفق على هذا اتفاقا واضحا لدى النذر. وعلى العكس حين تعلق الأمر بالشكر على الشفاء من مرض عضال، أو الرجاء بعودة حبيب مفقود، أي عندما لا يكون ثمة ما يحتاج المرء إلى إخفائه عن الناس، فيكون احتفال الأضحية عندئذ رائعا ويحتفل به بكل الفخامة الممكنة.

قضينا الوقت حتى الرابعة بعد الظهر في تناول الطعام واحتساء الشراب وماء جوز الهند وعصير الليمون، وفي النزهات واللعب والاستراحة والصلاة. ثم جيء بالخيول والحمير من المرعى لسرجها، فانبثقت ثانية صورة جديدة مفعمة بالحياة. يتطلب سرج المطايا خاصة بسروج للنساء مهارة خاصة، ربما لا يملكها إلا واحد بين عشرين عبدا. وكثيرا ما رأيت سيدة تنزلق بعد ربع ساعة مع سرجها بأكملها تحت جسم حيوانها وتصبح موضعا للضحك الفظيع. فإذا كان ثمة من يملك مثل هذا الإنسان الحاذق في عربات إمداداته، كان الجميع يحاولون بحماسة كسبه وتكليفه بتلبية طلبات السيدات الأنيقات النشيطات، نافدات الصبر.

ويمتحن الصبر امتحانا صعبا بطريقة أخرى أيضا. فلأن الزنوج يتميزون إلى جانب رذائلهم الأخرى بأنهم كثيرو النسيان ولا يقومون إلا بما هو ضروري، فإن ثمة وقتا طويلا يمضي حتى يكون

كل شيء جاهزا. وبين حين وآخر يعرف حمار أيضا كيف يتحرر من قيوده، فيهرب ويضع السيدة في موقف حرج. باختصار ثمة سبب دائما للانزعاج ومبررات جديدة للخصومات. فتمر ساعة قبل أن يستطيع الجميع الركوب.

ثم تركب الواحدة حيوانها وتجلس ثابتة في السرج المرتفع (وويل للمسكينة التي لا تحسن الركوب فإنها ستتعرض للسخرية والضحك دون رحمة) وتنطلق وسط قرقعة وصليل سلاح عبيدها ووسط مئات النداءات المشجعة في خبب بهيج باتجاه المدينة. لقد سبق أن ذكرت بأي سرعة يستطيع العبد أن يركض. وفي مناسبات كهذه بالذات حيث تكون ثمة نساء غريبات عنا مع عربات إمداداتهن، فإنهم يعرضون فنهم الأجمل. فإذا أردت أن أتوقف أو أنتظر أختا أو صديقة لي لأتبادل الحديث معها خلال الرحلة، فإنني أواجه لدى عدائي المتصببين عرقا رفضا شديدا. كان بالنسبة لهم قضية شرف أن يكونوا أول من يصل الهدف. رغم أنه يبدو أمرا غير قابل للتصديق، فهؤلاء الناس الذين كانوا قليلي التبصر في غير هذه الأحوال، يستطيعون السيطرة على أنفسهم فلا يفرطون في الأكل فيثقلون أجسامهم قبل مثل هذا الجري.

نتوقف في مناسيموديا أو نغامبو مرة أخرى للصلاة، ونركب ثانية بعد حلول الظلام مجتمعين لنمضي إلى المدينة حتى باب بيت أختي. تسود مرة أخرى.فوضى نشيطة، ينزل المرء ليودع خدوج ويجد

صعوبة كبيرة في شق طريقه بين الحمير والخيول والناس. نحن الأخوات وأقرب القريبات كان لنا الامتياز في عدم الترجل حسب الآداب، فما كاد السرب يتفرق ولم نعد نخشى أن نؤذي أحدا بحميرنا اتجهنا إلى خدوج وودعناها. بهذا انتهى ذلك الاحتفال الذي ظل بسبب روعته موضوع أحاديثنا الرئيس أسابيع طويلة.

الأمراض والعلاج الطبي، المسكونون

ينشأ الناس في الشرق دون عناية واعية بالبدن وبالصحة. نادرا، وفي حالات المرض الشديد وحدها يحاول المرء أن يستعين بالعلاج الطبيعي، لكن الطرق التي يتبعها ليست سوى شعوذة.

تلعب الحجامة البغيضة في هذا دورا مهما، تعذيب لا ينجو منه سوى الأطفال الصغار. فإذا أصيب أحدهم بالجدري أو الكوليرا، أو شكا من مختلف الأوجاع، فالحجامة هي العلاج لكل شيء. وتستخدم أيضا كوسيلة وقائية فيجريها المرء مرة في السنة حتى لو كان معافى تماما ولا يشكو شيئا، تماما كما كانت العادة في أوروبا سابقا، إذ يعتقد المرء أنه بذلك ينقي الدم ويقوي الجسم في مواجهة مرض مقبل.

ويستخدم لدى الوجهاء فصد الوريد بدل الحجامة بطريقة مماثلة تماما. ولا يلاحظ المرء حذرا شديدا في ذلك. لا زلت أتذكر حتى اليوم المنظر المرعب التي قدمته لي ذات يوم واحدة من أخواتي في ممر مظلم تقريبا في بيت المتوني. حملت دون حراك وقد شحب لونها

مثل جثة من قبل المخلصين لها. أطلقت صرخة مريعة وأنذرت كل من كان في البيت. وببطء فقط أستطاعت التأكيدات بأن أختي لم تكن ميتة كما خشيت، وإنما مغشي عليها على أثر فقد كمية كبيرة من الدم عند الفصد أن تعيد إليّ الهدوء. لقد كانت حالتها خطرة بالفعل و لم تستعد المسكينة عافيتها إلا بعد وقت طويل.

لا أستطيع أن أحكم ما إذا كان مثل هذا الفصد في المناخ الحار بين حين وآخر مفيدا للجسم. وعلى أي حال فإن الطريقة التي يتبعها المرء في ذلك تتضمن مخاطر كبيرة.

أما تدليك الأعضاء فإنه يريح الجسم بالتأكيد. لقد سبق أن ذكرت أن المرء ينام ويوقظ تحت التدليك الخفيف، وقد تحدثت أيضا عن المهارة الكبيرة التي تملكها إماؤنا في ذلك. هذا التدليك وسيلة متبعة جدا ومفضلة أيضا في حالات التوعك من جميع الأنواع وهو رائع لجميع "آلام البدن".

ويعتمد المرء بنفس القدر على القيء البغيض أيضا، وتوجد لهذا الغرض أعشاب مخيفة، تغلى معا لتكون سائلا كريها يتوجب على المريض شربه، تكفي رائحته وحدها لتحدث التأثير المطلوب.

في الأمراض الصعبة يتوجه المرء إلى الله وتعتبر آيات القرآن جالبة للشفاء. يكتب شخص معروف لدى الناس بالورع العبارات المناسبة بمحلول من الزعفران على طبق أبيض. وينحل الخط بالماء (أو ماء الورد غالبا) ويعطى هذا الخليط للمريض ليشربه. عليه أن يتناول هذا

الدواء ثلاث مرات في اليوم، في الصباح وعند الظهر وفي المساء، ويجب في ذلك تجنب سقوط قطرة من السائل المبارك على الأرض. وقد كان علي أنا نفسي أن أتناول هذا الدواء فترة طويلة حين رافقتني حمى شديدة طيلة ستة أسابيع.

وحين يكون أحد المقربين إلى أبي في حالة مرض شديد فإنه يؤتى بين حين وآخر كحالة استثنائية برجل، قد يكون طبيبا حقيقيا أو ساحرا، يسمح له بعيادة المريض. وهكذا فإني لا زلت أتذكر أن أختي خولة كانت قد عانت من ألم شديد في الأذن ولم تنفع معه كل المسوحات المستخدمة فاستقدم طبيب فارسي شهير من أجلها. كنت لا أزال طفلة صغيرة فسمح لي أن أحضر طقوس الفحص. لفت خولة تماما بالشيلة حتى لم يعد التعرف عليها ممكنا، ولم يظهر منها سوى أذنها المريضة، جلست في هذا القناع طيلة المدة التي سبق وصفها. يستند ظهرها على التكية الثمينة، وقف أبي إلى يمينها وأخي خالد إلى يسارها، بينما وقف إخوتي الآخرون الأصغر سنا حولها في حلقة، وكان الأخيرون في ملابس الخروج الكاملة، بأسلحتهم الكثيرة. دخل الآسيوي إلى غرفة المريضة يرافقه عدد كبير من الخصيان بعد أن كان خصيان آخرون قد اتخذوا مواقعهم في نقاط مختلفة من البيت كحراس، ليتمكنوا من إعطاء الإشارة لسكان البيت من النساء بالتراجع عند مرور الفارسي. لم يسمح للحكيم طبعا أن يتحدث بنفسه مع المريضة؛ وإنما كان عليه أن يوجه أسئلته إلى أبي أو إخوتي

المهيبين ويتلقى منهم الجواب أيضا.

حين أصبت في وقت لاحق بالتيفوس وسقطت بضعة أيام في حالة هذيان و لم تنفع جميع العلاجات العربية والسواحيلية قررت عمتي عائشة أن تستعين بطبيب أوروبي. ولأن أبي لم يعد على قيد الحياة، كنت قد أصبحت سيدة نفسي إلى حد ما، ولذلك لم أكن بحاجة إلى مثل تلك الطقوس التي جرت في حالة خولة. وقد طلب الطبيب المعني والذي يعرف العادات العربية أن يجس نبضي، وهو ما سمحت به عمتي القلقة عليّ بعد تفكير طويل. وقد استخدم طابور من الخصيان لهذا الغرض ولففت في شيلتي كما حدث مع خولة. في هذه المناسبة كنت في حالة إغماء وقد روت لي عمتي فيما بعد تفاصيل ما جرى. حين طلب الطبيب أخيرا أن يرى لساني نهره جوهر، رئيس الخصيان الذي وجد أن طلبه أمر غير لائق، بطريقة جعلت ايسكولابيوس (إله الشفاء) الشاب الذي شعر بأنه أهين في مهنته يغادر بيتنا حانقا دون أن يتم عمله.

حيث يحاول المرء أن يشفي بمثل هذه الوسائل العامة، فإن هناك دائما معرفة ناقصة أو بالأحرى جهلا بالجسم البشري، بوظائفه المنتظمة واضطراباتها. لا يعرف العربي شيئا من كل هذا، وهكذا فإنه لا يستطيع أيضا أن يصنف الأمراض. فجميع الأمراض الباطنية تنضوي لديه تحت صنفين: أوجاع الجسم وأوجاع الرأس. فسواء كانت المعدة أم الكبد أم الطحال أم أسفل البطن فإن المرء لا يعرف

سوى تشخيص مشترك هو "أوجاع البدن"، أما "أوجاع الرأس" فهي كل ما يصيب الرأس حتى تلين الدماغ وضربة الشمس. إذ لا يستطيع المرء البحث عن الأسباب الحقيقية للألم. فإذا لم تنفع جميع العلاجات المنزلية فإن المرء يرسل أحد الخصيان إلى واحد من أطباء القنصليات الأوروبية ليطلب دواء. وهنا يمكن للمرء أن يفترض أن الطبيب سيجد نفسه في وضع صعب، إذ لا يجوز له رؤية المريضة ولا يحصل عن مرضها إلا على معلومات غير مؤكدة، ومن المفهوم أيضا أن المريضة لاتحصل في أغلب الأحوال على الدواء الصحيح وتحصل في أحسن الأحوال على الدواء الأقل ضررا.

ولا يعرف المرء الحمية الغذائية أيضا. فإذا كانت للمريض بالتيفوس أو الكوليرا أو الجدري شهية لطعام ما، فإن له أن يتناول كل ما يستطيع المطبخ أن يقدمه دون تحفظ، إذ يرى المرء أن ما تطلبه الطبيعة يحتمله الجسد. يسود في كل مكان الإعتقاد الثابت بأن كل شيء بيد الله. وهذا الاعتقاد يعمي المسلم في أغلب الأمراض عن خطر العدوى، فلا أحد يفكر أن يعزل المريض بالجدري عن الآخرين عزلا تاما. وهذه النظرة ذات الجذور العميقة تعيق بنفس القدر الإجراءات الصحية الوقائية. كان الحمام الفارسي بين بيت الساحل وبيت الثاني الذي كان يربط البيتين كما ذكرت سابقا بحاجة إلى إعادة بناء وقد تحول تماما إلى حفرة للقمامة، وقد بنى المرء حين ازدادت مشكلة السكن في أرض هذا البناء الذي تحول نصفه إلى أنقاض غرفا مؤقتة

فأقام سكانها على القمامة وهو أمر معروف كم يؤثر هذا الاعتقاد في محاولات ضرب الحصار على الكوليرا أو مراقبة قوافل الحجاج.

أريد هنا أن أتناول شيئا واحدا حول بعض الأمراض. ينتشر الجدري في زنجبار بشكل مستمر للأسف ويذهب ضحيته الآلاف. يغطى جسم المريض بأكمله بمرهم من الكركم "الجسو" ويترك في الشمس، أو يمسح المرء البثور بحليب جوز الهند الذي يفضل على مرهم الكركم الذي يسبب حرقة. وإذا ما غطت القروح الجسم شيئا فشيئا و لم يعد المريض قادرا على احتمال دفء السرير فإن المرء يدعه يضطجع على حصيرة ناعمة من القش أو على ورقة كبيرة غضة من أوراق شجر الموز إنتزعت منها ضلوعها الصلبة بعناية. هذه هي التخفيفات الوحيدة التي يحظى بها المريض، حيث لا تستعمل العلاجات الداخلية، ويجنبه المرء الماء فقط.

أما السل الذي لم يكن ضيفا نادرا أيضا في جزيرتنا، خاصة المهلك منه فإنه يترك دون رعاية، إذ لا يملك المرء له علاجا. إلا أن هذا المرض بالذات هو الأكثر إخافة، فهو مرض معد كما يدعي الأطباء الأوروبيون، ليس دون حق. يتجنب الناس في حذر الشخص المسلول فتزداد معاناته. يتجنبون الجلوس حيث يكون المسكين قد جلس ، ويكرهون أنفسهم على مصافحته ولا يشربون أبدا من إناء مسته شفتاه. لقد عانت واحدة من زوجات أبي وهي شابة رائعة الجمال معاناة لا توصف من هذا المرض، وقد ظلت حتى الأخير

تغادر مضجعها قبل الظهر وتزور بقية سكان البيت. لم يغب عن عيني الطفلة التي كنتها كيف كان الكل لا يرغب بزيارتها، وقد آلمتني حالتها جدا، وحين لم تعد قادرة على مغادرة سريرها في الآخر، كثيرا ما تسللت إليها لأقدم لها هذه الخدمة أو تلك، ولكن سرا بالطبع. كان لها إبن صغير فقط و لم تكن لها إبنة تعتني بها.

لقد راح ضحية هذا المرض الغادر عدد غير قليل من أحبائي في ريعان الشباب! ويعامل المرء مخلفات المريض بعد موته أيضا بحذر شديد، فتغسل الثياب وأغطية السرير خارج البيت على شاطيء البحر، ويسخن الذهب والفضة لإخراج المادة المعدية منهما.

وكان السعال الديكي المخيف كثير الإنتشار بين الأطفال كما هو الحال هنا. ويعطى المرضى به كمية كبيرة من "ماء الندى" يجمع كل صباح من على أوراق الموز العملاقة. وعدا هذا يستخدم المرء طريقة قائمة على الغيبيات. يقطع المرء من قشرة يابسة لنوع من القرع يسمى "هواشي" عددا كبيرا من الأقراص الدائرية بحجم المارك، ينظمها في خيط غليظ ويعلق هذه القلادة الشافية حول عنق الطفل. ومن الأمراض الشائعة أيضا نوع من الأورام المؤلمة حقا، تعالج بلصق قشرة البصل البنية اليابسة عليها، والتي تقوم مقام البلاستر الانكليزي. ويضع المرء عليها عجينة دافئة لتنفتح.

وهكذا يرى المرء أن الوسائل البسيطة تستعمل في كل شيء، لا يوجد علاج طبي، لا يوجد أطباء على الإطلاق. ولا يعرف المرء ماذا

يعمل، أفيكون غريبا أن يلجأ المرء إلى العجيب، وأن يتوجه إلى العرافة؟ هاته البصارات، هكذا يسمين، هن نساء مطلوبات ويكسبن الكثير. كنا نستشير عند المرض عادة إمرأة عوراء في حوالي الخمسين من العمر تنحدر من حضرموت، أي أنها كانت شِهرية، كانت أدوات سحرها تتكون من كيس قذر جدا يحتوي على أشياء من مختلف الأنواع: أصداف صغيرة، حجارة بحرية صغيرة، عظام شاحبة من جثة حيوان ما وكل ما يمكن تصوره من كسر الخزف والزجاج ومسامير حديد صدئة وقطع نقود نحاسية وفضية معوجة، وأشياء أخرى من هذا النوع. فإذا كان عليها أن تجيب على سؤال فإنها تدعو إلى الله أن يجعلها ترى وتنطق بما هو صحيح، تفتح كيسها وتخلط ما فيه ثم تفرغه أمامها. وحسب موقع كل هذه الأشياء الصغيرة تجيب عما إذا كان المريض سيشفى أم لا وهكذا. يبدو أن الصدفة خدمت البصارة أكثر من غيرها فكثيرا ما صحت تنبؤاتها في المرات التي شاركت فيها في فنون سحرها، وكانت تربح الكثير بذلك، فقد كانت تحصل في الحال على منحة صغيرة، ولكن كان المرء يقدم لها دائما هدية طوعية كبيرة إذا صدقت كلماتها.

كان علاج الجروح الخارجية أسهل من الأمراض الداخلية بالطبع. حيث تساعد غالبا الطرق المنزلية المعتادة، فتستخدم خرقة االإشتعال لوقف نزيف الجروح المفتوحة وما يشبه ذلك. أخطر من ذلك كسور العظام كما جربتها بنفسي. كنت لا أزال صغيرة جدا فلم أكن مؤهلة

للجلوس إلى المائدة. كان أبي قد أرسل لي مرة أخرى صحنا مليئا بالطيبات، وقد هبطت السلم في عجالة لأري أمي كل الأطعمة الرائعة، فزلت قدمي في عجلة الفرح وسقطت فانكسر ذراعي. ربطت عمتي وأخي برغش ذراعي، لكنهما لم يعيداه للأسف إلى وضعه الصحيح، فبقي حتى اليوم مائلا قليلا ويذكرني كل يوم بتلك السقطة وضائقة قومي في ألا يكون لديهم طبيب.

لم أتطرق حتى الآن لموضوع مهم، السيد الشيطان! من المعروف أن الجميع في الشرق تقريبا يؤمنون بوجود الشيطان الحقيقي، وربما أقل من ذلك بأنه يحب السكن في الإنسان. لا يكاد يوجد طفل بيننا لم يسكنه الشيطان مرة. ما أن يفرط مولود في الصراخ لأي سبب كان، أو يكون قلقا، حتى يعتقد أنه مسكون بالتأكيد ويعمد المرء إلى إخراج الروح الشريرة منه. يلظم المرء بصلات صغيرة جدا وثوما في خيط مثل الخرز ويعلق هذه القلادة حول عنق وذراعي الطفل. الوسيلة بسيطة وليست عديمة الجدوى كما يبدو للوهلة الأولى، فلو كان الشيطان يملك حقا حاسة شم فإنه لن يصمد أمام هذا الهجوم.

وكثيرا ما كان الشيطان يسكن الراشدين أيضا، نادرا الرجال ولكن كثيرا من النساء وبين الحبشيات خاصة يصاب نصفهن. الأعراض الخارجية هي نوبات التشنج، فقدان الشهية وتبلد الإحساس عامة، الميل إلى العزلة في غرفة مظلمة وأعراض مرضية مشابهة. ويحاط الشخص المشتبه بأنه مسكون بهالة خاصة فيكرم أو يخاف منه

بصورة غير عادية. ولكن يتوجب التأكد من أن الشخص مسكون بالأرواح حقا فتجري طقوس فحص خاص لهذا الغرض. تدعو المرأة أو أفراد عائلتها عددا من الناس المعترف بأنهم مسكونون إلى هذه الطقوس. يشكل هؤلاء المساكين فيما بينهم ما يشبه عصبة سرية ويخفون ما يفعلونه عن أعين الناس.

وهكذا تجلس المريضة في غرفة مظلمة وتلفع بشيلتها تماما فلا يبلغها حتى أخفت شعاع ضوء. هنا يبدأ بتدخين المريضة حرفيا، بأن يمسك بإناء البخور تحت الحجاب أمام أنفها مباشرة. يغني الحاضرون حولها أغنية غريبة ويهزون رؤوسهم بين حين وآخر. ويقدم هنا سائل حبشي، خليط من الحبوب والتمر، سلق حتى كاد ينضج وهو شراب ليس سيئا. تحت كل هذه المؤثرات تبدأ الضحية في السقوط في حالة تشبه التنبؤ، وتتحدث كما قيل لي، بلغة مفككة. وأخير تصل إلى حالة التجلي التام، تعربد بفم مزبد، تتلفظ بخليط من كلمات مضطربة: الروح داخلها الآن. يبدأ الحاضرون بالحديث معها والاستطلاع عن نواياها. فلا تسكن الأرواح الشريرة وحدها المريضات وإنما الأرواح الخيرة أيضا بدافع الحب والميل إلى الإلتصاق بها فهي تريد حمايتها والحفاظ عليها طول حياتها. وكثيرا ما تتنافس أثنتان من هذه الأرواح، أحداها خيرة والأخرى شريرة على شخص وتظهر كلتاهما في هذه الطقوس. فتتبع هذا مشاهد مرعبة، لا يتحمل إلا القليلون من الذين يتمتعون برباطة الجأش حضورها حتى النهاية.

وليس نادرا أن تطرد الروح الشريرة من قبل الأستاذات الخبيرات. وعلى العكس يوثق المرء مع الروح الخيرة عقدا ثابتا، يتفق فيه على أن تزور الروح ضحيتها في أوقات محددة فقط، حيث ينتظرها استقبال احتفالي، وعليها أن تخبر من تحب بما سيحدث لها ولأفراد عائلتها من خير أو شر.

ترتبط بهذه الأعمال الغيبية الشريرة للأسف فجاجات أخرى. لا يتحمل الكثير من المسكونين أن تذبح الأضاحي (دجاج وماعز) التي خصصت لاحتفالاتهم الغامضة قبل ذلك، ليشربوا دمها دافئا ويلتهموا فضلا عن هذا اللحم النيء. وهم يحتاجون إلى البيض النيء بالدزينات. أما المساكين الذين يخضعون لفحص ما إذا كانوا مسكونين حقا فإنهم يبقون بعد ذلك طريحي الفراش طيلة أيام.

وقد لاحظت هنا أيضا أن الأمثلة السيئة بالذات أسرع تأثيرا في الناس عادة. ورغم أن جميع المسلمين يميلون إلى الاعتقاد بالغيبيات فإن العمانيين بعيدون جدا عن الاعتقاد بهذا الهراء. إلا أنهم حين يأتون إلى أفريقيا، يجدون في البداية أن الأوضاع اتخذت صورة زنجية تماما ويودون لو عادوا إلى الوطن في الحال. ولكنهم بعد وقت قصير يصبحون الأكثر قبولا لما كانوا قد استنكروه منذ وقت قصير، ويتبنون وجهة النظر التي تفرض هذه الفحوص. وقد عرفت شخصيا واحدة من هذا الطراز، كانت من قبل عربية مستنكرة، ثم أصبحت مقتنعة قناعة راسخة بأنها مسكونة من قبل روح شريرة، جعلتها

تمرض مرارا في الفترة الأخيرة، وأن عليها للتصالح مع هذه الروح أن تقيم احتفالا.

حسنا نكتفي بهذا القدر من هذه الأشياء المحزنة!

ولكني أود أن أسمح لنفسي في الختام بسؤال: ألم يكن أفضل وأكثر إنسانية أن ترسل طبيبة أنثى إلى زنجبار بدلا من الكحول المفسدة للأخلاق؟ أينبغي أن تكون الأفضلية دائما لفساد الحضارة؟ ثمة حقل واسع هنا لمحبة الآخر المسيحية، وهو أكثر فائدة بمئات الأضعاف. والأمر ليس صعبا جدا. وأنا نفسي مستعدة، إذا قررت أية جمعية أن ترسل شخصية مناسبة، أن أساعدها في تعلم العربية والسواحيلية، فهذا أقل ما أستطيع أن أخدم به وطني الحبيب. ومن الناحية المالية فإن المشروع سيكون مربحا. ولكن ينبغي أن تكون طبيبة إمرأة، فهي تستطيع أن تؤثر في الشرق أكثر من عشرة رجال. فإذا كانت النساء يفضلن هنا زيارة الطبيبة في حالات كثيرة، فإن عددهن سيكون أكبر في الشرق لدى المسلمين.

وبطبيعة ودودة مرحة ومتساهلة لا يصعب كسب قلب الشرقيات، وستشعر السيدة بعد وقت قصير بأنها كوفئت وتستطيع أن تقول إنها تقوم بعمل طيب جدا.

الرق

يتناول هذا الفصل موضوعا مثيرا للجدل، أعرف أنني لن أكسب أصدقاء كثيرين من خلال وجهة نظري فيه، غير أنني أجد من واجبي أن أعبر عنها. لقد واجهت جهلا حول هذه القضية في كل مكان، وغالبا ما يغفل حتى أكثر المطلعين أننا هنا لسنا أمام مجرد مساع إنسانية من جانب الأوروبيين وإنما تختفي وراء ذلك مصالح سياسية.

كنت لا أزال طفلة حين انقضت المدة المتفق عليها بين أبي والانكليز، والتي يكون جميع العبيد المملوكين للرعايا الانكليز وهم من الهنود والبنيان، بموجبها أحرارا. كانت فترة صعبة بالنسبة للمالكين، و لم يتوقف نواحهم وشكواهم. أرسل الأكثر وجاهة نساءهم وبناتهم إلينا وتوسلن أن نساندهم، رغم أننا لم نكن قادرات على مساعدتهم تماما. وقد كان بعضهم يملك لاستثمار أراضيهم مئة عبد أو أكثر. أصبح كل هؤلاء أحرارا في يوم واحد ولحق أسيادهم الدمار، فلم يعد ثمة عمال، و لم يستطع هؤلاء أن يزرعوا أراضيهم وما عادوا يجنون تبعا لذلك محاصيل منها. وقد أصبحت سعادة جزيرتنا

الجميلة موضع الشك، والآن أصبح يملكها بضعة آلاف من الكسالى والمتشردين واللصوص. لقد رأى الأطفال الكبار المحررون أن جوهر حريتهم يكمن في أن المرء لم يعد بحاجة إلى العمل وأرادوا أن يحتفلوا بهذه الحرية دون أن يهتموا بأنهم لم يعودوا يحصلون من أسيادهم على مأوى أو نفقات عيش. لم يعد المرء يسمع عن الحواريين الإنسانيين للجمعيات المعادية للرق، لقد بلغوا هدفهم وحرروا الضحايا المساكين من العبودية التي لا تليق بالإنسان، أما ما حدث لهم بعد ذلك فذلك ما لا يهمهم. حاكت سيداتهم في أحسن الأحوال، ليجعلن الهراء كاملا، جوارب من الصوف لسكان الجنوب الحار. ولحكام هذه البلدان أن يتدبروا أمر هذه الجماعات الكسولة. إذ سيؤكد كل من عاش بعض الوقت في أفريقيا أو البرازيل أو أميركا الشمالية أو في أي مكان يوجد فيه زنوج: أن العنصر الأسود إلى جانب جميع الفضائل التي يملكها، غير محب للعمل بشكل كبير ويحتاج إلى إشراف دائم.

لم يعد يحق للرعايا الانكليز وحدهم، أكرر هذا، امتلاك العبيد منذ ذلك الوقت. لم تستطع إنكلترا أن تملي على أبي ما يفعله في بلاده، وهكذا فإن العبودية لا تزال موجودة في زنجبار حتى اليوم، مثل جميع البلدان الإسلامية. غير أن على المرء أن يتجنب تشكيل رأي عن العبودية في الشرق وفق ما سمعه عنها في أميركا الشمالية أو البرازيل. فعبد المسلم يعيش في وضع أفضل كثيرا ولا يمكن مقارنته بذاك.

أسوأ ما في هذه المؤسسة هي تجارة الرقيق، سوق المساكين من داخل القارة إلى الساحل، حيث يموت عدد لا يحصى منهم في مسيرتهم الطويلة من الإعياء أوالجوع والعطش، وهو ما على قائدهم أن يتحمله معهم. ومع هذا العناء فإنه لهراء أن يوصف تاجر العبيد بأنه شرير بشكل خاص. من مصلحته أن يخرج بهؤلاء الناس بصورة جيدة ما أمكن، فكثيرا ما يستثمر كل ثروته في قافلة كهذه.

فإذا ما بلغ المرء الهدف بنجاح، حصل العبيد على ما يحتاجونه من كل النواحي. عليهم بالطبع أن يعملوا دون أجر لسادتهم، ولكنهم أيضا متحررون من الهموم. فعيشهم مضمون، ويحرص سادتهم على راحتهم. أم أن كل من لا يكون مسيحيا هو مخلوق لا قلب له؟

يحب الزنجي الراحة أكثر من أي شيء آخر ولا يذهب إلى العمل إلا حين يتوجب عليه أن يفعل ذلك، وهكذا فإنه يحتاج إلى مراقبة صارمة، وهو ينجز حصة صغيرة من العمل إذا ما قورنت بمتطلبات العمل هنا. وهم ليسوا جميعا أطفالا مثاليين، فبينهم أيضا لصوص ومدمنون على الكحول وهاربون، ومشعلو حرائق. ماذا يفعل المرء مع هؤلاء؟ لا يمكن أن يتركهم المرء دون عقوبة وإلا عمت فوضى كبيرة. ولا يكترث مثل هؤلاء بالسجن، وعلى العكس سيبدو لهم مريحا على العموم أن يقضوا عدة أيام في مكان بارد يحلمون وينامون طول الوقت لا يقاطَعون إلا لتناول الطعام، ليتابعوا وقد تقووا طريق الشر بعد ذلك. ومن المؤكد أن نصف العبيد من الزنوج

سيبذلون جهدهم ليستحقوا مثل هذه الإقامة المريحة.

في مثل هذه الظروف لا تبقى سوى وسيلة واحدة شافية كمخرج: عقوبة الضرب. يثير المرء هنا ضجة كبيرة حول هذا في أوساط معينة بالطبع تنطلق دائما من النظريات فقط، وترفض أن تدرس الأوضاع العملية. إن الضرب بلا ريب غير إنساني، ولكن، أيوجد بديل لذلك! ثمة ملاحظة عارضة، أما كان ينبغي أن يعاقب المرء البعض من آلاف السجناء هنا بين حين وآخر بالضرب بدلا من المعاملة الإنسانية في غير مكانها والتي تساوي بين الجميع؟

يُدان الطغيان في كل مكان بحق سواء أطال زنجيا فقيرا أم إنسانا متعلما يكدح في منجم في سيبيريا، ولكن ينبغي أن يكون المرء منصفا، ليس كل مؤسسة هي عادلة أو غير عادلة في كل مكان، فالعبودية مؤسسة قديمة جدا لدى الشعوب الشرقية، أشك في إمكانية القضاء عليها، وعلى أي حال فإنه لمن الحمق أن يراد إسقاط عادة قديمة دفعة واحدة. فكل أمر طيب يحتاج إلى وقت، ثم يكون على المرء أن يعطي مثلا للشرقيين. يحتفظ عدد كبير من الأوروبيين في الشرق بالعبيد ويشترونهم إذا كان في ذلك مصلحتهم. بالطبع لا يبلغ المرء عن ذلك في وطنه أو يتذرع بأنه يفعل ذلك في "خدمة العلم". وهكذا يكون على العلم أن يصبح غطاء يستر الكثير من الشرور. وإذا كان العربي يستخدم العبيد في العمل الزراعي أو المنزلي ويستخدمهم الأوروبي المتحضر كحمالين حيث يكون العمل غالبا أصعب كثيرا،

فإن الأمر متساو، حيث يبقى الجانب الأخلاقي في الحالتين واحدا. ومالكو العبيد الأوروبيون هؤلاء ليسو دائما إنسانيين إلى حد يجعلهم يمنحون الزنوج الحرية فيما بعد كما يفعل العربي غالبا، وإنما يبيعهم السيد ثانية حين لا يعود بحاجة إليهم. لقد أثار يومها استياء شديدا بين سكان زنجبار المسلمين أن إنكليزيا باع عبيده قبل ذلك دون مراعاة، بالطبع ليس في السوق العام، حيث تقوم الآن كنيسة انكليزية، وإنما سرا إلى موظف عربي.

وثمة حالة أخرى لم تكن أقل إثارة للإستياء لدى جميع العرب. عاقب سيد يقع بيته قرب القنصلية الفرنسية مباشرة، عبده العنيد بالعقوبة التي استحقها. ولأن الزنوج جبناء بوجه عام ولا يستطيعون تحمل الألم بهدوء، فقد أحدث العبد الذي لا يصلح لشيء، ضجيجا فظيعا وتسبب من خلال ذلك بتدخل متعجرف من قبل القنصل الفرنسي. لم يكن هذا الرجل نفسه بالتأكيد حواريا مخلصا وبدا أنه يؤمن بمبدأ: قلدوا أقوالي وليس أفعالي. فقد كان يعيش مع عبدة زنجية اشتراها بنفسه وولدت له إبنة بسواد القار، وجدت بعد ذلك ملجأ في الجمعية التبشيرية الفرنسية. جرح التدخل من قبل رجل كهذا مشاعر العربي جرحا عميقا، وقد رد عليه باختصار: على الواحد أن يهتم بشؤونه الخاصة وليس بشؤون شخص غريب.

ولا عجب أن يشعر العرب بالريبة الشديدة إزاء الأوروبيين، فإنهم يحنون إلى الأزمنة السعيدة التي كانوا فيها في مأمن من الأفكار

الهدامة لهؤلاء. فهم يرون أن إلغاء العبودية يهدف فقط إلى تدميرهم والإضرار بالإسلام نتيجة لذلك. وهم يتوقعون بالدرجة الأولى من الانكليز خططا غادرة مختلفة.

فإذا اعتقد المرء حقا أن باستطاعته القضاء على الرق تدريجيا وتحقيق نهضة في جميع الأوضاع فإن الحذر الشديد ضروري في ذلك. يجوز للمرء أن يخطو خطوة فخطوة، عليه أن يربي الزنوج على التفكير والعمل ويبين للسادة بطريقة واضحة، بإنكار شديد للإدمان على الربح، كيف يستطيعون باستخدام آلات ومكائن زراعية أفضل الاستغناء بسهولة عن مئات العبيد الذين يحتاجونهم الآن لزراعة حقولهم. على العربي أن يتبين أن المرء لا يريد تدميره، وأنه سينال نفس النصيب من العدالة التي نالها الزنجي.

يبدو لي العمل بهذه الطريقة أكثر إنسانية ومسيحية من بناء كنيسة في سوق العبيد، بصورة استعراضية، ليست ثمة حاجة إليها حيث توجد كنيستان واحدة كاثوليكية وأخرى بروتستانتية، وليس لكليهما عدد يذكر من الأتباع. وكيف يجرح هذا الشرقي فأمر يفهمه كل من يعرف الأوضاع هناك قليلا. العربي مثل كل الشرقيين تقريبا محافظ بطبيعته ويتمسك بالموروث بصلابة، لذا لا ينبغي التعجل في التجديد الذي يبدو له مستحيلا وغير مفهوم. فإذا وقف إزاءه موقف الرفض تحدث المرء عن التطرف والكراهية الدينية للمسلمين، ينبغي أن يوضح هذا ما لا يستطيع المرء أن يوضحه

لنفسه. والكراهية الدينية ليست سيئة جدا كما يبرهن المثل التالي: حين زرت زنجبار مؤخرا، ثانية بعد تسعة عشر عاما من الغياب، وكنت قد دخلت الدين المسيحي منذ وقت طويل، قابلني الجميع بمودة كبيرة، وخرج أشخاص حتى من المساجد ليحيوني ويطلبوا من الله أن يحميني، بينما كنت كمرتدة أستحق كرههم أكثر من مسيحية بالولادة، لو كانت الكراهية الدينية تطغي على أبناء بلادي. كلا إنه ليس كراهية دينية وإنما نزعة إلى حفظ الذات، الذي يظهر لديهم بحدة أكبر كلما تهددت مصالحهم الحيوية من قبل ممثلي الحضارة والمسيحية عديمي المراعاة وغالبا لا يستحقون الاحترام.

ومن جهة أخرى فإن الزنجي لا يزال الآن بشكل عام غير مكترث بأي دين، وغالبية السود الذين يعيشون في زنجبار متساوون بهذا الشأن. والكثيرون الذين دخلوا الديانة المسيحية إنما فعلوا ذلك لمنفعة آنية. شكا لي مبشر انكليزي عمل سنوات طويلة في مومباسا (جزيرة صغيرة إلى الشمال من زنجبار) بصراحة أن عدد أتباعه باستثناء مجموعة ثابتة، كان يرتفع وينخفض مع ارتفاع وانخفاض ذخيرته التي ترسل من أنكلترا من أجل المسيحيين الجدد. ينبغي أولا إيقاظ المشاعر إزاء الدين قبل أن يستطيع المرء أن يعرف الزنوج بالتعاليم الرفيعة. وهكذا هنا أيضا خطوة فخطوة! ربما لم يتوفر في هذا بعض الرجال الشجعان الذين يكرسون طاقتهم وصحتهم وحتى حياتهم لرفع مستوى العنصر الزنجي قليل التفكير تدريجيا إلى ثقافة أعلى وإلى

المسيحية.

قد يرميني المرءبأنني متحيزة في مسألة الرق، وأنني قد نشأت وسط مثل هذه النظرة ولا أستطيع أن أتخلص منها وأحكم فيها حكما موضوعيا. لذلك فليسمح لي المرء أن أسوق بعض الشهادات المهمة لأوروبيين أصيلين.

كتب ب. ريشارد الذي سافر إلى أفريقيا عام ١٨٨١ من غوندا* (أخبار المجتمع الأفريقي في ألمانيا، المجلد الثالث، القسم الثالث، صفحة ١٧١، برلين ١٨٨٢) : أيقظني في ليلة الثاني عشر من أكتوبر صراخ إمرأة تريد الدخول علي وهي تنتحب. وبعد أن استطلعت عن سبب الضوضاء علمت أنها بسبب خصام مع زوجها تريد أن تدخل علي لتكسر أي شيء نفيس فتصبح بسبب ذلك حسب أعراف البلاد عبدة لنا. تكررت حوادث من هذا النوع ثلاث مرات خلال فترة قصيرة مع عربي قاطن هنا، إلا أنه استلم تعويضا، وهو شيء لا يعتبر غير مألوف أن شخصا حرا لا يشعر بالرضا عن أوضاعه يجعل نفسه عبدا بهذه الطريقة. وهذا دليل واضح على المبالغة وأحادية النظرة في التقارير الكثيرة التي تميل إلى تسويد كل شيء حول الرق خاصة تلك التي مصدرها المبشرون سيما الانكليز..."

"أما ما يتعلق بالرق فإنه يحدث أن تساء معاملة العبيد أثناء النقل وأن يكادوا يموتون جوعا. المصير الأخير وحده ينطبق دائما تقريبا كما نستطيع أن نتثبت على المالكين المعنيين أنفسهم ، لأن المواد

تستنفد بسهولة في الرحلات الطويلة في الآخر."

"إلغاء مفاجيء وعنيف للرق يمكن أن يؤدي إلى الخراب وإلى والانهيار الخلقي التام في البلدان المعنية إن لم يُوفر في الحال بديل شامل. والوضع القائم حاليا في جزيرة زنجبار التي كانت مزدهرة سابقا شاهد بليغ لوجهة نظري.."

"وإذا وقع العبد في أيد ثابتة فإن وضعه لا يكون سيئا، وإنما العكس، غالبا ما يكون أفضل مما هو في الوطن. ففي جنوب تنزانيا على سبيل المثال يحكم سلاطين قساة بشكل خاص والعبيد الذين يؤتى بهم من هناك لا يريدون العودة بأي ثمن."

"لا يرهق العبد لدى العربي بالعمل بشكل عام، ولا يحكم بالعقوبة البدنية إلا على المجرمين، لأن التشدد الكبير يقتضي نفقات كبيرة على المراقبين. وعدا هذا فإن العرب يمنحون عبيدهم الحرية إذا كانوا قد خدموا بإخلاص ١٠ إلى ١٥ سنة."

والعبيد المملوكون لأهل البلاد يعتبرون أفرادا في العائلة ويمتلكون إرادة ذاتية. وليس ثمة عقوبات، وإنما كثيرا ما تحدث على العكس مقاومة فعلية ضد سيدهم، دون أن تكون لهذا تبعات، ويمضي آخرون دون موافقة سيدهم إلى الساحل ليعودوا كحمالين (باغاسي)"

يستخلص الإنكليزي مستر جوزيف تومسن في كتابه "رحلة إلى بحيرات أفريقيا الوسطى ما يلي: "تظهر جميع طبقات المجتمع حالة

من المرح والرضا، تبدو في أي مكان آخر أمرا غير عادي، ولكننا هنا في بلد مثالي، حيث يستطيع المرء أن يعيش يومه برفاه بأربعة إلى ستة بنسات. لا يرى المرء هنا في أي مكان عبيدا جياعا أو أسيئت معاملتهم، فإذا بلغ السلطان (سلطان زنجبار) عن حالات من المعاملة غير الإنسانية فإنه يتم عتق العبيد المعنيين وتوفر لهم الحماية من غلظة سيدهم. يبدو لي أن هذه الطبقة تعيش هنا بالفعل في وضع مريح يلفت النظر وتتمتع بالحرية أكثر من آلاف عمال التجارة والبائعات عندنا."

عبر لي انكليزي آخر عاش فترة طويلة في الشرق ويعرف الأوضاع بالضبط، باختصار أكبر، إذ وصف الحركة المناهضة للرق بلقاءاتها التي لا عد لها، بأنها ببساطة "دجل".

أريد أن أذكّر في الآخر بشيء واحد، بذلك الغوردون الذي كان في وقته عدوا حازما للرق وتجارة الرقيق، لكنه بدأ فترة حكمه الثانية في السودان والتي لم تدم سوى وقت قصير بإلغاء قوانينه السابقة(المقصود هو الجنرال الإنكليزي جارلس جورج الملقب غوردون باشا الذي كان حاكما في السودان عام ١٨٧٧- المترجمة). إنه لا يمكن أن يكون قد اقتنع بضرورة الرق في أفريقيا، ولكن من المؤكد أنه اقتنع بأن القضاء على مؤسسة عميقة الجذور كهذه لا يتم بضربة واحدة وإنما بصورة تدريجية تماما، التخفيف منها أولا ثم التمهيد لإلغائها.

موت أمي. ثورة في القصر

عشت منذ وفاة أبي في بيت الثاني كما ذكرت، مع أمي وخولة في محبة وصداقة تبعث على السعادة. بعد حوالي ثلاث سنوات من ذلك انتشر هنا وباء الهيضة الوبيل، اختطف في بيتنا أيضا كل يوم تقريبا حياة بعض الناس. كان ذلك في أكثر فصول السنة حرارة. ذات ليلة لم أستطع النوم بسبب الحرارة المقبضة في سريري المرتفع وأمرت وصيفتي أن تفرش لي حصيرة ناعمة على الأرض، أملت أن أجد فيها برودة وأستطيع النوم، وهو ما استطعته بالفعل.

من يستطيع أن يصف دهشتي وأنا أستيقظ فأرى أمي التي أحبها حبا عميقا تتقلب عند قدمي من الألم. أجابت على سؤالي المذعور عما إذا كانت على غير ما يرام لأنها تئن، بأنها تستلقي منذ منتصف الليل في هذا الموضع، إنها تشعر أن الكوليرا أصابتها وتريد إذا لم يكن بدا من ذلك أن تموت قريبة مني على الأقل. كان عذابا شديدا لي أن أرى أمي الحبيبة الطيبة تعاني بشدة من المرض الغادر ولا أستطيع مساعدتها. قاومت هجوم المرض يومين ثم انتزعت مني إلى الأبد.

كان أملي لا حدود له، غير راغبة أغفلت جميع التحذيرات والإنذارات بألا أحتك بشدة بالجثة، كي لا أكون أنا نفسي ضحية للوباء. لم أرغب بأفضل من أن يتوفاني الله مع أمي! ومع ذلك فقد تجاوزني الوباء، كانت إرادة الرحيم الحكيم، وكان علي أن أستسلم لها.

أصبحت و لم أكد أبلغ الخامسة عشرة يتيمة الأب والأم، في العالم الذي يشبه سفينة دون مقود تستسلم لموج البحر الذي تحركه العاصفة. لقد قادتني أمي دائما بذكاء وتفهم، وأمنت لي حاجاتي وفكرت عني، والآن علي أن أتحمل جميع مسؤوليات الراشدين دفعة واحدة، أن أفكر وحدي في راحتي الشخصية وراحة أفراد عائلتي. لحسن الحظ شاء الله أن تأتي مع الوعي بالواجب الطاقة للنهوض به. إستطعت تدريجيا أن أتبين وضعي وأدير شؤوني بصورة مستقلة ودون عون خارجي.

ولكن واجهتني بعد وقت قصير امتحانات جديدة، وقد استسلمت لها: وجدت نفسي فجأة، دون أن أدري كيف حدث ذلك ،متورطة تورطا شديدا في مؤامرة ضد أخي النبيل ماجد!

بدا وكأنه لا بد أن يسود في بيتنا عدم الرضا بعد موت أبي، بدلا من أن نقف جميعا متضامنين كما يليق بنا. كان يندر بالطبع أن يتحقق إجماع تام بين ستة وثلاثين من الإخوة والأخوات، وهكذا تشكلت بيننا أيضا مجموعات تربطها رابطة المحبة الوثيقة، يتكون كل

منها من ثلاثة أو أربعة إخوة. كانت أوضاعنا بالنسبة للغريب غير مستعصية على الحل، لم يفهم حتى معارفنا القريبون تحزبنا الذي نشأت عنه بعض المتاعب لهم ولنا. أصبح صديق عزيز لأخي وصديقة مخلصة لأختي من ألد أعدائي لأن هذا الأخ أو هذه الأخت لا ينتميان إلى حلقتي، أيا كان رأيهم في. أن مثل هذا التشتت والتمزق لا يمكن أن يأتي بالبركة فهو ما يدركه كل من لا يكون متحيزا، كانت أعيننا وحدها كدرة بسبب المعاناة وقد لاحقنا بعضنا بكراهية عمياء دون سبب وجيه.

توقف الإتصال بيننا بعد وقت قصير توقفا تاما. وقد كفل عدد كبير من الجواسيس الذين اتخذهم جميعنا بتوسيع الهوة، حيث جاؤونا بكل كلمة وكل نية من نوايا خصمنا. كان هؤلاء الناس الشرفاء يأتون ليلا ليقبضوا أجرهم طبقا لأهمية أو خبث الخبر الذي يأتون به. لم تنسَب الريالات الفرنسية والغوينية من أيدينا في أي وقت كما حدث يومذاك. وكثيرا ما كنا نغفل عد القطع الذهبية، فنقبض على النقود في كيس الكتان لندفع لجواسيسنا حفنة منها عن جهودهم. كنا نوقَظ أحيانا في ساعة متأخرة من الليل لأن شخصا مقنعا طلب من البواب السماح له بالدخول ليتحدث إلينا شخصيا. لم تكن مثل هذه المحادثات الليلية تخفف أكياس نقودنا بصورة خاصة وحسب، وإنما تجعل استئناف النوم نفسه متعذرا وتصعد العاطفة بضع درجات في الفترة القادمة.

كنا جميعا مصابين بشيء يشبه المرض. حاول كل واحد منا أن ينافس الآخر، فإذا أظهر أحدنا رغبة في شراء فرس جميلة أو بيت أو مزرعة، رفع خصومه الثمن إلى أربعة وستة أضعاف، وهو ما يفرح المالك، من أجل معابثة ذلك الشخص. وإذا لبست واحدة من الأخوات قطعة حلي جديدة، كثرت الطلبات من كل الجهات على الجوهري الذي باع القطعة لشراء قطعة مماثلة أو أجمل منها إن أمكن. وقد اكتشف الشعب ضعفنا هذا بسرعة، وعرف التجار والحرفيون كيف يستفيدون من عدم الرضا الذي كنا نشعر به.

كان ماجد وخولة يومذاك على أحسن وفاق، وهو ما كان يسعدني أنا التي أحببت كلا منهما من كل قلبي. لقد عاملاني خاصة بعد وفاة أمي مثل طفلتهما. إلا أن هذه العلاقة اللطيفة تكدرت تدريجيا بسبب أخي برغش، ثم حدثت القطيعة الرسمية أخيرا بين ماجد وخولة. وعلى وثاقة علاقتي بخولة فلا بد أن أعترف طبقا للحقيقة أن الذنب في هذه القطيعة يقع عليها. ليس من شأني الدخول بالتفصيل في جميع الأوضاع التي أدت إلى الارتباك السيء، فقد كنا جميعا مثل مسحورين ومصابين بالعمى.

كانت هذه الفترة بالنسبة لي مفعمة بالصراعات الداخلية. كنت أسكن مع خولة في نفس البيت، فكنا نأكل ونشرب معا و لم نكن نفارق بعضنا طول النهار. وها أنها بدأت تتجنب دون سبب ماجد الذي أحبه أيضا أكثر وأكثر، وتتمنى له في الآخر كل شر. في البدء

أملت أن أستطيع أن أبقى على الحياد، وقد ملكت الجرأة للدفاع عن أخي الذي لم يكن ثمة ما يؤخذ عليه بالفعل، والذي كمن ذنبه في أنه صار هو السلطان الحاكم وليس برغش. ولكن في العاطفة لا يعرف المرء العدالة و لم تكف خولة أيضا عن الشعور بالحقد إزاءه.

وقفت طيلة شهور في الوسط بين نارين، أرد ت الخير إلا أنني لم أستطع شيئا. تذبذبت بين شخصين أحبهما وحين لم أعد قادرة على تجنب اتخاذ قرار وقفت إلى جانب خولة، التي لم تكن على حق، إلا أنها كانت أقرب إلى قلبي وسيطرت علي أكثر فأكثر. ما الذي يوجد في هذا العالم مما لا نضحي به لأحبائنا في الآخر، وإن كان ذلك لا يحدث دون صراع مع أنفسنا. أمام رجائهم تسقط عنا آراؤنا ومبادؤنا وحتى قناعاتنا المقدسة كما تسقط الأوراق اليابسة عن الشجرة في الخريف، دون أن يستطيع الجذع السليم أن يفعل شيئا ضد ذلك.

تمتع ماجد وهو ذو طبع نبيل بوجه عام، بمحبة الشعب العميقة. إلا أنه كان عليلا و لم يستطع أن يتدخل في كل شيء بنفسه، وإنما كان عليه أن يوكل قسما كبيرا من أعماله إلى وزرائه. وقد عرف واحد منهم وهو سليمان بن علي كيف يجعل من نفسه شخصا لا يستغنى عنه للأسف. رجل ذكي أناني استطاع تدريجيا أن يجعل كلمته نافذة في البلاد فيبدو بقية الوزراء إزاءه مجرد أصفار. كان من التطاول بما يكفي لينتهز الفرصة المناسبة ويمثل دور السيد. رغم أنه لم يكن يملك

لمثل هذه المكانة حتى نضج السن الذي يحترمه كل عربي، وإنما كان كما يقول المرء هنا لا يزال غرا وفوق هذا نموذجا للداندي الذي يضحي بكل شيء من أجل أهوائه النبيلة. مدفوعا بإعجابه بنفسه وذكائه خطب واحدة من أرامل أبي التي كانت في سن أمه، فاطمة، وهي شركسية، لم ترفضه، وكان ذلك قصر نظر منها دفعت عنه ثمنا باهظا بعد ذلك. فقد كانت نية سلمان أن يستولي على ثروتها الكبيرة وحسب.

لقد أثر هذا الشخص الشرير على ماجد من كل ناحية وحرض في السر جميع الإخوة ضد بعضهم، ليحافظ عبر انقساماتهم على سلطته الشخصية. نجح تماما في أن يثير الكوارث في كل مكان، فتعاقبت الخصومات في بيتنا، أقصي الكثيرون من الوجهاء وجرحت مشاعرهم، وتأزمت الأوضاع في الآخر لدرجة أصبح معها التذمر علنيا.

كانت نعمة أن يصمد إلى جانبه رجل شجاع مثابر كوزير، بذل جهده دائما ليخفف من عواقب أخطاء سلمان أو يصلحها. كان هذا هو محمد بن عبد الله الشاكسي، رجل غني جدا بالأصل وكريم، نبيل الطباع، أبعد من أن يقوم بعمل أناني. ومن الطبيعي أن لا يكون على وفاق مع زميله.

حاول أخي برغش أن يستغل التوتر بين الإخوة والاستياء لدى قسم من السكان. لم يكن لماجد سوى إبنة وإبن صغير، وهكذا كان

برغش المرشح الأقرب إلى العرش وقد اعتبر بعد وفاة أبي وليا للعهد. ولم يراعِ أبدا وجود أخوين آخرين أكبر منه في عمان هما محمد وتركي، فقد كانت عمان بعيدة.

يتعجل ورثة العرش في الشرق للأسف استلام مقاليد الحكم بأيديهم . ولا يقبلون أن يعترض أحد بأن ثمة مستحقين آخرين أقرب منهم، وكي يصلوا إلى أهدافهم فإنهم يستخدمون جميع الوسائل ويغفلون القانون والحق تماما.

وهذا ما حدث مع برغش. لقد أخفق في تولي السلطة عند وفاة أبي، إلاأنه لم يتخلَ عن خطته. وقد بدأ يفكر في تنفيذها تفكيرا جادا منذ أن انتقل هو وأخته الشقيقة مية من بيت المتوني إلى المدينة. سكن كلا الأخوين في بيت يقع مقابل البيت الذي نسكنه أنا وخولة، وكان ذات يوم بيتا ثانيا لفرسان الأميرة شيزادة (من فارس).

وقد بدأت بالنسبة لنا مرحلة من الحياة الأكثر إثارة. لا يسمح لي إخلاصي الأخوي أن أروي كل شيء بأدق التفاصيل، مع أن تصرفات معينة لا تستحق المراعاة. وحتى التشدد الكبير الذي يظهره المرء باستمرار إزائي لا ينبغي أن يقودني إلى أن أكشف الغلالة. فلا زلت أتذكر جيدا المثل العربي: "لا تكفي بحار العالم كلها لتمحو قرابة الدم". وهكذا فما كاد الأخوان يسكنان قريبا منا حتى انعقدت صداقة كبيرة بين برغش وخولة فصار برغش بعد وقت قصير يقضي النهار بطوله عندنا. لذلك شعرت مية بأنها مهملة وحين عبرت عن

استيائها من ذلك أمام الآخرين توترت العلاقة بينها وبين خولة. وبلغ الأمر أن الأختين أصبحتا لا تحييان بعضهما إذا التقتا. أصبحت الأوضاع غير مريحة أكثر فأكثر وبدأ السلام يختفي إلى الأبد من بيتينا اللذين كانا حتى الآن هادئين. كنت فرحة ألا يكون لي شأن في هذا الخلاف بين مية وخولة، إلا أن الأختين الحانقتين حنقا قاتلا كانتا تنفضان قلبيهما، ممتلئتين سخطا على بعضهما أمامي، وهكذا أصبحت أيضا طرفا في الموضوع.

كانت خولة مجحفة بحق مية. وفي هذه الفترة الصعبة لم يعد المرء يتعرف عليها ثانية على الإطلاق، صار برغش معبودها الذي ضحت له بكل شيء دون مراعاة، وأنا التي لم أكن أقل شغفا بها، تبعتها مرة بعد أخرى على جميع الطرق. تألمت في سري بصدق من أجل ميه الحزينة جدا، فرغم طبيعتها المكابرة كانت تملك تبصرا وتفهما هادئين، يجعلان المرء يتعاطف معها. هي وحدها التي تنبأت بوضوح بأن هذا التحزب ضد ماجد لن يأتي بالسعادة والبركة وكانت تصيح باستمرار: "سترون! سترون!"

وقد إنتقلت صداقتي لابنتي أخي، شيمبوا وفارشو إلى برغش فدخلتا عصبتنا. كانتا تسكنان في مواجهة بيتنا أيضا، و لم يكن يفصل بيتهما عن بيت برغش سوى زقاق ضيق. وهكذا شكلت بيوتنا الثلاثة المتجاورة بؤرة خطرة للمؤامرة.

سعى برغش إلى اجتذاب عدد من الوجهاء ورؤساء القبائل إليه.

ينقسم العرب إلى عشائر صغيرة أو كبيرة لا عد لها، لكل منها قائدها الذي عليها أن تطيعه. لذلك فإنه من المهم لكل أمير أن يقيم علاقة صداقة حميمة مع واحد أو عدد من مثل هؤلاء الرؤساء في السر أو العلن حسبما يشاء، ليضمن مساندتهم في لحظة الفعل، تلعب الوعود بمناصب ذات نفوذ وفوائد أخرى في هذا دورا رئيسا بالطبع. والانتساب إلى العشيرة والتبعية لها من القوة كي لا تخذل عشيرة رئيسها. إلى أي حد يمضي ذلك يمكن أن يضيئه أن كل شخص تعلم الكتابة نادرا ما يغفل إضافة اسم عشيرته إلى اسمه. نحن مثلا ننتمي إلى أل بو سعيد، عشيرة صغيرة ولكن شجاعة، وعندما أوقع باسمي الكامل علي أن أذكر هذا دائما.

توثقت علاقة برغش بمثل هؤلاء الرؤساء وتشكل منهم تدريجيا بلاط صغير، أثار الكثير من الأقاويل في جزيرتنا. ومما أثار الانزعاج الأكبر أن الذين كانوا يترددون عليه ليلا ونهارا كانوا في الغالب أشخاصا سيئي السمعة، مشاغبين ومشاكسين، أشخاصا كان أحرى به أن يبعدهم عن محيطه. وقد كان هذا طبيعيا مع ذلك، فالأشخاص الذين يفكرون تفكيرا صحيحا ما كانوا ليوافقوا على خططه الانقلابية.

كلما زاد عدد العناصر الشريرة في علاقات برغش بدأت لعبته السرية بالافتضاح، وازداد انسحاب اولئك الذين يحرصون على عائلتنا ولا يحبون المغامرة. وحل محلهم أشخاص يوجد منهم في

العالم كله وفي زنجبار أيضا عدد كبير: طموحون مستاؤون وكبار متجاهلون، مستعدون لكل شيء يطفئ تعطشهم للانتقام فقط من إجحاف يزعمون أنهم عانوا منه. حلم العشرات من المستائين أن يكونوا وزراء لبرغش أو يشغلوا مناصب رفيعة أخرى، وقد أمل المئات بالتأكيد بالأملاك والجاه، وهو ما لم يكونوا قد حلموا به من قبل. جاءت مخلوقات من هذا النوع من كل مكان وانضمت إلى المؤامرة، مدعية تأييدها لبرغش، ولكن لتنتفع شخصيا في الحقيقة. وضمن سياق الأوضاع فإنه لأمر مفهوم أن يستقبل بترحاب حتى الأكثر وضاعة.

حين نما عدد المخلصين بسرعة أكبر بدأ التفكير في تفاصيل الإنتفاضة بتصميم أكبر. اتجهت الخطة إلى مفاجأة ماجد على غير توقع منه وإعلان برغش سلطانا في الحال. ولكن على المرء أن يكون مستعدا في كل الأحوال لخوض صراع صريح. تعاقبت الاجتماعات لكسب هذا أو ذاك من رؤساء العشائر، وذلك دائما في الليل المظلم، أحيانا في الثامنة مساء وفي أحيان أخرى في الرابعة صباحا، حسب طلوع القمر وغيابه. وقد ترأس برغش شخصيا جميع الاجتماعات. ما أكثر ما لعنا يومذاك ضوء القمر الساطع الذي كثيرا ما أعاق خططنا، إذ كان علينا أن نتجنب أي إثارة للإنتباه. سيطر علينا قلق محموم وارتياب عميق في كل شخص. كنا نعتقد دائما أننا مراقبون وأن ثمة من يتنصت علينا، وكثيرا ما قمنا بأنفسنا بواجبات الخدم

لنبقيهم بعيدين عنا ما أمكن ولا ندعهم يكتشفون عملنا الشرير. لم نعد نحن النساء نزور أحدا ونادرا ما استقبلنا أحدا أيضا.

إزداد برغش انفعالا. فبعد أن كان يحضر المجلس برئاسة ماجد بانتظام، بدأ يهمله، فصار يذهب إليه مرة أو مرتين فقط في الاسبوع، ثم كف في الآخر عن الذهاب تماما. وكان هذا عندنا إشارة إلى عدم ارتياح كبير، وإذا ما تجنب واحد من الرعية المجلس متحديا، فإنه يعاقب بسبب هذا العصيان. والآن لم يعد أي إنسان يشك في خطط برغش المعادية التي لم يكن الكثيرون يريدون تصديقها. وقد بدأ برغش يتصرف في احتدامه أيضا بعدم ذكاء. لقد نبه الخصم فلم يعد نجاح المباغتة ممكنا.

حاول ماجد ثانية وبسرية تامة أن يثنيني عن طريقي الخاطئ قبل أن يصبح الوقت متأخرا. ولأنه نفسه لم يعد قادرا على المجيء إلى بيت الثاني في الظروف الراهنة، وكنت قد تجنبت بنفس الطريقة بيته منذ وقت طويل، فقد طلب من إحدى زوجات أبي التي أحبها كثيرا أن تأتي إلي وتنقل إلي باسمه أن علي أن أبتعد عن أعمال أعدائه المتحزبة ولا أدعهم يجرونني معهم، فإنني لن أحصل على شكر منهم، ولن أفلت من الندم إذا ما أصررت على البقاء مخلصة لهذا العمل السيء. ويكون علي عندذاك أن أتحمل تبعة عملي. فإذا ما تعرض البيت المجاور إلى القنابل فإنه لن يكون قادرا على اتخاذ استثناء من أجلي.

جاء إنذار أخي النبيل متأخرا. كنت قد رهنت كلمتي لخولة

وبرغش واعتبرته الآن واجبا مقدسا أن أفي بالوعد الذي قطعته على نفسي وأنفذه. ودعتني زوجة أبي وهي شديدة الحزن، تبكي بمرارة. لقد كانت تريد بي خيرا! وقد شعرتُ لاحقا بالرضا الحزين أن تستطيع تذكيري بتنبوء ماجد الذي صدق.

كي لا أثير الريبة ولكي لا أتهم بالقيام بلعبة مزدوجة ويقال عني "أم الوجهين" (هكذا يصف المرء عندنا النساء الكاذبات) وجدت أن من الأفضل أن أتجنب أي اتصال بماجد أو أتباعه تجنبا تاما وكرست نفسي لمؤامرتنا فقط.

كان من السهل على ماجد في هذا الوقت أن يلقي القبض على أخيه المسيء مع جميع أتباعه بعد أن أصبحت الشبهة واضحة ويحبسهم بعض الوقت في إحدى القلاع حتى يثوبوا إلى رشدهم. ولكن قرارا مثل هذا لم يكن بمقدوره، فلم تكن الصرامة الشديدة من طبعه. وكان لا يزال يأمل أن يتراجع أخوه طائعا، و لم يرد لذلك أن يتسرع في القيام بعمل ضده، فلم يحدث بينه وبين برغش ما يبرر عداوته له. وقد أراد قبل كل شيء أن يجنبنا نحن النساء الأربع اللاتي كن قد تورطن في الموضوع كثيرا، العواقب بأي ثمن.

لقد طال تبصر ماجد و لم تجد الحكومة أن من المفيد مراقبة بيوتنا الثلاثة إلا بعد أن صارت تتجمع أمام باب برغش جموع كاملة من الرجال الذين يرتدون البرنس مقنعين تماما. وفي هذا وحده لم يحققوا نجاحا، فقد كان الحرس من البلوش، جنودا مستقدمين من

بلوجستان، يملؤهم تعلق مؤثر بعائلتنا، ويفضلون أن يعرضوا أنفسهم للخطر على أن يفضحوا واحدا منا. وهذا ما اكتشفه إخوتي الماهرون الأذكياء بعد وقت قصير واتخذوا على ضوئه احتياطاتهم. لقد قمنا بأنفسنا دون مراعاة للأعراف والتقاليد، بالمهام الخطرة، فلم يكن أحد ليجرؤ على مضايقتنا، بينما كان الآخرون يلاحقون في كل خطوة يخطونها ويتعرضون للتفتيش. وقد ألقي القبض بين حين وآخر على شخص قليل الحذر، لكن هذا لم يلحق ضررا بحزبنا.

كانت بيوتنا تشبه أكوام نمل. لم يجلس أحد عاطلا، كان الكل يسعى لنجاح عمليتنا. نقل إلينا جواسيسنا الخبر بأن الحكومة تزمع أن تضع حدا لتصرفاتنا وتلقي القبض على جميع المشتبه بهم أو تبعدهم من الجزيرة. حين وصل هذا الخبر لم تكن استعداداتنا قد انتهت بعد، وكان علينا الآن أن نضاعف جهدنا. أعد نوع من الكعك الذي لا يتعرض فترة طويلة للفساد بكميات كبيرة ونقل في الليل إلى مرسيليا التي كان مقررا أن تكون قاعدة رئيسة للانتفاضة.

وقد أصبحتُ، أنا أصغر الأعضاء الإناث في المؤامرة، السكرتير العام للعصبة لمعرفتي فن الكتابة، فكان علي أن أتولى جميع المراسلات مع رؤساء العشائر. بالطبع كنت في عمر يسمح لي أن أعاني من تأنيب الضمير القاسي. فكان يثقل روحي بشدة أن يكون الرصاص والبارود والبنادق التي كان على أن أطلبها مخصصة لقتل ناس أبرياء تماما. فقط ماذا أفعل؟ هل علي أن أنكص في كلمتي

وأخذل أختي الحبيبة خولة الآن بالذات حيث يزداد الخطر مع مرور كل يوم؟ لم يعد ذلك ممكنا! بل أكثر من ذلك سأدخل سعيدة كل نار من أجلها. لقد أبقتني علاقتي الوثيقة بخولة في المؤامرة أكثر بكثير من تعلقي بأخي برغش.

برغش، هو ابن لحبشية موهوب بصورة استثنائية وكان يتفوق علينا في الفهم والحسابات الذكية. ذو طبيعة مكابرة ومتسلطة، وقد عرف كيف يرغم الجميع على احترامه، ولكن ما أقل ما كسب حبهم، فذلك ما تثبته حقيقة أنه لم ينضم إليه من عائلتنا الكبيرة كلها إلا نحن النساء الأربع وأخ وحيد يبلغ من العمر إثنتي عشرة سنة وحسب، عبد العزيز، وقد فعل لأنه كان في رعاية خولة. لم يرد أحد الاقتراب منه منذ أن دفن جثمان أبي سرا ودون أية طقوس، وحين بدأ بالتنظيم مستكملا مؤامرته، انسحب عنه الجميع. لا زلت أتذكر أن اثنتين من أخواتي، قابلتهما أثناء خروجي الذي أصبح نادرا، رافقتاني حتى أصبحنا على بعد خمسمائة متر من بيتي، هناك عادتا مسرعتين كي لا تقتربا من بيت برغش وحسب.

ورغم المراقبة الشديدة تابعنا عملنا بدأب، فعقدت اجتماعات في أوضاع صعبة جدا، وكان يوم إعلان الإستياء قد حدد فأحاط بضع مئات من الجنود بيت برغش. انتظر الجنود بفطنة لحظة يكون برغش في البيت، وكان لديهم أمر بمنع جميع سكان البيت بالقيام بأي اتصال خارجي، حتى يستسلموا طائعين. كان رعبنا لا يوصف إلا أنه

أفسح الطريق لتصعيد كبير لكل الطاقات.

كنا نتوقع بالطبع أن نعاني من نفس المصير في بيوتنا، ثم نخسر قضيتنا تماما. لقد قرر الوزراء والوجهاء الآخرون حقا، كما علمنا فيما بعد، أن تحاصر البيوت الخطرة الثلاثة في نفس الوقت، ولكن لم يكن إقناع ماجد ممكنا لأنه كان يريد أن يحافظ على النساء.

بعد دقائق من تقدم الجنود وقفنا نحن المتآمرين الستة، إثنين في كل بيت خلف نوافذ بيوتنا وتشاورنا عبر الزقاق الضيق حول ما يمكن عمله. كنا منفعلين جدا، و لم يرد برغش خاصة أن يستسلم.

إلا أن ضائقتنا كانت كبيرة. ليس ثمة بئر في أي بيت في زنجبار تقريبا، فكان على الجميع سواء علت مكانتهم أم انخفضت أن يحصلوا على مائهم من الآبار العامة. كنا قد احتطنا فخزنا الماء في بيت برغش منذ بضعة أيام، إلا أن هذا الماء لم يعد مع ارتفاع درجة الحرارة صالحا للشرب وكان يمكن استعماله للاغتسال والطبخ فقط. لم تنقصنا المؤنة، فقد كان المحاصرون يستطيعون العيش منها بضعة أسابيع براحة. ولكن كان ينقصنا ما لا يمكن أن يستغنى عنه في المناطق الاستوائية، الماء. وفي مثل هذه الظروف لم يكن التفكير في الصمود أكثر من بضعة أيام ممكنا.

وبينما استرسل الرجال يائسين في الكلام، وجدت إحدى النساء بعقل مبدع مخرجا ناجحا وأنقذت أولئك من هزيمة سريعة. إقترحت خياطة أنبوب من قماش الأشرعة وإيصال الماء من خلاله من سطحنا

إلي سطح برغش . جيء بقماش الأشرعة، وقد أنجزت عشرات الأيدي خياطة الانبوب في نصف ساعة، ومع حلول الظلام استطاع المحاصرون أن يشربوا الماء العذب اللذيذ. كان علينا بالطبع أن نكون حذرين جدا كي لا يكتشفنا الأعداء. ولحسن الحظ لم يحرس الجنود غالبا سوى الباب الوحيد الذي يطل على البحر لبيت برغش، ربما لم يريدوا أيضا أن يروا عملية الإنقاذ التي كنا نقوم بها. لقد قدمنا نحن النساء مساعدة كبيرة حتى ذلك الحين، وعلينا الآن أن نتابع تنفيذ الأمر. كان برغش قادرا بواسطتنا فقط وعبر النافذة أن يتصل بحزبه. كان بعض القادة محاصرين معه وفي وضع سيء جدا، فقد كانت حريتهم في البيت مقيدة جدا بسبب وجود أختي مية، وكانت إقامتهم محصورة في غرفة الاجتماعات في الطابق الأرضي وحدها تقريبا. إلا أن قائد عشيرة هورت المتنفذ والعملي كان يتمتع بالحرية واستطاع أن يتابع كسب الجنود.

كان لا بد من تغيير خطتنا بأكملها، فتقرر أن يجتمع كل أعضاء حزبنا في مزرعة مارسيليا الرائعة التي تملكها ابنتا أخي ويعتصموا هناك. لم تكن هذه فكرة سيئة. فقد بدت مرسيليا مثل قلعة صغيرة وكانت تستطيع أن تحتوي بضعة مئات من الناس. وهكذا نقل احتياطي الأسلحة والعتاد إلى هناك وأسكن الفريق المكتسب في المنطقة المحيطة بها، من أجل الإنطلاق من هذه القاعدة لنشر الاضطرابات في الجزيرة بأكملها. وقد نجحنا في كل شيء في وقت

قصير لأننا استخدمنا كل وسائلنا. لم يكن ثمة خزانة حربية عامة، وإنما كنا ندفع من مالنا الخاص بالتناوب كل حسب ما يملك، وعدا هذا فقد جند كل منا عددا من العبيد المسلحين جيدا.

حين تم نقل كل شيء إلى مرسيليا سرا بدأنا ندرس إمكانية القيام بضربة رئيسة. أن نقوم نحن النساء بتحرير برغش من بيته فنعيد بذلك للمؤامرة رئيسها، ليقود العملية بأكملها شخصيا من مارسيليا. ومن الواضح أن الأمر تعلق بمشروع خطر، ولكننا لم نكن نهاب الخطر، كنا مصممات على المخاطرة.

لم نكن قد حاولنا حتى هذا الوقت أن نزور أخوينا المحتجزين. لقد أردنا أن نتجنب إثارة الانتباه التي يمكن أن تضر بقضيتنا، ومن ناحية أخرى خفنا أن يمنعنا الحراس ويجرحوا بذلك كبرياءنا. ولكن الإقدام بعد القرار مباشرة هو نصف النجاح. لم يعد ثمة تحفظ لدينا، وهكذا حددنا المساء الذي يتم فيه الاختطاف، فقد كان هذا هو الإنقاذ الوحيد لنا. حل المساء التاريخي. غادرنا أنا وخولة بيتنا بعد حلول الظلام مع حاشية كبيرة مختارة، وانضممنا إلى موكب ابنتي أخي اللتين انطلقتا بعد الإتفاق معهما في نفس الوقت، وذهبنا إلى باب برغش. لقد استوقف الحراس طليعة الموكب دون أن يعرف الجنود من الذي يتبعها في الواقع. تصرف لا يعرف الخوف يستطيع وحده أن يؤدي ببعثتنا إلى النجاح. قلت وقد ظهر على ملامح الحرس التراجع "خولة، لنذهب بأنفسنا إلى رئيس الحرس ونكشف له هويتنا،

فإن المرء سيحترمنا دون ريب".

كان هذا الاقتراح يتنافي على كل حال مع العادات و التقاليد تماما، ولكن في وضع خطر كهذا كان علينا ألا نحجم بسبب تحفظ اعتيادي. ألم نكن في الطريق إلى القيام بما هو غير عادي؟ أكانت مؤامرتنا بأكملها أمرا مسموحا به؟ لقد أنسانا تحمسنا كل شيء.

خرجنا أنا وخولة من الموكب ومضينا إلى الضباط الذين لم يعرفوا شيئا وبدأنا بإلقاء الخطبة عليهم. يستطيع المرء أن يتصور انبهارهم، فلم يكونو ا قادرين على توقع مثل هذا الهجوم حتى في الحلم. لم يعرف المساكين طويلا بما يجيبون، وحين عادوا إلى أنفسهم بدأوا بالاعتذار بصورة جعلتني أشعر بالخجل الشديد من نيتنا السيئة. لم يكن شخص واحد من الحرس يتصور أنه يمكن أن تكون لنا هذه الخطة، وقد تظاهرنا بالاستياء فلم يستطع أي تردد أن يفضحنا.

كنا قد بلغنا هدفنا، وقد سمح لنا بزيارة أخوينا المحتجزين فترة محددة، وبعد أن نجحنا بالدخول اتسع أملنا بالخروج بنجاح، معا برفقة أخينا.

وجدنا مية وبرغش في قلق مفهوم. لقد راقبوا المشهد بأكمله من فوق، وقد انتابهم الخوف المقبض أن نرغم في الآخر على العودة وتركهما لمصيرهما. والآن تسبب برغش في متاعب جديدة، لقد أبى شعوره الرجولي أن يتخفى في حجاب النساء. ولكن كان علينا أن نسرع جدا، لم نكن نستطيع أن نعرف ما إذا كان الحرس قد أبلغ عن

زيارتنا وطلب إجراءات للتصرف. وكما وقف برغش أمامنا فإن أحدا لن يدعه يخرج من البيت. كان لدى الحرس أمر صارم أن يرموا الشخص الذي يرتابون فيه في الحال، وهو ما يثبت بوضوح أن المرء لم يكن يحلم بجرأتنا، وإلا لأصدر تعليمات أخرى دون ريب. كنا وكأننا نقف على فوهة بركان يمكن أن ينفجر في أي لحظة ويبتلعنا.

أخيرا وافق برغش بعد أن تسلح حتى الأسنان أن يلف نفسه بالشيلة فلا يظهر منه سوى عينيه، وقد فعل عبد العزيز الشيء نفسه، وكان على الأخوين الآن أن يغادرا القصر معنا، اخترنا أطول النساء من حاشيتنا ليمضين إلى جانبنا حماية لبرغش. وقبل الانطلاق دعونا الله القدير وأدينا صلاة صامتة، كان يمكن بسهولة أن تكون الأخيرة بالنسبة لنا.

وكي لا نثير الشك، كان علينا أن نمارس كل فنون التنكر مرة ثانية، كان علينا رغم الانفعال ووجيب القلب أن نتحرك ببطء واعِتدال ونتظاهر بأننا نتحدث حديثا عاديا. إذ أن خطوة مسرعة يمكن أن تفضحنا. وانظر ما حدث! لقد فتح الحرس لنا الطريق باحترام واستطعنا أن نمضي مع غنيمتنا دون أن يمسنا سوء. من وجد نفسه في حالة مشابهة من الخوف يدرك أنني لن أنسى هذا المساء بأصغر تفاصيله ما حييت.

كنا قد أبلغنا بعض رؤساء العشائر عن نيتنا تحريريا، واتفقنا معهم أن يجتمعوا خارج المدينة في ساعة معينة مع أتباعهم. فإذا لم نصل

خلال فترة معينة فإن ذلك إشارة إلى إخفاق مشروعنا، عليهم عندذاك أن يتفرقوا وينتظروا خبرا آخر. كان موضع الاجتماع يقع بعيدا عن المدينة، في الحقول تماما.

بعد أن خلفنا الجزء المأهول من المدينة الذي قطعناه في خطوات اعتيادية وراءنا، بدأنا بالجري لنصل إلى الاجتماع في الوقت المناسب. مثل قافلة هاربة بدأنا نذرع الحقل بأقدامنا التي كانت في الأحوال الأخرى ناعمة رقيقة. أسرعنا نجتاز العوائق غير مكترثات بأحذيتنا الجميلة المرصعة بالذهب. و لم تجد همسات التحذير لخادماتنا بضرورة الحذر في المشي لأننا نعبر حقلا من الشوك، أذنا صاغية. وكان الليل في ذلك حالكا وقد تركنا المصابيح تُطفأ حالما خرجنا من المدينة.

متصببات عرقا ولاهثات بلغنا أخيرا خبرٌ من الخدم الذين يسبقوننا بأننا وصلنا مكان الاجتماع. كان علينا نحن النساء أن نكون أكثر تحفظا الآن، تحركنا بسرعة أقل وسمعنا بعد قليل سعالا خفيفا وتجشؤا، وهي إشارة المنتظرين، رغم أننا لم نكن في الظلام المخيم قادرين على تمييز شخص واحد. وصل إلينا صوت خافت حذر: "أأنتم هذا يا صاحب السمو؟" وأعقبت الجواب بالايجاب جملة عامة خافتة : "الحمد لله!" وهكذا كنا قد وصلنا الهدف.

ألقى برغش الذي كان قد أظهر طول الطريق انفعالا كبيرا و لم يكد يتكلم حجابه بسرعة، هتف بـ "أترككم بخير" سريعة وأمسك عبد

العزيز ذا الإثني عشر عاما من يده واختفى عن أنظارنا في الحال. وكان عليه أن يصل مارسيليا في نفس الليلة على الأقدام.

وقفنا هادئات بعض الوقت، منهكات وعاجزات عن الكلام، متوجهات بأنظارنا إلى الذاهبين في عجالة دون أن نراهما. وقد نبهنا تقدم الليل خلال ذلك أن نعود إلى بيوتنا، وهكذا بدأنا طريق العودة الطويل دون نأمة، ولكن ليس دون قلق. وكي لا نثير الانتباه افترقنا عند اقترابنا من المدينة التي كانت قد أصبحت ساكنة وتوجهنا في مجموعات صغيرة وطرق غير مباشرة إلى بيوتنا.

شعرنا وقد وصلنا أخيرا أننا منهكات إلى أقصى حد. كنا في وضع يرثى له، توتر الأعصاب الشديد في النهار والمسيرة الطويلة والسريعة غير المألوفة بالنسبة للعربية لم تبق دون تبعات. ولم تكن الراحة أو النوم في هذه الليلة ممكنين. كان الجميع يئن ويتأوه، وقد سقط البعض في حالة إغماء، وهزت تشنجات البكاء هذه حينا وتلك حينا آخر. لم يكن أمرا جيدا أن تفقد المسكينات السيطرة على أنفسهن، لقد كانت أحداث الساعات الأخيرة مثيرة للأعصاب وقد كلفت طاقة كبيرة. كان علينا أن نمر مرتين من بين صفوف من الجنود يحملون بنادق معبأة وقد غرسوا حرابها، وكان أصغر خطأ يكفي لأن يؤدي بنا إلى الموت. أن يكون الاختطاف قد نجح على هذا النحو، فهو ما لم يكن يعرفه أحد مسبقا. وحين انطلقنا في طريقنا كان علينا أن نكون مستعدين لأمرين: تنفيذ مشروعنا أو الموت.

أصخنا السمع طول الليل خائفات إلى أي صوت. وقد جعلنا ضميرنا المثقل نسمع على الدوام حوافر خيل وفرقعة بنادق. توقعنا في كل لحظة اقتراب العدو، الذي سيوقع بنا بعد اكتشاف فعلتنا العقوبة التي نستحقها.

إلا أن كل شيء بقي لدهشتنا هادئا. رأينا الحراس من فوق وهم يروحون ويجيئون بهدوء كما فعلوا من قبل أمام البيت الذي كان برغش محتجزا فيه قبل ساعات قليلة وحسب. أخيرا طلع الفجر ودعينا من قبل العبيد إلى الصلاة كالمعتاد. كنا نصلي أنا وخولة عادة كل على انفراد، اليوم، حيث لم نكن نعرف بعد أي مفاجأة يحملها النهار القادم إلينا، وجدنا أنفسنا في نفس الغرفة لنؤدي الصلاة معا لله العلي. ثم منحنا أنفسنا الأمل السار بأن برغش قد وصل مع أتباعه الآن – كانت الساعة حوالي الخامسة صباحا – مرسيليا.

بعد قليل جاءت الرسالة المرعبة. علمنا في حوالي الساعة السابعة أن خصومنا كانوا يعلمون كل شيء عن أحداث الليلة الماضية. لقد تعرف بلوشي كان علينا أن نمر أمامه مع برغش مساء أمس عليه رغم الحجاب، إلا أنه لم يرد أن يدق صفارة الإنذار في الحال مدفوعا بولائه لأبينا المتوفى الذي كان قد خدمه بإخلاص سنوات طويلة، ومعتقدا أن برغش سيستخدم حريته ليهرب إلى خارج البلاد. وفي نفس الوقت شقت عليه فكرة أن يفضحنا نحن النساء في العلن.

وحين روى التجار القادمون إلى المدينة مبكرا الآن أنهم رأوا عربا

كثيرين مسرعين قرب مرسيليا، ارتاب المرء في الحال بأن لذلك علاقة بالمؤامرة، ولكن ذلك البلوشي وحده استطاع أن يتبين الوضع الحقيقي. وقد اعتبر من واجبه الآن ألا يستمر في التكتم على ما رأى وإنما أن يبلغ به الحكومة. ولدى الاستجواب كانت ذريعته أنه كان يفضل الموت على أن يضعنا نحن النساء في وضع مهين. و لم أعرف ما حل بالرجل النبيل الذي وقع بسبب مشروعنا في صراع الضمير.

لم يبق أمام الحكومة إلا أن تقضي على التمرد العلني باستخدام العنف العلني، فأرسلت بضعة آلاف من الجنود بالمدافع إلى مارسيليا. وكان منتسبو حزبنا قد راهنوا على نجاح هجوم وحرب صغيرة، ولكنهم لم يكونوا مستعدين لقتال مكشوف. دمرت قذائف المدافع ما كان يوما قصر مارسيليا الرائع، وبعد مقاومة عنيدة قصيرة تفرقت غالبية العصاة بعد أن أن قتل مئات الناس الأبرياء.

سيسأل القارئ بالطبع ماذا كان نصيبنا نحن النساء لقاء مثل هذه المشاركة الجذرية في العصيان، وأية عقوبة أنزلت بنا. لم تفرض علينا أي عقوبة! بالطبع لو لم يكن القرار في يد ماجد النبيل لما خرجنا من ذلك بهذه البساطة بالتأكيد، فقد كانت فعلتنا تستحق الإنتقام الصارم.

لم نكن قد عرفنا بعد عن نتيجة القتال حتى فوجئنا ذات صباح بخبر مفاده أن برغش الذي ظنناه في مرسيليا قد هزم تماما ووصل بيته هاربا. وقد أبلغتنا مية بكل ما حصل، لأن برغش أمل ألا يكتشف

وتجنب لذلك أن يظهر خلف النافذة. وكان الاستسلام أبعد ما يفكر فيه في هذا الوقت، إذ أراد أن يقاوم حتى الآخر.

وفيما عداه وعدا الصغير عبد العزيز الذي أثبت رغم صغر سنه أنه لا يهاب و لم يكن لديه أثر من الخوف والتردد كان قد وصل عدد من الوجهاء وكثير من الخدم حتى أن البيت كله اكتظ تماما، خاصة غرف الطابق الأسفل. وقد أمل برغش أن يكون قادرا على تنفيذ خطته بهذه القوى، وهو ما أخفق فيه بقوة أكبر بكثير. و لم نرعوِ نحن الذين فقدنا الكثير من ثروتِنا أيضا وضحينا بالجنود المرتزقة والعبيد في ساحة القتال، وفقدنا تعاطف إخوتنا وأقاربنا، كان حماسنا قد أعمانا عن أن نصدق تحطم السفينة البائس.

انتشر في نفس اليوم خبر وصول برغش في المدينة كلها، وقد ظن الجميع أنه جاء ليسلم لأخيه طائعا، وقد أراد ماجد نفسه أن يسهل له الاستسلام . فبدلا من أن يرسل إليه جنودا أرسل إليه هذه المرة ابن أخيه سعود بن هلال، مع رسالة إليه مفادها إنه مستعد لنسيان كل ما حدث إذا ما أراد برغش التخلي عن مثل هذه الخطط إلى الأبد. وقد كان على سعود وهو شخص خير شديد الاعتدال، أن يقوم بهذا العمل وحده كإشارة إلى سلمية مهمته.

لم يرد برغش في أول الأمر أن يسمح لابن أخيه الذي يكبره في السن كثيرا بدخول بيته، بل طلب أن يبلغه بما يريد من الشارع. رفض سعود هذا بالطبع. بعد انتظار طويل فتح له الباب قليلا كي لا يستطيع

شخص آخر أن يتسلل معه. وكان له أن يرتقي السلم المحصن بكل معنى الكلمة. كانت الاحتياطات قد اتخذت في كل مكان ليمكن إطلاق الرصاص على كل من يقتحم المكان. وكان السلم نفسه مسدودا في الأعلى بباب ساقط متين وثابت، وهو شيء لم يوجد مثله في هذا البيت إلا في أيام زوجة أبي شيزادة، وكان هذا الباب الساقط مغطى بصناديق ثقيلة. وهكذا فقد وجد رسول ماجد دخولا مذلا وكانت نتيجة مهمته أكثر مدعاة للخجل: كان عليه أن يعود دون أن يحقق أي نتيجة، فقد أصر برغش إصرارا تاما على رفض أي نوع من التراجع.

لم يبق أمام ماجد إزاء هذا العناد إلا أن يستخدم القوة على كره منه مرة أخرى. أقنعه القنصل الانكليزي الذي تشاور معه أخيرا بضرورة القضاء على الأعمال الشريرة التي استمرت طويلا وعرض مساعدته عليه. أعطيت الأوامر لسفينة مدفعية بريطانية كانت راسية في الميناء بالصدفة، وكانت بسبب قدرتها على الإبحار في المياه غير العميقة أكثر صلاحية لهذا الغرض من سفننا الحربية الكبيرة، أن تتواجد أمام بيت برغش مباشرة وتحاصره بجنود البحرية التابعين لها، وقد أريد إطلاق المدافع على القصر المعادي بجميع من فيه إذا لم تحقق هذه التظاهرة نجاحا.

ذات صباح غادرت غرفتي التي كانت تطل على الزقاق الضيق والتي لا يمكن رؤية البحر منها وذهبت إلى خولة لأتمنى لها كأخت

كبرى، كما يقتضي الاحترام، صباحا سعيدا. وجدتها متوترة الأعصاب إلى أبعد حد، تمضي في غرفتها جيئة وذهابا وهي تفرك يديها. "سالمة، ياعزيزتي، لماذا تأخرت كل هذا الوقت؟" صاحت في شاكية وأشارت إلى السفينة والجنود البريطانيين وروت لي بجمل متقطعة كل ما حدث.

وجوابا على لومي لها بأن شيئا من هذا ما كان ليحدث لو أنها وبرغش تراجعا في الوقت المناسب كان علي أن أسمع الأغنية القديمة ثانية بأنني قليلة الاهتمام بالقضية. ولكن يا إلهي، ماذا كنت أستطيع أن أفعل أكثر من ذلك؟ ألم أسود وجهي مثلها ومثل الآخرين؟ ألم أضح بما لدي دون حسابات؟ هل آثرت المحافظة على نفسي حين اقتضى الأمر أن أخدم العصبة هنا أو هناك؟ بدا أن كل هذا قد نسي الآن، لمجرد أنني أشرت إلى الأوضاع كما هي حقا. لا يصيبنا إتهام باطل عميقا ويؤلمنا كما يفعل حين يصدر عن أشخاص نحبهم ونستسلم لهم بكل جوارحنا!

بدأ جنود البحرية بعد وقت قليل بإطلاق الرصاص على بيت برغش ، في البدء بالبنادق. اخترقت رصاصات عديدة النوافذ وأزت واحدة قريبا من أخي لتتسطح خلفه على الجدار الصلب. أدرك المرء جدية الأمر الآن، بينما كان قد اعتبر كل شيء حتى هذا الوقت مجرد تهديدات. هرب برغش ومية وعبد العزيز إلى الأقسام الخلفية من البيت، كي لا يصيبهم الرصاص الذي يئز من كل مكان في الحال.

انفجرت خولة مع أول إطلاقة في بكاء متشنج، لعنت ماجد والحكومة والانكليز معا وشكت من الظلم الذي ألحقوه بنا! مع زيادة إطلاق النار ساد الذعر والاضطراب في بيتنا، فقد كنا نسكن خلف قصر برغش مباشرة وكنا معرضين على هذا النحو لخطر كبير. ركض الجميع من علا مقامه أو تدنى، الصغير والكبير دون خطة في فوضى. ودع واحد الآخر إلى الأبد هنا، وطلب واحد من الآخر أن يغفر إساءة من الأيام السعيدة، جمعوا كنوزهم بدم بارد ليأخذوها معهم عند الهرب، وقف البعض الآخر يبكي ويشكو غير قادر على التفكير أو اتخاذ قرار، صلى الكثيرون حيث هم، في الممرات على السلالم، في الفناء أو على السطح المحاط بالدرابزين. وقد حذا حذو هؤلاء رفاق آخرون في البيت، وبدلا من توتر الأعصاب حلت تدريجيا الثقة المهدئة الرائعة بأن مشيئة الله وليس الإنسان هي التي تتحقق، وأن الله الطيب الحكيم هو الذي يقرر مصائرنا منذ بدء العالم. انغمر الجميع في الصلاة الآن وأحنوا جبينهم إلى الأرض كعلامة على الخشوع العميق لله. قد يسمى المرء هذا في أوروبا تطرفا أو ما يريد، من المؤكد أن مثل هذه العقيدة تحقق السلام الروحي بصورة لا توصف لمن يؤمن بها، تنقذه من التردد في الأزمات وتجعله يسلك طريق الحياة المتعرج بمخاطر أقل مما هي في الواقع.

كان باستطاعة جميع المئات الذين أودعوا ثقتهم بالله مؤمنين بعد الرعب الأول أن يهربوا بسهولة. كان بيتنا مفتوحا على مصراعيه

وكان ممكنا لأي واحد أن ينقذ حياته. و لم يكن ثمة من سيأخذ علينا لو هربنا في وضح النهار إلى بيت الساحل. ولكن لم يفكر أحد في هذا.

حملت خولة أخي العنيد أخيرا نظرا للخطر المحدق أن يستسلم. ركضت خلافا لكل الشكليات إلى القنصل البريطاني لتبلغ عن هذا وتلتمس وقف العداوات. قد يسأل المرء لماذا لم تذهب إلى ماجد، لتنهي معه كل شيء؟ وقد طرحت هذا السؤال أيضا الجماهير الواسعة في زنجبار، لم يصدقوا أن تكون كراهية خولة وبرغش لماجد بهذه المرارة حتى لا يريدا أن يلتقيا معه بأي شرط. ربما شعر كلاهما بالخجل الشديد، ففضلا أن يتحملا الإهانة (وهي إهانة كبيرة في نظر كل عربي)، أن يطلبا المساعدة والتدخل من غريب. لم يكن الانكليز يملكون النفوذ الكبير الذي يملكونه اليوم في شرق أفريقيا، و لم يكن لهم أن يتدخلوا في الشؤون الداخلية لزنجبار، كما هي الحال مع تركيا وألمانيا. و لم تتغير الأوضاع تغيرا مهما لصالحهم إلا منذ ١٨٧٥، بفضل سياسة الرق الانكليزية، وفي طريق الخراب التدريجي لشعبنا.

لم تصادف خولة القنصل الانكليزي، ولكن لأن المرء هتف بالجنود من بيت برغش في نفس الوقت "أمن! أمن!"، أوقف هؤلاء إطلاق النار وجرى تفادي الخراب في الوقت المناسب. فلو بدأت السفينة بإطلاق مدافعها فعلا لجلس اليوم شخص آخر بالتأكيد على عرش زنجبار وما كنت قد جئت إلى أوروبا أبدا. من المؤكد أيضا أننا ما كنا

سنخرج من ذلك العمل دون أذى لو لم يكن القرار بشأننا في يد ماجد النبيل.

ولمنع تكرر مثل هذه المؤامرة تقرر نفي برغش إلى شرق الهند البريطانية، إلى بومباي بالذات. وقد حدث هذا بناء على نصيحة من القنصل البريطاني. يبدو أن الانكليز كانوا ينوون أن يجعلوا ماجد الوريث الشرعي للعرش في قبضتهم ويربوه على طاعتهم لتحقيق مصالحهم فيما ينوونه لاحقا. اجتمعنا في المساء ثانية لدى برغش ومية لنتمنى للأخوين (فقد قرر عبد العزيز أن يشارك برغش منفاه طوعا) سفرة سعيدة. وقد استلما في الصباح التالي أمرا بركوب السفينة. حملتهما سفينة بريطانية إلى بومباي. عاش برغش هناك حوالي سنتين، ثم عاد بسلام إلى زنجبار، وأخيرا اعتلى العرش الذي تلهف عليه بحرارة، عام ١٨٧٠، بعد موت ماجد.

هكذا انتهى مشروعنا الذي بدأ بآمال كبيرة. لقد دفعنا ثمنا غاليا، خاصة إبنتا أخي اللتان كان تحمل الخسارة لمن هو في مثل ثروتهما أسهل، سقط الكثيرون من أفضل عبيدنا، وظل آخرون منهم معوقين مشوهين يذكروننا دائما بالكارثة التي تسببنا فيها. إلا أن هذا كان أقل ما علينا أن ننتظره من فعلتنا الخبيثة. وما كان يثقل علينا أكثر من ذلك أن جميع إخوتنا وأقاربنا الذين كانوا يفكرون تفكيرا سليما صاروا يتجنبوننا ويتجاهلوننا، أنا وخولة ومية وابنتي أخي، وهو ما لا أستطيع في أعماق قلبي أن ألومهم عليه.

بقي ماجد بالطبع الأخ الأكثر كرما بصورة عامة لقد عوتب مرارا بأنه لا ينبغي أن يتركنا دون عقاب، فمن المعروف أنه لولا تدخلنا لكان برغش في السجن منذ وقت طويل ولأمكن تجنب بعض المسافات وحتى القتال الدموي العلني. وقد أجاب دائما بأن ذلك كله صحيح تماما، لكن قلبه لا يطاوعه أن يرانا نحن النساء نعاقب أو نهان، وهو تبصر وكرم لم نستحقه بل أن البعض منا اعتبره ضعفا. لم يكن مفهوما لي دائما بالطبع كيف يمكن أن يعتبر ضعفا إذا ما تعامل أخ وعم مع أخواته وبنات أخيه بتساهل ليجنبهن مزيدا من الإهانة. حاولنا رغم كل التحريضات التي صورت فعلتنا في صورة أكثر قتامة، أن نتظاهر بأننا نجد كل ما فعلناه الان أيضا صحيحا وعادلا. لم تدعنا كبرياؤنا ننكس رؤوسنا أكثر من ذلك، إلا أن هذا كله كان مظهرا، فقد كنا نعاني كثيرا في قرارة أنفسنا.

الكثير من الناس الذين أرادوا لنا السوء أو أملوا أن يصلوا لدى الحكومة إلى شيء عبر الادعاءات، بذلوا خلال ذلك جهدا كبيرا لمتابعة مراقبتنا. لم يكن علينا نحن أن نشى شيئا من ذلك، لقد أخفق مشروعنا إخفاقا تاما فلا يمكن العودة إليه ثانية حتى لو أردنا ذلك. إلا أن هذه الجاسوسية أزعجتنا لأنها منعت أصدقاءنا الذين بقوا مخلصين لنا حتى الآن من الاتصال بنا علنا. وحتى البنيان الطماعون ابتعدوا عن عتبتنا تماما فترة طويلة و لم يجرؤوا على العودةإلا بالتدريج متسللين إلينا في الظلام ليطروا بضائعهم الهندية الثمينة بالتبجح

المعتاد. لقد أصبحت بيوتنا التي كانت تشبه قمريات الحمام، وكانت مليئة دائما بالضيوف، اليوم مجدبة ومقطوعة عن العالم الخارجي.

أصبحت الأوضاع بالنسبة لي لا تطاق. لم أبقَ في المدينة حيث لا أصادف إلا الكراهية وعدم الرضا؟ ولم تستطع البكائيات التي كنت أسمعها كل يوم أن تزيد من رفاهية الحياة، فقررت أخيرا أن أذهب للإقامة في واحدة من أملاكي الريفية لفترة طويلة.

كيسمباني وبوبوبو

بعد أيام قليلة رأتني الشمس الطالعة أسرع فوق حماري الأبيض الصغير إلى مزرعة كيسيمباني. أردت أن أقيم هنا في الفترة القادمة وأنتظر حتى تهدأ موجات العداء والكراهية التي كانت لا تزال مرتفعة. وحذت خولة ومية وابنتا أخي حذوي بعد وقت قصير. فتركن المدينة أيضا وانسحبن إلى الريف.

لم أكن قد زرت واحدة من مزارعي الثلاث منذ موت أمي إلا نادرا و لم أقم هناك أكثر من يوم أو يومين. فأعجبني هدوء الحياة الريفية الآن أكثر بعد الحركة الدائبة في المدينة وفي تمزقي الداخلي حول انقسامنا. كنت أستطيع في كيسيمباني بالذات أن أتعقب آثار أمي الغالية التي كانت تحب الإقامة هنا كثيرا. مشيت بحب في جميع الأماكن التي اعتادت أن تمشي أو تستريح فيها. ذكرني كل شيء بالرعاية اليقظة لأمي التي انتزعت مني مبكرا. ما كانت تقوده بيد ماهرة أصبح الآن من واجبي، وكان علي أن أقوم بجميع الأعمال وأحتمل الإزعاجات التي حكم بها على النساء الوحيدات في الشرق من خلال العزل

المفروض عليهن عن الرجال.

تمنعنا الشكليات المتعسفة أن نتحدث شخصيا حتى مع موظفينا العاديين إذا ما أصبحوا أحرارا. كان بالإمكان إبلاغهم بالطلبات والحسابات عبر عبيدنا فقط. أما الكتابة فلا يحسنها إلا عدد قليل من النساء الوجيهات. وثمة عدد كاف من السيدات الوحيدات اللائي لم يحصلن أبدا على حساب تحرير من مديري أعمالهن. فإذا ما كفل هؤلاء ما يحتاجه البيت وأرسلوا بعد بيع المحاصيل بضعة آلاف من ريالات مارياتيريزا فإن سيدتهم تكون راضية تماما. يعود القرنفل وجوز الهند بهذه المبالغ، وعلى العكس فإن المرء يأنف من بيع البطاطا وجذور اليامس ومنتجات الطعام الأخرى التي تنبتها الأرض، فما لا يستهلك منها في البيت يجوز للناظر أن يستخدمه لمنفعته الشخصية. وهذا يفسر كيف يستطيع مثل هؤلاء الناس الذين يأتون من عمان فقراء جدا في الغالب، أن يعودوا إلى الوطن بثروة محترمة بعد بضع سنوات.

كان حسون، الناظر الذي يسكن في كيسيمباني يأتي إلي في بيتي كل ثمانية إلى أربعة عشر يوما طيلة إقامتي في المدينة، ليقدم لي تقريرا عبر عبيدي عن جميع ما يجري في الريف ويستلم أوامري المحتملة. لمثل هذه الحالات كانت السيدات الوحيدات يخصصن غرفة في الطابق الأرضي من بيوتهن، يرتاح فيها الرجال المتعبون من عناء الطريق ويأكلون ويشربون قبل أن يمضوا فوق حميرهم خببا في طريق

العودة.

والآن، حيث أصبحت أقيم لفترة طويلة في كيسيمباني أصبح حسون المستقيم غير مريح بالنسبة لي. لم يعد المسكين يعرف ماذا يعمل، كان عليه في كل لحظة أن يتجنبني متجها مرة إلى هنا ومرة إلى هناك، فقط كي لا تقع عينه وهو الرجل الحر المساوي لنا علينا نحن النساء دون قصد. لذلك فضلت أن أنقله إلى مزرعة أخرى كان يشارك في الإشراف عليها حتى الآن، وتخلى عن وظيفته لعبد حبشي، مرجان الذي كان بالقياس لظروفه متعلما جدا، لأنه كان يحسن القراءة والكتابة. وكان يتمتع بحيوية كبيرة، كانت ضرورية لمراقبة وتوجيه بضع مئات من العبيد الزراعيين. الأحباش بوجه عام ناس فطنون، كنا نحب شراءهم ونفضلهم علي الزنوج.

والآن أصبحت أستطيع أن أتنزه كما أهوى وأتنقل راكبة دون أن أقطع الطريق في كل خطوة على المسكين حسون بن علي. وقد وفرت لي حيواناتي البيتية التي تكاثرت باطراد متعة كبيرة، إذ كنت أنشغل بها بضع ساعات في اليوم. كنت أزور بسعادة المرضى والعجزة في أكواخهم الصغيرة الواطئة وأقاسمهم الفائض في مطبخي عبر خادمي. جعلت أطفال العبيد الصغار – وهم نوع من الريع – يأتون إلي كل صباح حيث يغسلون عند البئر بـ "الرسل" وهي أوراق شجرة آسيوية تجفف وتطحن وتحدث رغوة في الماء لذلك تستخدم بدل الصابون، ويطعمون جيدا. وكانوا يبقون في قسم من

الفناء يلعبون تحت إشراف أمة مخلصة حتى يعود آباؤهم من الحقول في الرابعة بعد الظهر. وهكذا كان هؤلاء الصغار في وضع أفضل مما لو حملتهم أمهاتهم مقيدين على ظهورهن تحت لهيب الشمس طول النهار.

لقد وافقتني الحياة الحرة غير المقيدة في الريف بشكل استثنائي، وكنت سعيدة من كل قلبي أن أكون قد غادرت ارتباكات المدينة إلى هذا المكان المريح. زارتني بعد وصولي مباشرة نساء وبنات الوجهاء الذين يسكنون في حلقة تصل إلى الميلين حسب ما تقتضيه الشكليات، وبعد وقت قصير أصبحت أستقبل طيلة أسابيع بل شهور ضيوفا في البيت.

وكثيرا ما جاءني أيضا أناس غرباء تماما، ليستريحوا من التجوال في غرفة الرجال. هذه عادة طبيعية تماما. فكيسيمباني تقع على مفترق شارعين رئيسين حيويين، لذلك كان عدد مثل هؤلاء الزوار هنا كبيرا بصورة خاصة.

كانت اثنتان من أخواتي وابن أخ لي جيرانا مباشرين لي. وكان الأخير فيصل ابن هلال الذي تيتم مبكرا، وهو كما سبق أن قلت طيب القلب، متجاهلا من الآخرين. وقد وجد فيّ للمرة الأولى شخصا يفهمه، فالتصق بي بثقة طفولية تقريبا وجاء إليّ كل يوم راكبا.

احتفظت باتصال منتظم مع المدينة أيضا. كان على رسولين أن ينطلقا بالتناوب كل يوم مبكرا ويأتيا إلي في المساء بآخر الأخبار.

وعدا هذا فقد كنت أرسل خادمتي الخاصة إلى أخواتي وصديقاتي لتنقل إلي ما هو مهم من أخبارهن. وبالعكس كان يأتيني كل يوم رسل من سادة مختلفين ليسألوا عن أحوالي.

وهكذا بقيت على اتصال دائم بالمدينة، وكانت سعادة كبيرة لي أن أتلقى هذه الزيارات البريئة وأتخلص من الجواسيس الأشرار.

حل محل توتر الأعصاب الذي سببته المؤامرة التي انتهت نهاية بائسة، مزاج هادئ تدريجيا، إلا أن البغضاء والفرقة بين الأخوة كانت لا تزال قائمة. وكان هذا بالنسبة لي سببا آخر كي لا أفكر بالعودة إلى المدينة في الوقت الراهن، ولا حتى في زيارة قصيرة، رغم أنني كنت سأصل راكبة في ساعتين أو ساعتين ونصف الساعة: وعلى العكس كنت أرى أخواتي اللائي وقفن إلى جانبي في بيتي. فقد بقيت مخلصة لهذا القرار طيلة بقائي في كيسيمباني.

شعرت بالسعادة والرضا، ولم يكن ينقصني إلا شيء صغير، كنت أفتقر البحر الرائع الذي كان أمام عيني طيلة حياتي حتى ذلك الوقت، فيما عدا انقطاعات صغيرة. ولأن مزارعي الثلاث تقع جميعها في داخل الجزيرة، ولأنني ما كنت أتصور في ذلك الوقت أن تكون لي رغبة غير متحققة، ولما كنت أنوي البقاء في الريف فقد عزمت على شراء مزرعة واقعة على البحر مباشرة إن أمكن. وقد ضايقني ألا يكون ذلك سهلا، لأن جميع المزارع التي يمكن أن تكون موضع الرغبة كانت مملوكة لأشخاص اشتروها منطلقين من نفس

الذائقة، من أجل الاستمتاع وليس العوائد. وقد أقسم الدلال الذي كلفته بالبحث المطلوب عبر عبيدي أغلظ الأيمان بأنه لن يهدأ حتى يجد المزرعة المناسبة، ولكن كان عليه أن يبلغني بعد ذلك أنه ما من مزرعة واحدة للبيع.

كان قد وصل لتوه بهذا الخبر المزعج إلى كيسيمباني وكان قد أبلغني به عبر واحد من الخدم، حين جاءت صديقة لزيارتي وأخبرتني عن مزرعة تقع على البحر مباشرة ببيت جميل هو المقام الريفي لأحد أبناء عمها، الذي يقيم في المدينة باستمرار، ولم يكن يستخدم هذه المزرعة تقريبا، وهكذا ربما استطعت شراءها أو استئجارها.

قد يبدو حرجي هذا غير مفهوم للبعض، ففي ألمانيا يعتقد المرء غالبا أن البلاد بأكملها هي ملك خاص للسلطان وعائلته وليس للرعية حق ولا ملكية في مواجهة الحاكم. يتوهم المرء أننا لا نحتاج حين نرغب في شيء إلا إلى أخذه ببساطة دون أن نهتم بموافقة المالك المعني. ليست الأحوال لدى العرب بهذه البدائية. فالملكية الخاصة لدينا لا تمس أيضا، كما هو الحال هنا. ويمكن للمرء أن يرى هذا بوضوح أكبر إذ صعب علي أن أحصل على ما رغبت فيه رغم أنني سأدفع ثمنه نقودا كثيرة. ولأسفي فقد عرفت الآن لدى زيارتي زنجبار أن الوضع القانوني في الفترة الأخيرة قد تردى كثيرا. وقد روي لي فيما روي أن ملك القنصل الانكليزي هو هدية من السلطان انتزعه من مالكه السابق دون أي تعويض.

ركبنا في صباح آخر مبكرا إلى بوبوبو، هذا هو اسم المزرعة، لأراها أولا. وجدنا البيت مغلقا، وقد استغرق الأمر وقتا طويلا حتى تمكنا من الدخول. تعطي المزرعة نفسها انطباعا بأن المرء لم يرد أن ينفق عليها الكثير من المال والجهد وتركها للطبيعة. وعلى العكس فقد كان البيت واسعا ومبنيا بناء راسخا. ولم يكن البيت محاطا إلا من جهة واحدة بفناء واسع، فيه زاوية للمطابخ وغرف الخدم. يمر عبر الفناء نهير صغير ذكرني جدا بمتوني الحبيب، وهي فائدة لا تقدر بثمن لمناخنا. ولكن الأكثر مدعاة للمسرة هو المنظر اللطيف من الطابق الأول للبيت. عدد لا يحصى من النخلات الكبيرة والصغيرة تملأ المكان من الجهتين وأمامها مباشرة البحر الواسع الذي كثيرا ما غسلت أمواجه جدران البيت.

قررت على الفور شراء بوبوبو أو استئجارها، في الصباح التالي أسرعت صديقتي إلى ابن عمها في المدينة. بعد بضعة أيام أرسلت إلى خبرا بأنه لا يستطيع اتخاذ قرار ببيع مزرعته ولكنه يعرض علي السكن فيها بكل مسرة. لم أوافق على هذا بالطبع وبعد مفاوضات طويلة توصلت إلى استئجارها منه بمبلغ سنوي معين من ريالات ماريا تيريزا.

بعد اسبوع من توقيع العقد - فمثل هذا ليس أمرا غير معروف في زنجبار - انتقلت إلى بوبوبو لأجد البحر الرائع الذي احببته حبا شديدا منذ صباي حتى اليوم أمام عيني ثانية.

و لم يكدر سعادتي في البداية إلا فراق ابن أخي فيصل، لقد تألم من فراقنا كثيرا وشكا أنه لن يكون له أحد يستطيع أن يتحدث معه بحرية ودون حرج سوى زوجة أبيه العجوز.

كان على جميع حيواناتي المنزلية المدللة أن تتبعني، وقد أدهشها كثيرا وقد سيقت أو وضعت في أقفاص أو سلال أن تصل إلى هنا لتحيي بعضها فجأة في فناء آخر تماما. ويبدو أنها كانت راضية مثلي عن هذا التغيير. بينما كانت تشرب برضا تام من النهير أو تمشي فيه بمرح كالببغاوات والبط والحمام، جلست سعيدة هناك أو تنزهت على طول الشاطيء الجميل وراقبت السفن المتبدلة المختلفة التي تأتي من الشمال متجهة إلى المدينة، يعبر جميعها من هنا، وكذلك أيضا قوارب الصيادين الصغيرة التي تمرق بأصحابها وهم يغنون. وكثيرا ما بدا البحر وكأنه شارع كثير الحركة.

لقد اقتربت الآن أيضا من المدينة كثيرا وكنت أستطيع أن أصلها عن طريق الأرض أو الماء. وقد أسعد إخوتي عبد الوهاب وحمدان وجمشيد كثيرا أن يفاجئوني بزيارتهم في بوبوبو القريبة دون إبلاغ مسبق يوميا تقريبا، قادمين على خيولهم أو في قارب، كما يبدو لهم مريحا. كانوا يكبرونني بسنوات قليلة فقط، وقد كنا دائما مسرورين ومرحين. وكنا نفضل الجلوس على الشاطيء، نتبادل أطراف الحديث، نأكل ونشرب، أو نلعب الورق أيضا أو نشعل سلالا بأكملها من الألعاب النارية، كل هذا في بهجة بريئة وانشراح. خاصة

عندما كان جمشيد ذو "عيون القطط" يخرج بالقارب وحده ويحيينا طويلا بكمية كبيرة من الألعاب النارية، فنجيب على تحيات الوداع هذه بما لا يقل عنها إسرافا.

عشت هنا حياة اجتماعية أكثر مما فعلت في كيسيمباني. لم يمض يوم لم أستقبل فيه واحدة أو اثنتين، وغالبا حتى عشر نساء، كان قسم منهن يتابع رحلته بعد أن يستريح عندي بضع ساعات، بينما يمكث القسم الآخر يوما أو عدة أيام لدي. كانت فترة مرحة وخالية من الهموم بوجه عام.

حين أتذكر هذه الأيام الجميلة من شبابي، حيث لم أعرف العالم إلا من جانبه الطيب الرائع، ولم تكن لدي فكرة عن الأشواك التي هددت بأعداد كبيرة بسد طريق حياتي في كل مكان ينقبض قلبي. ولكن تلك الذكريات المقدسة لشبابي، ذكرى والدي وإخوتي، وطني، هي انعاش لي في ساعات الكمد. وأنا أستمتع بها كل يوم تقريبا. أدرك شاكرة أن يد الله الطيبة تمتد إلى كل مكان، أنه يقيس السعادة والشقاء بحكمته البالغة ويمنح الأشقياء دائما شيئا من السعادة كعزاء لهم.

كان على إقامتي في بوبوبو أن تنتهي بعد وقت قصير. كنت في ظهيرة أحد الأيام أراقب البحر بمنظار كبير من الطابق الأول في بيتي متوقعة أن أرى واحدا من أخوتي آتيا من بعيد. وبالفعل فقد اتجه قارب وحيد إلينا بعد وقت قصير. جاء عبدالوهاب هذه المرة وحيدا،

وقد أفشت لي ملامحه في الحال أنه جاءني بخبر مزعج.

"ماذا هناك من جديد يا أخي عبدالوهاب؟" صحت وأنا أتقدم لاستقباله. فرد علي "آه يا أختي، آه يا سالمة، أرسلت اليوم إليك برجاء، لم يعجبني على الإطلاق. إحزري ممن!" واستجابة لإلحاحي بدأ أخيرا: "أنت تعرفين أن قنصلا انكليزيا آخر قد وصل إلى هنا منذ وقت قصير."

"وما شأني بالانكليزي، أهو الذي أرسلك في النهاية إلى هنا؟"

"كلا!"

"والآن، تكلم واخبرني بكل شيء، دون أن تعذبني أطول من هذا."

"ولكن رجاء لا تسخطي علي يا سالمة!"

"كلا! كلا! والآن أسرع ما هي مهمتك!"

"أنا قادم بتكليف من ماجد، الذي يرجوك بكل حرارة، إذا كنت لا تزالين تحبينه، أن تتنازلي له عن بوبوبو. لقد كلف القنصل الانكليزي الجديد من يسأله أمس عما إذا كان بإمكانه أن يحصل على بوبوبو كمقام ريفي له."

لقد كان رجاء ماجد هذا صدمة قاسية لي. كنت سأرفض طلب أي شخص آخر بكل بساطة، ولكن هل كنت أستطع أن أخذل ماجد الذي تآمرت بخبث على حكومته، وربما علي حياته؟ لم أرد حتى الآن أن أقترب منه، رغم أنني كنت مقتنعة قناعة كاملة أنه كان قد محا ما حدث من ذاكرته منذ وقت طويل. والآن وقد مد لي من وجهت

له الإهانة وجرحت مشاعره بنفسه يده (فقد كان ذلك هو الأمر، وإلا فإنه كان يستطيع أن يوضح للانكليزي باختصار بأنه لا يملك حق التصرف في بوبوبو")، اعتقدت أنني بتلبية هذا الرجاء أستطيع أن أتخفف من قسم صغير من ذنبي الكبير. وقد أبلغت عبد الوهاب بهذا القرار.

وقد طلب ماجد أن أبلغ في حالة موافقتي بأنه يعرف أنني لا أفكر بالعودة ثانية إلى بيت المتوني، وهو يريد لذلك أن يبحث لي من خلال عبدالوهاب عن بيت مناسب في المدينة. لم أكن قادرة على أن أتخذ قرارا بهذا الشأن بهذه السرعة، فطلبت أن أعطى مهلة للتفكير.

كنت، وربما لأول مرة في حياتي، حزينة من كل قلبي بسبب شأن مادي. فقد كنت أشعر في بوبوبو بسعادة، لا مزيد عليها. بعد أن غادرني عبد الوهاب بعد الطعام، وطلب مني بحرارة لدى توديعي ألا أعود إلى كيسيمباني، ودعت في ذهني بعينين دامعتين جميع المواضع المحببة لدي. ترددت طويلا فيما إذا كان علي أن أسقط في حياة المدينة، حيث سينشأ هنا بالتأكيد أكثر من سوء تفاهم، وتشاءمت.

كتبت إلى عبدالوهاب في الصباح التالي أنني سأخلي بوبوبو خلال ثمانية أيام وأترك لماجد كامل التصرف فيه. واتخذت جميع الإجراءات للعودة إلى كيسيمباني، فقد كان هذا قراري أخيرا. إلا أن إخوتي الثلاثة الأحباء جاؤوا إلي بعد الظهر وصاحوا بصوت واحد عند دخولهم: "سالمة، لن تعودي هذه المرة إلى كينسيمباني! إذا كنت

تحبيننا فعليك أن تنتقلي إلينا في المدينة."

"أما إذا" أضاف جمشيد المرح دائما، كنت تريدين أن تختفي في مزرعتك فإننا سنهجم عليك في الليل ونحرق بيتك!" وقد نقل الثلاثة إلي رجاء أمهاتهم الودي (وكن ثلاثتهن شركسيات) أن أستقر في المدينة ثانية. وقد كنا نحن الأربعة للمرة الأخيرة معا في بوبوبو الرائعة، وحين افترقنا، ذهب إخوتي منتصرين، فقد وعدتهم أن أتخلى عن فكرة الذهاب إلى كيسيمباني.

أيامي الأخيرة في زنجبار

بعد أيام قليلة وجدت نفسي ذات مساء مقمر حوالي الساعة الثامنة على سطح بيتي الجديد في المدينة، الذي وفره عبدالوهاب لي، أتحدث مع واحدة من معارفي القديمات التي أصبحت الآن جارتي، حين جاء سالم وأبلغني بزيارة خولة لي.

كانت كلمات تحيتها، "آخ، سالمة، لم أكن أتصورك بهذا السوء!" "مساؤك سعيد يا خولة، ماذا فعلت من سوء لك؟" سألت في دهشة وأنا أقودها إلى التكية، مكان الشرف. "هكذا، لم تفعلي لي شيئا إذن؟ أيكون هذا لا شيء أن تتخلي عن بوبوبو تلبية لرغبة ماجد للكافر الانكليزي؟

"ولكن يا أختي العزيزة" أجبت وقد شعرت بالإهانة قليلا ربما، "هذا في الآخر شأني الخاص، وقد تحدثت لك عن هذا في رسالتي الأخيرة."

"أردت بهذا أن تتوددي إلى الملعون(كانت تعني بهذا ماجد)، أليس كذلك؟"

"كلا، أنت في هذا على خطأ تماما، لا أريد أن أتودد إلى أي إنسان، أنت نفسك تعرفين هذا منذ وقت طويل."

"نعم، لماذا قدمت له إذن هذا الصنيع" تابعت بحدة وانفعال أكبر، "وكما سمعت فإنه ذنبه أيضا أن تسكني هنا في هذا البيت وليس في بيت الثاني. أليس كذلك؟"

"كلا، لم يكن هو السبب المباشر في هذا، وأنما طلب مني عبدالوهاب وحمدان وجمشيد هذا برجاء ملح."

"آه، أرى أنك الآن ضدنا، حسنا"، صاحت وهي تنهض وترفض المرطبات التي قدمها الخادم، "عليك أن تختاري منذ الآن بيني أنا وبرغش من جهة، وبين عبد الانكليز من جهة أخرى! مع السلامة!" وغادرتني بهذه الكلمات.

لم أر خولة أبدا منذ ذلك اليوم، رغم أنني عشت عدة سنوات في نفس المدينة التي عاشت فيها، و لم تصبح أكثر استعدادا للصلح إلا بعد رحيلي. أتساءل دائما ما إذا كنت قد أردت أن أجرح مشاعرها بالفعل، وقد حصلت دائما على الجواب المطمئن أنني لم أفكر أبدا أن أجرحها عن قصد، وأنه لم يكن لي غرض آخر بالتخلي عن بوبوبو سوى أن أخفف قليلا عن ضميري المثقل. والآن أيكون علي أن أتهم بالتزلف، فيا لها من تهمة سخيفة! ولكن خولة كانت منفعلة بوجه عام حين أرادت أن تنفس عن سخطها، فبدت غير قادرة على التفكير الهادئ. لم أكن قد رأيت حتى ذلك الوقت لا ماجد ولا خدوج ثانية

وقد عزمت الآن بثبات أن أتجنبهما كي لا تبدو ريبة خولة مبررة.
ولكن حدث خلاف هذا، فما كاد يمر على إقامتي في البيت الجديد أربعة عشر يوما حتى زارني ماجد بنفسه مع حاشية كبيرة. "صباح الخير يا سالمة" صاح وهو يتقدم مني، "أنت ترين، رغم أنني أكبر منك سنا، قد جئت إليك أولا، لأعبر لك عن شكري لأنك لم تضعيني في موقف حرج أمام الانكليزي."

"لم يكن هذا شيء يذكر يا أخي، لا شيء على الإطلاق." قلت متلعثمة، فلم يكن أحد قد فوجئ بهذه الزيارة أكثر مني. وكما هو لطيف ونبيل دائما، فلم يذكر ما حدث بكلمة واحدة، وإنما حاول أن يبدد حرجي الذي لا يقاوم بحكايات مختلفة.

"أليس كذلك! ستأتين في وقت قريب لزيارة خدوج؟" "نعم بالتأكيد، سآتي"، كان جوابي الطبيعي جدا.

"عمتي عائشة التي تحبك كثيرا تعيش منذ بعض الوقت معنا أيضا وسيسرها أن تراك ثانية."

مكث ماجد لدي ما يقرب من الساعة، قبل أن نفترق متصالحين.
وقد انتشر خبر الزيارة في نفس اليوم وبلغ خولة أيضا.

بعد أن حدث ما كنت قد اعتبرته غير ممكن من قبل، أن يأتي ماجد الذي يكبرني كثيرا إلي أولا، لم يبق أمامي خيار آخر حتى لو كنت فعلا غير مستعدة للمصالحة، إلا أن أرد زيارته هو وخدوج وعمتنا عائشة.
و لم يخطر لي في ذلك الوقت أنني سأدفع ثمن هذه التصرف الذي

يعتبر من آداب المجاملة غاليا. فلا زالت تلك الخطوة تعتبر جريمة كبيرة حتى اليوم، كما لو كانت مشاركتي في العصبة المشؤومة وكل ما فعلته وعانيته قد نُسي في لحظة واحدة. قد تبدو هذه الغيرة غير مفهومة، ولكنها كما أدركت أنا نفسي في وقت متأخر كانت مبررة ضمن علاقاتنا العائلية يومذاك. وهكذا لم يكن لي أن أسدي لأخي صنيعا، أو أزور أخي وأختي وعمتي، أو احتفظ بعلاقة معهم دون أن يحل علي في الحال غضب الإخوة الآخرين إلى الأبد! وقد بقي الوضع على حاله بين الفريقين، فكاد بعضهم للآخر، فقط بسرية أكبر وضجيج أقل مما كان قبل المؤامرة. و لم يكن نادر الحدوث أن يعود الضيوف القادمون أدراجهم في الحال أو يغادر الضيوف الموجودون بأسرع ما يستطيعون حين كانوا يلتقون مع بعضهم عن غير قصد منهم عند أشخاص آخرين، كي لا يتوجب عليهم البقاء مع عدو تحت سقف واحد. وكانت المضيفة تجد نفسها دائما في وضع مزعج، لأنها تكون مرغمة على أن تحافظ على الحياد التام وتتجنب أي تدخل. فما الذي أفادني أن أقسم أغلظ الايمان بأنني لن انساق في المستقبل في نشاط الأحزاب؟ لقد حدث ما خشيت عواقبه و لم يعد تغييره ممكنا. وقد أصبحت العداوة بين الحزبين لا تطاق إذ صار المرء يعبر عن جميع مشاعره علانية.

الشرقي صريح بطبعه وغير قادر على المداهنة التي يتقنها المرء بمهارة هنا. فإذا رأى في شخص عدوا وخصما له فقلما يخفي هذا.

ولا يهمه أن يجرح هذا بمرارة، بنظرة أو إشارة أو كلمة. فهو لا يعرف التصرف على نحو آخر خلاف ما يشعر ويفكر به حقا. التهذيب التقليدي الذي يتعامل مع كل شيء وفق قالب هو غريب عليه. ومحاولة إظهار غير ما يبطنه التي لا تنجح مع حرارة دمنا الطبيعية إلا نادرا، تعتبر جبنا. سمعت في بيتنا الكبير عددا لا يحصى من المرات كلمات: "لماذا على أن أظهر غير ما أحس به؟ ألا يعرف الله ربي جميع أفكاري ومشاعري؟ فلماذا يكون علي أن أظهر أمام ابن آدم الصغير غير ما أبطن أو أخاف منه؟"

خلقت خطبة وزفاف اثنتين من أخواتي على اثنين من أبناء أحد أعمامي تغييرا مبهجا في حياتنا وهو ما أفرح الكثيرين، وبدا أن الخصومات والمنازعات في أوساط العائلة قد خمدت لبضعة شهور. وقد كان حظ الأختين رغم أنهما تزوجتا أخوين، مختلفا تماما، كما يحدث في هذه الدنيا كثيرا. أنجبت التعيسة أطفالا وحرمت السعيدة منهم رغم رغبتها الحارة في إنجاب طفل. من لا يفكر في هذه الحال بنوع من التعويض للقدرة الإلهية التي تمنح كل واحد بحكمة ورأفة؟

اتسعت حلقتنا من خلال العدد الكبير من أقربائنا الذين هاجروا بسبب الضائقة التي يعاني منها إخوتنا في عمان من هناك إلينا، واستطعت أن أنعم مرة أخرى بالرضا التام في أوساط العائلة.

وبقيت واحدة من صديقاتي لا تنسى خاصة، لا أستطيع أن أذكر إسمها ولا أريد أن أتحدث عن علاقتنا وعن انفصالنا بالتفصيل. أريد

فقط أن أشير إلى أن تلك الصديقة الوفية بقيت معي حتى الأخير حين كنت على وشك مغادرة وطني إلى الأبد في مخاطرة خاصة تماما. ولأنها كانت تعرف شؤون بيتي، لم يفتها ما كنت أنويه، ومع ذلك بقيت معي حتى أرغمتها على الابتعاد برفق من أجل سلامتها الخاصة، قبل نصف ساعة من مغادرتي. "صاحبة السمو" قالت لي عند توديعي، "ليحفظك رب العالمين. أعرف أنني سأفارق الحياة خلال أثنتي عشرة ساعة، ولكن هذا ليس كثيرا عليك!" لا زالت كلماتها ترن حتى هذه الساعة في أذني وأستطيع أن أهتف بقناعة كاملة: "يا لسعادة من استطاع أن يعتمد على أصدقاء طيبين ومخلصين!"

إذا أراد المرء أن يتعرف على صداقة حقة ومضحية، فعلى المرء أن يذهب إلى الشرق. ليس كما لو أن مثل هذه الصداقة غير ممكنة إلا في الشرق ولدى الشرقيين، ولكنه واقع أن العربي إذا أحب يتعلق بإصرار وتضحية بمن يحب، لا يبالي معهما بأي مراعاة للخارج. ورغم أن تراتبية البشر لا تراعى في أي مكان بمثل هذه الفظاظة كما في الشرق، لا تلعب مكانة الشخص في صداقة حقيقة أي دور. فيتعامل أمير بمحبة مع ابن السائس الذي كسب وده، كما يتعامل مع أصدقائه الآخرين من أصل نبيل، دون أدنى تمييز. وتصادق أميرة نساء وبنات ناظر مزرعة بسيط مثلما تصادق وجيهة عربية. فأختي مية مثلا التي انعقدت بينها وبين إبنة ناظر صداقة حميمة دعت هذه للإنتقال إلى قصرها ببساطة، وقامت بينها وبين الفتاة الفقيرة ولكن

الذكية جدا علاقة بالغة العمق، لم ينهها إلا الموت.

وليس نادرا أن تقيم سيدة وجيهة علاقة صداقة حميمة مع أمة غريبة، ولكن بالطبع ليس مع زنجية، وإنما مع شركسية أو حبشية فقط. وقد كان هذا سعادة خاصة للأمة، فهي تُشترى من قبل صديقتها الوجيهة بخمسة أو عشرة أضعاف ثمنها، وإذا كانت سيدة الأمة قريبة لها فإنها قد تقدمها إليها هدية لتحصل على الحرية من فاعلة الخير. ويحدث العتق دائما أمام القضاء، كي لا يستطيع أي شخص ثالث أن يدعي حقا على المحررة ثانية.

وإذا أدخل أحد السجن فإنه لأمر بديهي أن يدع صديقه نفسه يحتجز بضع ساعات من النهار معه. وكثيرا ما يرافق الأصدقاء المخلصون المنفي أينما حل. أما إذا أصابت أحدهم مصيبة أو أصبح فقيرا فإن أصدقاءه يقفون إلى جانبه بكل ثروتهم بإخلاص فلا يحتاج المرء لذلك أن يتوجه إلى الجهات الخيرية العامة بقوائم جماعية. لقد اعتاد المرء كل هذا منذ الصغر ونشأ على هذه النظرة فأصبحت بديهية بوجة عام.

تحولات كبيرة

في هذا الزمن المقبض حيث ساد الكدر والشقاق في عائلتنا، شعرت بالسعادة من خلال حبي لشاب ألماني، كان يقيم في زنجبار كممثل لبيت تجاري من هامبورغ. كثيرا ما وصل إلى الإعلام عرض غير صحيح للأحداث ذات الأهمية الخاصة لي، التي ارتبطت بهذا، لذا أحس بالحاجة إلى أن أتحدث عن الموضوع بكل ارتباطاته باختصار. تمتع الأوروبيون في ظل حكومة أخي ماجد بمكانة محترمة جدا. كانوا ضيوفا مُرحبا بهم في بيته وفي مزارعه وكانوا يصادفون في كل مناسبة ترحيبا ملحوظا. وقد كانت تربطنا أنا وأختي خولة علاقات صداقة مع أوروبيي زنجبار، عبرت عن نفسها في بعض الهدايا الصغيرة، كما تسمح به عادات البلاد. وحين كانت الأوروبيات يأتين إلى زنجبار كن يزرننا غالبا أنا وخولة فقط.

تعرفت على زوجي المقبل بعد انتقالي من بوبوبو بوقت قصير. كان بيتي يقع في جوار بيته مباشرة، وكان سطح بيته أوطأ من سطح بيتي، وكثيرا ما شاهدت من أحد شبابيك الطابق الأعلى مجالس الرجال

البهيجة التي كان ينظمها من أجل أن يريني وجبات الطعام الأوروبية. شاع في المدينة بعد وقت قصير أمر صداقتنا التي تحولت مع الزمن إلى حب عميق، وعرف بها أخي ماجد أيضا. لم يبد لذلك إزائي أي عداء أو يسجنني كما روت الأساطير.

بالطبع شعرت بالرغبة في مغادرة وطني سرا حيث لم يكن الارتباط بالحبيب ممكنا على الإطلاق. أخفقت المحاولة الأولى بهذا الصدد. ولكن تهيأت لي بعد وقت قصير فرصة أفضل. من خلال وساطة زوجة الطبيب الانكليزي ونائب القنصل يومذاك السيدة س.، والتي كانت صديقة لي، إصطحبني ذات ليلة قائد السفينة الحربية البريطانية "هاي فلاير" السيد ب. في قارب. حين وصلت إلى ظهر السفينة، إنطلقت في الحال متجهة إلى الشمال. وصلنا سالمين إلى عدن، هدف رحلتنا. نزلت هنا عند زوجين إسبانيين كنت أعرفهما من زنجبار، وانتظرت بصبر حتى وصل خطيبي الذي كان يحتاج إلى بضعة أشهر لينظم شؤونه في زنجبار إلى عدن أيضا.

تلقيت خلال تلك الفترة دروسا في تعاليم الديانة المسيحية. وقد جرى تعميدي الذي حصلت خلاله على اسم اميلي، في الكنيسة البريطانية في عدن وبعده مباشرة عقد قراننا وفق الطقوس الانكليزية. حين انتهت الاحتفالات أخذنا السفينة مرورا بمارسيليا إلى همبورغ، مسقط رأس زوجي، حيث استقبلنا والداه وأقاربه أفضل استقبال.

اعتدت بعد وقت قصير الأوضاع الغريبة علي وتعلمت بحماس

كل ما هو ضروري لحياتي الجديدة. وقد تابع زوجي الذي لا أنساه بحيوية المراحل المختلفة من تطوري، وشعر بفرح خاص دائما وهو يلاحظ الانطباعات الأولى التي تشكلت لدي عن الحياة الأوروبية وعادات العالم المتحضر. لقد سجلت هذه الانطباعات في مذكرات مخلصة ربما وجدت الفرصة لاحقا للتحدث عنها.

لم تدم حياتنا السعيدة الراضية طويلا. كان قد مضى على انتقالنا إلى همبورغ أكثر من ثلاث سنوات بقليل حين تعرض زوجي الحبيب لحادث، إذ سقط لدى القفز من عربة الخيول ودهس. وفارق الحياة بعد ثلاثة أيام من الآلام المبرحة. وجدت نفسي وحيدة في العالم الكبير الغريب مع ثلاثة أطفال صغار عمر أصغرهم ثلاثة أشهر فقط. فكرت طيلة فترة من الزمن أن أعود إلى بلادي، لكن القدر أراد أن يموت أخي ماجد أيضا الذي كان طيبا معي، بعد شهرين من تلك الضربة الكبيرة. لم يمس خطيبي بعد سفري قيد شعرة وتركه يصفي أعماله في زنجبار دون عائق. و لم يضغن علي فيما بعد بسبب هروبي سرا بأية صورة، لقد آمن كمسلم ورع بإرادة الله وكان مقتنعا أنها هي التي قادتني إلى ألمانيا. وقد قدم لي دليلا مؤثرا على استمرار شعوره الأخوي قبل وفاته بوقت قصير، إذ حمل سفينة بخارية بأشياء من كل الأنواع، وطلب تسليمها إليّ في هامبورغ كهدية. وكانت السفينة لا تزال في طريقها حين فارق المعطي الكريم الحياة فجأة. لم أستلم أيا من الأشياء التي أرسلت إلي، و لم أكن قد عرفت في ذلك

الوقت بوجه عام عن نية ماجد النبيل، ولم أسمع إلا لاحقا أن نيته الطيبة أحبطت وأنني خدعت. لقد نشرت إشاعة في هامبورغ بأن السفينة وصلت إلى الميناء من أجل إصلاحها فقط. بعد تسع سنوات روى لي صديق شاهد سفينة ماجد في جبل طارق وتحدث إلى قبطانها بأن الحمولة كانت مخصصة لي! وقد وجد أفراد طاقم السفينة السمر رغم كل التحفظات الطريق إلى بيتي في هامبورغ. وقد كان الرجال المساكين سعداء جدا لأنهم نجحوا في ذلك وأظهروا لي بطريقة مؤثرة تعلقهم بي.

عشت سنتين أخريين في هامبورغ، وقد تبعني سوء الحظ هنا باستمرار. خسرت بسبب خطأ الغير جزءا مهما من ثروتي وكان علي الآن أن أدير شؤوني بنفسي. كرهت الإقامة في موضع سعادتي العائلية السابقة، سيما وأن بعض الأوساط في تلك المدينة الساحلية لم تراعني كثيرا كما توقعت.

انتقلت إلى درسدن وعرفت هنا التعامل الودود. ومن هنا قمت برحلة إلى لندن سأتحدث عنها في الفصل التالي بالتفصيل. حين شعرت في وقت لاحق بالرغبة في العيش في مكان هادئ، انتقلت لبضع سنوات إلى رودولف شتادت المريحة. وقد قوبلت من المجتمع هناك أيضا بمحبة وصداقة، خاصة من السادة الأمراء. وقد استعدت قوّتي هناك ثانية بعد وقت قصير، فاستطعت أن أفكر في الانتقال إلى برلين، لأمكن أطفالي من الحصول على تربية جيدة. تعرفت هنا أيضا

على بعض الأصدقاء المحبين الذين حاولوا جعل إقامتي في برلين مريحة، وقد وجدت حتى لدى أعلى الناس مكانة مشاركة بالغة اللطف، سأتذكرها بمحبة على الدوام.

سيد برغش في لندن

بقيت على إتصال مع وطني عبر تبادل الرسائل، و لم أتخلَّ أبدا عن الأمل في أن أراه ثانية. إلا أن عناد أخي برغش جعل كل تقارب حتى الآن غير ممكن. و لم يكن سبب عدم استعداده للمصالحة التطرف بأية حال من الأحوال، وإنما العناد والحقد اللئيم، فلم يستطع أن يغفر لي أبدا أنني كنت قد استعدت العلاقة الودية مع خصمه السابق ماجد! لكن شوقي إلى أحبائي في الوطن البعيد لم يتضاءل بسبب ذلك، وقد أملت سرا في مصالحتهم.

هنا انتشر عبر جميع الصحف - كان ذلك في ربيع عام ١٨٧٥- خبر شغل تفكيري وأثار مشاعري إلى أعمق حد: نية أخي برغش، سلطان زنجبار بعد وفاة ماجد، بزيارة لندن!

في البدء لم أفعل شيئا إزاء هذه الشائعات على الإطلاق و لم أظهر قلقي. لقد عرفت حتى ذلك الوقت خيبات كثيرة فما كنت أستطيع أن أستعيد شجاعتي في الحال. إلا أن بلاغة أصدقائي المخلصين وإلحاحهم دفعني إلى أن أفعل شيئا. فقررت أخيرا أن أسافر إلى لندن،

وقد أملني الوزير يومذاك، فون بولو، في مساعدة السفير الغراف مونستر الدبلوماسية، التي لم تساعدني كثيرا للأسف.

استفدت من الوقت الضيق الذي تبقى لي حتى موعد السفرلتعلم اللغة الانكليزية، لتقلل من عجزي الكبير على الأقل. كثيرا ما جلست خلال الأسابيع التي تتراوح بين الستة والثمانية منكبة على الكتب حتى الفجر، أتلو الحوار بعد الآخر بالانكليزية أو أتعلم المفردات. يضاف إلى ذلك قلقي المتزايد على أطفالي الثلاثة، الذين كان علي أن أبقى بعيدة عنهم لأول مرة لوقت غير محدد.

كانت هذه الأفكار وغيرها ترهق ذهني المضطرب على أي حال حين بدأت رحلتي عبرالطرف الشرقي. ضعيفة وقلقة قلقا محموما وصلت بسلامة إلى هدفي حيث نزلت في غرفة في فندق، حجزها لي أصدقائي. لم أكن أعرف في لندن أحدا عدا هذين الزوجين، وحتى هذين لم أكن قد رأيتهما سوى مرة واحدة وأقل من ساعة حين زارونا أو بالأحرى زاروا زوجي في رحلة شهر العسل. اتجهت إليهم وأنا في ضائقة، و لم أندم على هذه الخطوة، لقد وفرا لي ما أحتاجه بتضحية.

وصلت لندن قبل وصول أخي بحوالي ثمانية أيام واستفدت من هذه الفترة لأتعرف على الأوضاع الجديدة والمعقدة. وقد زرت قبل كل شيء الغراف مونستر الذي أكد لي مرة أخرى استعداده لمساعدتي.

كنت أجلس في صالة الفندق بعد وصولي بخمسة أيام تملؤني

الأفكار المكدرة، حين نودي فجأة على رقم غرفتي، علامة على أن ثمة من يبحث عني. قدمت لي بطاقة للدكتور ب.م.ب.، أخ لصديق ودود لي.

وقفت أمامه وأمام زوجته التي قد توفيت الآن، لأتعرف فيهما على أنبل مخلوقين، فعلا كل شيء لتسهيل الحياة علي هناك. جاءا ليعرضا علي خدماتهما ويعرضا علي الاقتراح الذي رحبت به في أن أقيم منذ الآن فصاعدا في بيتهما. كان علي أن أذهب معهما في الحال في نزهة ركوبا، وأن أتناول الغداء معهما، وأقضي النهار كله عندهما في أيام أخرى. وهكذا بدأت الحياة في لندن تصبح أكثر سعادة بالنسبة لي، وأحيت الآمال لدي.

لم يهدأ أصدقائي في ألمانيا حتى وعدتهم وعدا قاطعا بأنني سأتصرف بأكبر قدر ممكن من الحذر وأسعى إلى الحصول على مساندة الحكومة البريطانية من أجل قضيتي. وبعد أن أصبت مع مر الزمن بالكثير من وجع القلب وصعبت علي الحياة كثيرا بسبب عدم معرفتي للغات والعادات والتقاليد الأوروبية، كنت سعيدة حين توصلت إلى القناعة بأن على المرء أن يعتمد على الله وعلى نفسه في جميع الظروف الصعبة. فأردت الآن أن أتصرف على مسؤوليتي الخاصة، إلا أنني في الآخر تراجعت أمام رجاء أصدقائي. لم تصدق مخاوفي بأن المرء يمكن أن يماطل من خلال المجاملات الدبلوماسية والكلام العام ويضع طلبي في الملفات وحسب وإنما تجاوزها الواقع

بكثير. لقد عرفت بعد وقت قصير بما يكفي أنني أعيش في عالم يعتبر فيه الكذب والخداع فضيلة تقريبا.

بعد نزولي في بيت الزوجين ب. اللطيفين، أبلغت بنية السير بارتل فرير الذي أصبح فيما بعد الحاكم العام لجنوب أفريقيا، في زيارتي، شخصية لم تكن معروفة لي إلا بالاسم. وإذا لم يخطىء حدسي فقد دفن في هذه الأيام أملي الحار ومستقبل أطفالي. لقد شعرت بضيق لا يوصف حين أبصرت الدبلوماسي الكبير الذي اضطهد وطني كما يحلو له ووضع أخي في جيبه كما يقال.

بدأ سير بارتل بعد عبارات التحية المألوفة يستعلم عن شؤوني وعن سبب وجودي في لندن. ورغم أنه بدا مطلعا بهذا الشأن، أخبرته بكل ما أريده، لم يكن ثمة الكثير لأرويه، إذ كانت في ذهني فكرة واحدة: المصالحة مع أهلي.

من يستطيع أن يصف خيبتي حين أجاب السير بارتل بالسؤال البارد، أيهما أهم لدي المصالحة مع أهلي أم ضمان مستقبل أولادي! لا زلت أشعر حتى اليوم أنني أضعف كثيرا من أن أستطيع أن أصف مشاعري حينذاك. كنت أتوقع كل شيء إلا سؤالا كهذا. لن يتهمني المرء بالجبن والتردد إذا كنت قد تذبذبت في اللحظة الحاسمة، فقد كان علي أن أضع رفاهية أولادي فوق رغباتي الخاصة.

بعد أن تغلبت على الارتباك الذي أحدثته نقلة الشطرنج الدبلوماسية غير المتوقعة هذه طلبت من المقابل أن يشرح لي سؤاله

ويوضح لي الغرض منه. وقد أوضح لي السير بارتل بشكل قاطع أن الحكومة الإنكليزية لا تنوي بأي حال من الأحوال أن تقوم بدور الوسيط بيني وبين أخي، وهي تعتبره ضيفا ولا تريد أن تثقله بأشياء مزعجة. (إلا أنه أمر مشكوك فيه أيهما أكثر إزعاجا للسلطان، أن يوقع اتفاقية العبيد، حيث أرغمه المرء عليها بالمسدس تقريبا، ويعترف بذلك بالحماية البريطانية، أم أن يمد يد المصالحة لأخت نادمة.)

وعلى العكس إذا أردت أن أعد بعدم الاقتراب من أخي بأي طريقة، لا شفاها ولا تحريريا طيلة إقامته في لندن، كان هذا هو اقتراحه، فإن الحكومة البريطانية ستكفل مستقبل أولادي ماديا.

حزينة حزنا عميقا وخائبة شعرت أنني مثل عطشان يأمل بعد مسيرة أميال في جرعة ماء من نبع بارد، تعوضه عن تعب وعذاب الطريق، فيجد البئر المنشودة لكنها مغلقة بيد هائلة. وضعت أمام الاختيار، إما أن أتصرف مستقلة دون أي مساعدة من الحكومة البريطانية، وأن أحاول بقناعة ثابتة في أن المرء سيضع أمامي في كل مكان في الطريق عقبات لا يمكن التغلب عليها، ولا تقوى عليها قدراتي الضعيفة إلى حد كبير، أو أن أقبل يد الحكومة البريطانية المعروضة علي لمصلحة أطفالي. متذكرة الوعد الذي أعطيته لصديقتي التي عاملتني بأمومة، البارونة فون ت. في درسدن التي لا أنساها، في ألا أذهب إلى أخي وحيدة وغير مستعدة، رغم أنني شخصيا لم أشك أبدا أن القوانين الإنكليزية في كل مكان وفي أنكلترة قبل غيرها

ستحترم هذا بصرامة، ورغم أنه لم يكن لدي تحفظ في أن أقابله فجأة، قبلت عرض الحكومة الانكليزية.

كان تصرف الحكومة الانكليزية قد أثار منذ ذلك الوقت أنواعا من الريبة. وحين سأل صديق لي السير بارتل بصراحة، ما الذي يدعو الحكومة الانكليزية فجأة إلى الإنفاق علي، لم يقدم الدبلوماسي اللبق أقل من ثلاثة أسباب: ١. إننا نسدي للسلطان بذلك صنيعا، ٢. إننا نكفل بقاء الأميرة هادئة لفترة من الزمن و ٣. نسلب المستشار الألماني بسمارك كل فرصة للتدخل في هذه الأشياء فيما بعد. وقد بدا هذا منطقيا ومطمنا.

ولكي أتجنب أي مقابلة مقصودة مع أخي سواء في المؤسسات العامة حيث يستطيع أي واحد لقاء نقوده الدخول، أو في هايد بارك وفي الشوارع، درست كل يوم الصحف التي ذكرت فيها تنقلاته دائما بدقة، لأراعيها. وقد طلبت من مضيفتي اللطيفة ألا تصطحبني معها في نزهاتها، فقد فضلت البقاء في البيت، فقط كي لا أحنث بوعدي، وقد شرحت لي بإصرار أنه يجب أن أخرج معها من أجل صحتي، وأنها ستمضي في الطرق المناسبة. وهكذا مضينا إلى الشرق حين كان السلطان في الغرب وبالعكس. كان لا بد لي من هذا الحذر، فلا أعرف ما إذا كنت سأبقى في مقابلة مفاجئة سيدة عواطفي ولا أنسى في اللحظة الدقيقة وعدي. وكان خطر أن يعرفني أمرا مستبعدا تماما، ففي ملابسي الحالية ما كانت حتى أمي العزيزة لو كانت على

قيد الحياة، لتتعرف علي ثانية، ناهيك عن واحد من إخوتي الذين لم تكن لهم فرصة لرؤيتنا دون قناع إلا نادرا.

وددت لو غادرت المدينة التي قضي فيها على حنيني وأملي وعدت بأسرع ما يمكن إلى ألمانيا. إلا أن هذه الصنيع لم يسد إلي. كان علي أن أقضي في هذا المكان أسابيع مليئة بعذاب لا يوصف، بعيدة عن أطفالي وفي خوف وقلق عليهم، لم تأتني إلا بالهم والخيبة، هذا ما أراده السير بارتل، إذ كان ينبغي صياغة وتقديم مذكرة تفصيلية.

ولما كنت عديمة الخبرة في مثل هذه الشؤون الرسمية، وفي وضع نفسي متدهور حتى أنني كنت أشبه بجهاز أوتوماتيكي مني بإنسان مفكر، قبلت عرض أصدقائي المضحين ليصيغوا لي المذكرة، وشعرت بالتفاؤل الراسخ أنها لا يمكن إلا أن تسفر عن ثمار طيبة. لم أستطع مغادرة انكلترة والعودة إلى أطفالي في ألمانيا إلا بعد سبعة أسابيع مليئة بالعذاب. بأية مشاعر وأي مزاج حدث هذا، فهو أمر لا يصعب التكهن به.

ولأن زنجبار لا بد أن تكون قد اعتبرت منذ ذلك الوقت مستعمرة إنكليزية مقبلة، كان على مذكرتي أن ترسل أولا إلى الولاية الهندية، أي إلى شرق الهند. مرت على ذلك بضعة شهور حتى فاجأني وصول رسالة من لندن مفاجأة مؤلمة، احتوت الرسالة نص وثيقة أرسلتها الحكومة البريطانية إلى الغراف مونستر ليبلغني بها، ولا تحتوي غير رفض قصير للمذكرة التي نصحني السير بارتل بإلحاح بتقديمها. وقد

ذكرت الوثيقة كسبب للرفض: أنني تزوجت ألمانيا، وأعيش في ألمانيا، وهكذا فإنه أقرب إلى أن يكون في مصلحة الحكومة الألمانية أن تدافع عني.

هذه العبارة السخيفة كانت أدعى إلى السخرية لأنني لم أطلب لا من هذه الحكومة ولا من تلك صدقات، وإنما طلبت إسنادا معنويا وحسب. لقد كان سير بارتل نفسه أبا المذكرة، نفس الدبلوماسي الذي استدرجني قبل فترة قصيرة من خلال التأكيد على تأمين وضع أطفالي، إلى ذلك الوعد بألا أقترب من أخي! يومها لم أصدق شيئا آخر سوى أن كتابة هذه المذكرة هي أمر شكلي محض وأنني إذا التزمت بوعدي فإن الطرف الثاني سيلتزم بوعده أيضا. في مثل قلة خبرتي لم يخطر على بالي أن المرء قادر على أن يسلب حتى الأرامل العاجزات كل أمل بهذا الإجحاف وهذه الحيلة.

ما إذا كان مثل هذا التعامل إزاء امرأة تعيسة يليق بقوة مثل انكلترة، فهو أمر أترك الحكم فيه لكل من يفكر بعدالة، أريد فقط أن أطرح سؤالا، ألم تكن الحكومة الانكليزية تعلم هي والسير بارتل حين تقربت مني بعرضها أن زوجي كان ألمانيا، وأنني أحمل الجنسية الألمانية؟ هل ذكرت هذه النقطة على الإطلاق حين استدرجت إلى ذلك الوعد؟ أوَلم ألتزم بذلك الاتفاق وأفي بوعدي بدقة، كما لو كنت أقيم في لندن وكان اسمي مسز براون؟ نعم بالطبع، حين كنت قادرة على الاقتراب من أخي بهذه الطريقة أو تلك، لم أكن الألمانية

التي لا يحتاج الانكليزي إلى أن يظهر أي اهتمام بها، وإنما أخت السلطان التي كان يمكن أن تضر بمصلحة الانكليز، والآن بعد أن عاد أخي منذ وقت طويل إلى وطننا، حين لم يعد المرء يخشاني، هنا لعب الورقة التي احتفظ بها متعمدا كما يبدو، لينتهي من قضيتي إلى الأبد. لقد كانت ذريعة شائنة جدا، للتحلل من اتفاق لجأ إليه المرء منذ البداية كارها!

لقد عرفت بدقة فيما بعد، لماذا كانوا لا يريدون في لندن في ذلك الوقت بالذات أن يتحقق الصلح الذي كنت أصبو إليه بحرارة بيني وبين أخي. فلأن السلطان لم يكن يتقن لغة أوروبية ولا يعرف مهارة الدبلوماسية الأوروبية، فقد أراد الانكليز أن يتركوه في هذا الجهل التام، فلا يواجهون صعوبة في جعله يوقع على معاهدات معينة. وافترضوا أنني إذا ما تصالحت معه فعلا فربما أستطعت أن أعطيه معلومات عن هذا أو ذاك لمعرفتي بالأشياء الأوروبية التي هي مهما يكن أكبر، والتي هي مفيدة له ولزنجبار ولكنها لن تتفق مع رغبات الحكومة البريطانية. لقد كنت ضحية هذه السياسة "الانسانية" دون أن أدري.

ولكنه سيكون نكرانا كبيرا للجميل ألا أفرق بين الحكومة الانكليزية والمجتمع الانكليزي. فبينما أنا مدينة للأولى ببؤسي، وقد فقدت بسبب خداعها الإيمان والثقة بالناس، لم أشهد من الأخير إلا

اللطف والطيبة. لقد عبر الناس حتى أعلى الدوائر في انكلترة عن مشاركتهم الدافئة في قدري، وأشعر للكثيرين جدا بالامتنان لطيبتهم ما حييت.

العودة إلى الوطن ثانية بعد تسعة عشر عاما

حين كتبت الفصل السابق قبل بضع سنوات لم أكن أعتقد بإمكانية تحقيق أمنيتي، التي شغلت تفكيري وعوطفي كلها، بل حياتي. لقد كانت الفترة المليئة بالأحداث التي مرت منذ رأيت وطني الحبيب للمرة الأخيرة، فترة عاصفة وقاسية أكثر مما يمكن تصوره بالنسبة لي. كنت قد اجتزت أروع التحولات في حياتي، وعشت أوضاعا لا يتمناها المرء لألد أعدائه. أستطعت بفضل بنيتي خلال سنوات متعاقبة أن أتحدى الحياة التي لم تكن سهلة بأي حال من الأحوال والمناخ القاسي للشمال، ولكن حتى هذا أصبح بالنسبة لي الآن أصعب أيضا.

لقد مضت سنتان منذ أن قلت ذات مساء لابنتيّ : "يا أطفال، إنني أفكر منذ وقت طويل عما إذا كان الوقت قد حان الآن للعودة إلى زنجبار" تناقشت معهم حول وجهات نظري بهذا الشأن. ذكرتني واحدة بنذير الشؤم الذي يحوم فوقنا وبإخفاقاتي السابقة وقالت إننا لن نحصل في هذه المرة أيضا إلا على القلق غير الضروري والخيبة،

بينما هبت الأخرى بحماسة: "كلا يا أمي، لا ينبغي أن تتخلي عن المحاولة، حتى لا تلومي نفسك فيما بعد لأنك ضيعت اللحظة المناسبة." لقد نطقت فقط بما كنت أفكر فيه.

قمت بثقة بالخطوات الضرورية، ووجدت تعاونا لدى أصحاب الشأن، إلا أنني لم أرد فترة من الزمن أن أمضي بالأمر إلى الأمام. بعد تكرر الخيبات وبعد أن بدا لي بين حين وآخر أن حنيني إلى وطني لن يطفأ، استلمت ذات يوم من وزارة الخارجية دعوة للاستعداد للسفر إلى زنجبار خلال وقت قصير، بلغ إنفعالي من هذا الخبر أنني لم أفرح فرحا حقيقيا في الحال بهذه السعادة التي تلهفت عليها طويلا. بعد أن حمدت الله وشكرته على إرادته الرائعة شعرت بالدرجة الأولى بالعرفان العميق لقيصرنا المحبوب الجليل ومَرافق حكومته العالية التي سنتحفظ أنا وأطفالي لها دائما بامتنان لا يمحى.

ليس هذا مكان مناسب لأروي كيف تطورت هذه المسألة بالتفصيل، بل أستطيع هنا أن أصرف النظر عن هذا ففي الصحف اليومية ما يكفي حول الأحداث السياسية المترافقة معها.

كان مقررا أن أصل بور سعيد في الثاني عشر من تموز ١٨٨٥، وكنت قد غادرت برلين في الأول من تموز برفقة أطفالي وسافرت عبر بيسلاو وفينا إلى تريست حيث وصلناها في الثالث من تموز سالمين، وقد كان أطفالي مسرورين بالأشياء الجديدة والجميلة التي رأوها. وكنت أشعر أن أعصابي أكثر توترا من أن أكون قادرة على

مشاركتهم بحيوية.

في صباح الخامس من تموز دخلنا كورفو. وقد تعرفنا من خلال جولة استغرقت عدة ساعات على المناطق الأكثر جمالا في الجزيرة، ثم عدنا بعد الظهر وأنا في أحسن حال من الرضا إلى باخرتنا التي مرت بايتاكا الجرداء عند الزاوية الجنوبية من اليونان والجزيرة المرتفعة كانديا حتى وصلنا يوم الأربعاء الثامن من تموز الاسكندرية.

عند دخول هذه المدينة بنخيلها ومنائرها انتابني شعور بالبهجة وكأني في وطني، شعور يحس به المرء ولا يتمكن من وصفه، ولا يستطيع أن يقدره إلا من بقي غريبا عن وطنه في ظروف مماثلة فترة طويلة. لم أر الجنوب الحقيقي منذ تسعة عشر عاما، وقد أمضيت شتاء بعد آخر أمام الموقد الدافئ في ألمانيا. ورغم أنني كنت مقيمة في الشمال وأحمل على عاتقي الواجبات الكثيرة لربة بيت ألمانية، فقد كانت أفكاري دائما بعيدة، بعيدة عن هنا. لم يكن ثمة تسلية وانشغال أكبر بالنسبة لي من أن أجلس وحيدة دون مقاطعة أمام كتاب يصف الجنوب. فلا عجب أن أفقد صوابي تقريبا لمرأى الاسكندرية وأنظر إلى حركة الجموع في الميناء كما في الحلم.

أوقفنا في دار الكمارك من أجل أن نظهر هوياتنا. مصممة على ألا أكشف هويتي إلا عند الضرورة طلبت من مرافقتي في الرحلة أن تجرب حظها ببطاقتها للزيارات، والرائع أنها اعتبرت هوية كافية. محاطين بالناس الصاخبين بذلنا جهدا كبيرا لننقذ أنفسنا في عربة أجرة

تنقلنا إلى الفندق. اجتمع حولنا عشرات الناس، عرضوا جميعا خدماتهم علينا في نفس الوقت و لم يتراجعوا إلا بعد تدخل شرطي. وما كادت العربة تتمكن من الحركة، حتى قفز إليها رغم ذلك شخص من الخلف وبقي يثني على مهارته كمترجم طول الطريق. لم أرد أن أكشف له في بداية الأمر أنني أعرف العربية ولا أحتاج إلى مساعدة.

انقضى اليومان اللذان بقينا فيهما في الفندق المرتفع الثمن والقذر بسرعة كبيرة. وقد فضلت زيارة الحي العربي حيث راقبت حياة الناس الملونة ساعات طويلة دون أن أشعر بالتعب. وحالما كنت أبدأ بالكلام بالعربية مع الناس الذين يظهرون في البداية تحفظهم، كانت تنشرح أساريرهم وتومض عيونهم فرحا. "أمي" (تعني أمي هنا كما تعنيه كلمة مُّه بالألمانية أي عمة أو خالة) ناداني الناس من اليمين واليسار "أين تعلمت لغتنا؟ لا بد أنك كنت في بغداد، كم أقمت هناك؟"

وقد شعر سائق عربتنا محمد بالود نحونا حتى أنه رجانا بإلحاح أن نأخذه معنا كخادم، وأكد لي أنه سيخدمني مخلصا حتى نهاية حياته – ولن أندم على ذلك.

في صباح آخر حين جاء بعربته في الموعد بدقة لينقلنا إلى الميناء، كان خائبا حزينا وقد بذلت جهدا لأعزي الإنسان المسكين.

المدينة التي كانت ذات يوم رائعة الجمال تحولت اليوم إلى أنقاض

– نصب تذكاري "لإنسانية" الانكليز. وفيما عدا خديوي مصر وبعض وزرائه الذين هم في الحقيقة صنائع إنكلترة يكره جميع السكان الأصليين البريطانيين كرها عميقا. لقد تهيأت لي الفرصة عدة مرات أن أسمع الناس شخصيا في المحلات التجارية أو الشارع وهم يتحدثون بأشياء سيئة عن الانكليز. وقد سئلت مرارا عما إذا كنت إنكليزية، وحين كنت أجيب أنني ألمانية كانوا يستقبلون ذلك بارتياح. ولا يتحدث الأوروبيون المقيمون في الاسكندرية بأفضل من ذلك. انقضت فترة إقامتنا في الاسكندرية بسرعة وبصورة مريحة. بعد رحلة ثماني ساعات وصلنا بورسعيد. حيث وجدنا الباخرة "آدلر" للأسطول الألماني في شرق أفريقيا فركبناها في مساء نفس اليوم. بورسعيد ميناء صغير، ولكن يستطيع المرء أن يجد فيه كل شيء، وتضم المتاجر فيه ثروة كبيرة من كل ما يشتهيه المرء.

هنا تبدأ الصحراء الرملية التي تخترقها القناة التي تربط البحر المتوسط بالبحر الأحمر وبذلك المحيط الأطلسي بالمحيط الهندي. الطريق البحري ضيق إلى حد لا تستطيع أن تمر فيه سفينتان في نفس الوقت، لذلك فقد أنشئ في نقاط عديدة نوع من المواقع التي تحيد فيها السفن عن الطريق، تشير إليها لافتات على الشاطيء كتب عليها Gare Limite Sud GCh Gare Limite Nord . كثيرا ما كان على السفن هنا أن ترسو عدة ساعات تنتظر مرور السفينة القادمة من الجهة المقابلة. تحمل كل سفينة في بورسعيد أو في السويس مرشدا بحريا

على ظهرها، يقودها عبر كل العقبات بسلام ويفهم لغة الإشارات التي تتمثل في أعلام صغيرة يؤشر موقعها وعددها ما إذا كانت الباخرة تستطيع المرور وكم عدد البواخر التي ينبغي انتظار مرورها أولا. ولا يجوز أبدا للسفينة أن تمر في القناة بكل سرعتها لأن الأمواج الكبيرة يمكن أن تلحق الضرر بالشاطيء الرملي الهش. أما في الليل فترسو جميع السفن. ورغم ذلك فإن الرحلة ممتعة خاصة حين يبدأ نوع من السباق بين السفن المنفردة، وهو يحدث بانتظام حين تدخل هذه السفن البحيرات المرة الواسعة، حيث يرغب الكل أن يدخل الطريق المائي الضيق قبل غيره.

يزداد عرض القناة قرب السويس، أخيرا استطعنا أن نمضي بسرعة كبيرة في البحر الأحمر. وإذا كانت الحرارة في قناة السويس عالية جدا فإنها أصبحت الآن في ذراع البحر الذي تجعله الجدران الصخرية أضيق، لا تطاق تقريبا. كنا في الليل والنهار نتصبب عرقا. وقد شعرت في هذه الحرارة الشبيهة بمناخ وطني براحة لم أشعر بها أبدا في سنوات غيابي، إلا أن أطفالي لم يشعروا بالراحة في الهواء الحار، فقد أصابهم الخمول وكثيرا ما انتابهم تعكر المزاج أيضا. ولأن البحر كان مرتفعا فلم نستطع فتح النوافذ الجانبية للقمرة. وازدادت وخامة الهواء حتى أننا لم نعد في ليلة شديدة الحرارة إلى قمراتنا، وإنما بقينا جالسين على الكراسي نحاول نوما غير مريح.

استغرقت الرحلة حتى عدن سبعة أيام، وكان علينا أن نبقى هنا

أربعة أيام أخرى في درجة حرارة مشابهة قبل أن تحصل الـ "آدلر" على الأمر باستئناف الرحلة. من كان أعظم مني سرورا، فبعد ثمانية أيام كنت سأرى وطني بعد فراق طويل ثانية.

لم نكد نعاني من البحر حتى وصلنا عدن، وما كدنا نخلف المدينة الصخرية وراءنا حتى وقعنا في الرياح الموسمية الجنوبية الغربية المريعة. لقد وصلنا إلى تلك المناطق الخطرة التي غرقت فيها قبل بضعة أسابيع الباخرة "اوغسطا". في الساعة الثامنة ذات صباح، وكنا نجلس مع الضباط على ظهر الباخرة نتناول إفطارنا ضربت الموجة الأولى ظهر السفينة وفرقت الجمع. لقد انتهى الآن الهدوء والراحة، فقد هبت فجأة أشد عاصفة شهدتها حتى الآن. كانت الباخرة ليلا ونهارا مثل كرة في البحر الغاضب، وكان زبد الأمواج العظيمة يعبر من فوق المدخنتين دون توقف، حتى أصبح لونهما حين تبخر الماء المالح بعد العاصفة أبيض تماما وليس أسود. من لم ير مثل هذا البحر قد لا يستطيع أن يشكل صورة صحيحة عنه. كان وضعنا غير مريح حقا. فإذا كنا قد عانينا في اليوم الأول من دوار البحر نتيجة الارتفاع والهبوط والتدحرج، فقد كنا في اليوم التالي نشعر بالبؤس بسبب توتر الأعصاب وسهر الليالي. دخل الماء جميع الغرف، وكانت القمرات مبتلة فلم نستطع أن نضطجع فيها، وبسبب الخطر لم نخلع ثيابنا ثلاث ليال، وإنما بقينا في الصالة الصغيرة مع الرجال، غالبا بمظلات مفتوحة، فقد كان الماء يتسرب حتى من السقف. كانت

فتحات الشبابيك والإضاءة مغلقة بإحكام، وقد غطيت الأخيرة فوق ذلك بقماش أشرعة مشبع بالقار، ويستطيع المرء أن يتصور كم كان الهواء خانقا. كنا نحن النساء نبدو في حالة بائسة، لم نستطع لا أن نغتسل حقا ولا أن نمشط شعرنا، وكانت جميع ملابسنا في الأدراج قد ابتلت، لذلك لم نستطع أن نستبدل ثيابنا المبتلة بأخرى جافة، أما أحذيتنا فقد تدمرت تماما، حتى أنني بسبب حاجتي إلى حذاء منزلي يابس إضطررت إلى أن أستعير واحدا من قائد السفينة السيد فون د.

هدأت العاصفة أخيرا بعد ثلاثة أيام، ولكن كثيرا ما ظلت الأمواج تضرب ظهر السفينة، فاستطعنا أن نمكث بضع ساعات على مكان مرتفع حيث أوعز قائد السفينة بإقامة خيمة لنا.

في الثاني من آب لاحت لنا جزيرة.بمبا، آه، يا لها من كلمة بالنسبة لي، فالمسافة من هنا حتى زنجبار تبلغ ثلاثين ميلا بحريا وحسب، رحلة مريحة يمكن قطعها في ثلاث ساعات، لكننا بسبب حلول الظلام أبحرنا حتى الرأس الشمالي من زنجبار، لأن دخول الميناء في الليل خطر جدا بسبب الكثبان الرملية العديدة.

كان لقاء رائعا بالنسبة لي أن أرى وطني في نفس الشهر الذي تركته فيه قبل تسعة عشر عاما وفي نفس اليوم ونفس الساعة اللذين انتزع فيهما زوجي مني قبل خمسة عشر عاما. لا أحتاج إلى وصف ما شعرت به في هذا اليوم. ذهبت للنوم أبكر من المعتاد، ولكن لم تغمض لي عين حتى الصباح التالي. كانت أعماقي تشبه بركانا، وقد

منحتني الدعوات العميقة وحدها التي تأمل أن تستجاب، لحظة من الهدوء بين حين وآخر.

مضت سفينتنا خلال الليل ببطء غير بعيد عن الفنار. حين خرجت في الصباح التالي إلى ظهر السفينة حياني من بعيد نخيل وطني! ماذا كنت أستطيع أن أفعل إزاء المنظر الساحر غير أن أسرع بالانسحاب إلى قمرتي وأشكر الله القدير على نعمته الكبيرة! كانت أحداث حياتي متنوعة وقد تنوعت طبقا لها عواطفي أيضا. إن الإنسان في قسم كبير منه هو فقط ما تصنع منه الحياة والتجارب والأوضاع القائمة: لقد تركت وطني كعربية تماما وكمسلمة مؤمنة وماذا أنا الآن؟ مسيحية رديئة وأكثر قليلا من نصف ألمانية!

ولكن بدا لي في هذه اللحظة كما لو أن شبابي كله يعود ثانية، من أجل أن يعوضني عن السنوات المليئة بالقهر والهم. حضر كل شيء الآن حيا في ذهني، وبرزت صور الماضي المرحة واحدة بعد الأخرى في خيالي.

ولا بد أن الانطباع الأول على أطفالي الذين كانوا عادة مرحين وشديدي الحيوية كان جادا، فلم يكف الثلاثة عن التمسح بي وبقيت أعينهم معلقة علي في صمت وجدية.

حين اقتربنا من المدينة وجدنا للأسف أن الأسطول الألماني لم يكن قد وصل بعد. ولأن الـ "آدلر" كان ينبغي أن تكون جزءا منه، فلم يبق أمامها إلا أن تتراجع وتبحر في الجهة الشرقية من الجزيرة. دامت هذه

الفترة الجديدة من الانتظار أحد عشر يوما. ففي الحادي عشر من آب، أعلن البحار المكلف بالمراقبة على العارضة قبل الرابعة بقليل: "ثمة سفينة في مجال الرؤية!" ظننا أنها سفينة ركاب و لم نهتم بالخبر. إلا أننا لاحظنا بعد وقت قصير أن السفينة المشار إليها تتجه نحونا، لذلك تحركنا وأظهرنا علمنا وأعطينا إشارة باسمنا. تبعت ذلك بعد قليل الإشارة الجوابية، وخلال دقائق تعرفنا على الباخرة "ايرنفيلز" التي رست بعد قليل إلى جانب سفينتنا وأبلغتنا بالإشارات أنها تبحث عنا بتكليف من القائد منذ الصباح، لتبلغنا بالأمر بدخول الميناء، حيث يرسو الأسطول منذ أربعة أيام. إتجهنا إلى الميناء في الحال، ولكننا لم نستطع دخوله بسبب ضعف الطاقة البخارية وحلول الظلام، وكان علينا أن نقضي ليلة أخرى قرب الفنار عند الرأس الشمالي.

أفقنا في الصباح التالي في حوالي السادسة، فلاحت لنا في الأفق غابة الصواري للميناء. أبحرنا للمرة الثانية قريبا من اليابسة مارين ببساتين نخيل رائعة، تتناثر بينها قرى صغيرة للزنوج. وعبر إشارات متواصلة أرشدتنا لدى وصولنا "فلاغشيف" إلى مكان رسونا، الذي كان علينا أن نغيره بعد نصف ساعة. رأينا أربع سفن حربية ألمانية: سفينة "شتوش"، "غنايسناو"، "اليزابيث" و "برنس آدلبيرت"، وسفينتين حربيتين بريطانيتين وخمس سفن بخارية للسلطان وسفنا شراعية عديدة.

وقد رأى الكومودور باشن أنه من الضروري أن أعتبر مؤقتا "حمولة سرية"، وهو وصف أثار مرحا لدى ضباط الأسطول، ولكن ما أن وصل الأدميرال كنور اللطيف والجريء بسفينة "بسمارك" الحربية حتى تغير الوضع، وأستطعت أن أذهب إلى الجزيرة متى أردت. وباستثناء العواطف التي داهمتني منذ أن رأيت وطني ثانية، أثر في تأثيرا خاصا أن أخرج الآن في وضح النهار إلى الشارع يرافقني رجال، وهو ما لم أستطع أن أفعله فيما مضى إلا محجبة وفي الليل. وقد كان هذا الشعور أقوى من الآخر. ربما يعتقد المرء أنني بعد أن عشت تسعة عشر عاما في أوروبا كان يمكن ألا أهتم بهذا، وقد حدث من زمن طويل، ولكن في زنجبار أصبح واضحا لدي أول مرة أي تغيير قد طرأ على حياتي مع مر الأيام. ففي مصر حيث زرتها مرتين لم أشعر بمثل هذا، وإنما شعرت به على أرض وطني أولا.

اعتقدت في زيارتنا الأولى للمدينة أنني أقرأ دهشة لا تخطئ في نظرات السكان الذين تجمعوا حولنا. تزاحم الجمع حولنا يمينا ويسارا، وهتفوا بي بالعربية أو السواحيلية: "كيف حالك سيدتي؟" وكنا حين ندخل دكانا لنتبضع تتجمع في الشارع الضيق جماهير كبيرة، تنسحب باحترام عند مغادرتنا لتفتح لنا الطريق. وقد زاد عدد من يرافقوننا في الشارع يوما بعد آخر وأصبح ترحيب السكان كل يوم أكثر حرارة. وقد أثار هذا بالطبع استياء السلطان ومستشاره القنصل الإنكليزي العام كثيرا. وقد وجد السلطان نفسه مدفوعا إلى

إنزال عقوبة الجلد في عدد من الذين رافقونا من الشعب بعد ذلك. كما وجد نفسه هو والقنصل الإنكليزي مدفوعين لرفع شكوى لدى رئيس الأسطول بسبب مظاهرات السكان الودية المتزايدة هذه. حين علمت بهذا أعتقدت أن من واجبي أن أنصح الناس ألا يرافقوننا منذ الآن، لكنهم أجابوني أنهم رغم العقوبات المتوقعة لا يريدون الكف عن إظهار فرحهم بوجودي. وكثيرا ما تزاحم بعض العبيد مقتربين مني بحذر شديد ليبلغوني تحيات سيداتهم، ورجاءهن ألا أشك في إخلاصهن وتعلقهن بي. لقد تمنين بحرارة لو أستطعن زيارتي على ظهر السفينة، وأن بيوتهن مفتوحة لي في أي وقت. وكذلك دست لي الرسائل التي وضعها العبيد تحت قبعاتهم لعدم وجود الجيوب في ثيابهم، سرا. رأيت أحيانا لدى مروري بالبيوت بعض السيدات مختفيات خلف الأبواب، ينتظرن وصولنا كما يبدو. فكنت لا أكاد أمر حتى يخاطبنني وغالبا ما يهتفن بتحية قصيرة فقط، مثلا "ليكن الله معك ويمنحك العافية!" وقد أبلغتني أخواتي وقريباتي وصديقاتي تكرارا برجائهن في أن أزورهن، ولكنني لم أستجب لأي من هذه الدعوات، ليس لأسباب شخصية، فقد كانت عواطفي أقوى من أن تسمح بظهور تحفظ شخصي، وإنما لأن الأوضاع السائدة ترغمني على هذه المراعاة.

وحين كنا نمر في قوارب التجذيف أمام القصر أو تحت نوافذ بيت الحريم، كنا نرى نساء السلطان خلف الشبابيك، يحييننا بود. ولأننا

كنا نقوم بنزهاتنا برفقة ضباط البحرية، كان علي أن ألتمس الرجال ألا يردوا التحية من أجل مصلحة النساء أنفسهن، وقد تجنبت هذا أنا نفسي كي لا أقود الجميلات قصيرات النظر إلى الهلاك دون جدوى، فقد قيل لي أن سيدهن ومولاهن كثيرا ما كان يتخفى في مكان في البيت يرى منه البحر والشارع، فيكتشف بسهولة الغافلات ليعاقبهن بوحشية. ليس هذا مجرد ظن، فهو أمر معروف ويستطيع الأوروبيون في زنجبار أن يتحدثوا عن أن السلطان كان ينظر من مخبئه قبل أقل من سنة فرأى برتغاليا كان يمر بقاربه، يحيي إمرأته المفضلة، وهي شركسية جميلة فردت عليه التحية. هذه العادة ليست جديدة على أي حال، فقبل ثلاثين سنة وكنت لا أزال طفلة كان الأوروبيون وخاصة ضباط البحرية الانكليز والفرنسيون الذين كثيرا ما زاروا جزيرتنا، والتجار المقيمون يحيوننا وكنا نرد عليهم التحية دائما، وقد تحمل عالم الرجال لدينا هذا ولم يجد أحد بأسا في ذلك. لكن برغش كان يرى الأمر بصورة مختلفة، فقد جلد شركسيته بالسوط بنفسه بشدة حتى أنها فارقت الحياة بعد ذلك بأيام. ويقال أنه قد توسل إليها طالبا منها الصفح منها وهي على سرير الموت دون جدوى، وهو لا يزال حتى اليوم يقيم الصلاة على قبرها بانتظام.

وخلال جولاتنا في داخل الجزيرة كثيرا ما قابلنا أشخاصا يركبون الحمير في الطريق الريفي، وقد كان هؤلاء يترجلون دائما قبل وصولنا بخطوات، تعبيرا عن احترامهم، ويمرون بنا وهم يقودون حميرهم ثم

يركبونها بعد ذلك. ورغم جميع العقوبات من قبل السلطان لم يشأ الشعب أن يتخلى عن تعلقه بنا، والنداء العالي الذي دوى تحت نافذته مباشرة تقريبا: "كوآهيري، بيبي! كوآهيري، بيبي"! (صحبتك السلامة، سيدتي! صحبتك السلامة، سيدتي!) حين كنا نعود إلى سفينتنا، لم يرق له. وقد روي لي أن الناس استخدموا حين كانت قواربنا تظهر لهم علبة بسكويت كطبل لإعطاء الإشارة، لينبهوا الشعب إلى ذلك.

ومن الواضح أنه كان ثمة جواسيس يترصدوننا، وأغلبهم من الهنود، وقد ضايقهم أننا كنا نتحدث بالألمانية وحدها فيما بيننا. وفي اليوم الأخير قبل مغادرتي نبهتني اثنتان من المخلصات لي جاءتا في حماية الظلام لتودعاني، إلى شخص كان قد شرف سفينتنا بزيارته كبائع وهو أداة طيعة لذي النفوذ الكبير التاجر مادولجي بيراداوجي الذي كان ذات يوم منظف مصابيح وحلاقا للبلاط.

كان هذا البيراداوجي هنديا خبيثا جعل من نفسه مستشارا للسلطان، وكان منظف المصابيح السابق هذا يخدم حاكم زنجبار في أكبر الأمور وأصغرها. تمر جميع المفاوضات الدبلوماسية من بين يديه وتخدم نفس اليدين ضيوف السلطان على المائدة. وهو يتقاضى عن هذا مرتبا عاليا، ثلاثين دولارا شهريا. وقد أكد لي المرء أن الجميع في زنجبار يتحفظون بحكمة من إفساد علاقتهم ببيراداوجي المتنفذ.

الثلاثون دولارا لا تكفي بالطبع لنفقاته بملابسه الثمينة وعليه أن

يحقق المدخولات الضرورية بطريقة أخرى. فقد جوهري بلاط السلطان الذي رفض أن يعطيه نسبة معينة لدى كل طلب يطلبه السلطان هؤلاء الزبائن، وقد أسعد بيراداوجي منافسا مطيعا بتلك الطلبات.

من الغريب أن عيد ميلادي صادف في هذه الأيام القليلة، احتفلت به للمرة الأولى في وطني، حيث لا يعرف المرء شيئا كهذا. وقد فعل السادة في الأسطول كل شيء ليجعلوا من هذا اليوم يوما سعيدا حقا، وقد نجحوا في ذلك تماما، ولا أستطيع أن أفيهم حقهم من الشكر على كل مودتهم. شيء مس مشاعري بشكل غريب: فقد أوعز قبطان الـ "آدلر" اللطيف أن يذبح على شرفي أنا المسلمة الولادة وفي وطني المخلص للدين الإسلامي خنزيرا. لو أن عرافتي قد تنبأت بهذا قبل تسعة عشر عاما لضحكت منها رغم اعتقادي بالغيبيات. ما أكثر ما تظهر دعابة غير مقصودة في أصعب أقدار حياتنا!

كان الانطباع الذي تركته مدينة زنجبار علي من البحر هذه المرة هو نفس الإنطباع كما في السابق، وربما أكثر ودية، لقد قامت بيوت كثيرة جديدة، والفنار الذي يرتفع أمام القصر بمصابيحه الكهربائية بدا بارزا. وقد سماه الضباط دائما "شجرة عيد الميلاد السلطانية" بسبب أكاليل الضوء الكثيرة فيه التي تجتذبهم. ولم يعجبني داخل المدينة بنفس المقدار.

ربما أكون بعد إقامتي الطويلة في أوروبا قد نسيت الأوضاع في

الوطن، وعلى أية حال فقد وجدت داخل المدينة في وضع محزن حقا. تمتد من بيت إلى بيت تقريبا أكوام أنقاض على طول الشوارع الضيقة والقذرة. كان المرء يرى أنقاضا ينمو فوقها العشب في كل مكان، وأشجارا كبيرة استطاعت أن تنمو دون عائق. لم يهتم أحد بذلك، بل مضى الكل بنفس الملامح غير المكترثة متجنبا برك الماء وأكوام الحجارة. حفر الرماد والقمامة غير معروفة تماما، فالشوارع العامة تقوم مقامها. لا بد أن فن إدارة منظمة للمدينة ليس سهلا تماما، وإلا لكان السلطان الذي كان قد زار بومباي وانكلترة وفرنسا وعرف بما يكفي راحة المشي في الشوارع النظيفة، قد عالج الأمر. فقد أدخل في زنجبار معملا للثلج وإنارة كهربائية وقطارا وكل ما لا أدري، ناهيك عن الطباخين الفرنسيين وفنهم في الطهي.

أشعرني التدهور في داخل المدينة بالحسرة بصورة لا توصف. و لم أكن قد عرفت بعد في أي حال سأجد بيت المتوني المهيب وبيت الراس الذي كان المرء قد انتهى للتو من بنائه. حين ذهبنا أول مرة إلى البيت الذي أبصرت فيه النور صدمت بقوة. يا له من مشهد بالنسبة لي! بدلا من أن أرى بيتا رأيت خرائب متهدمة تماما، ما كان يستطيع أي صوت أو نأمة أن تحررني من الإنقباض الذي شعرت به إزاء هذه الصورة غير المتوقعة تماما. لم أستطع أن أتمالك نفسي وقتا طويلا ، كان أحد السلمين قد اختفى تماما، وكانت الأعشاب قد نبتت على الثاني وأصبح آيلا للسقوط، حتى أن المرء لم يعد يستطيع أن يرتقيه

دون خطر. كان أكثر من نصف البيت كومة من الأنقاض، كما كان وقت انهياره، وجميع الحمامات التي كان الإقبال عليها كبيرا ذات يوم وكانت ممتلئة بناس فرحين علي الدوام، كانت قد فقدت سقوفها تقريبا، تشير كومة من الأنقاض لموقع كل منها، وكان ما بقي قائما منها قد سرقت سقوفه وبلاط أرضه. كل شيء قد انهار أو على وشك الانهيار! وفي الفناء بأكمله نمت الأعشاب من كل الأنواع. ليس ثمة ما يعطي للزائر المحايد أية فكرة عن البهاء القديم لهذا القصر.

رأيت وشعرت إزاء هذا المشهد غير ما شعر به مرافقي! وقد بدا لي أطفالي في هذه اللحظة فرحين، ولو كنت قد تصورت الخراب على هذا النحو لكنت قد فضلت أن أقوم بأول زيارة لي وحيدة. شعرت أنني أرى أشباح السكان القدامى تخرج من كل باب مائل مهدد بالسقوط، من ألواح الخشب المتآكل المكومة، ومن أكوام الأنقاض المرتفعة. غبت لوقت قصير عن الحاضر المقبض وعاش ذهني في سنوات الشباب الجميلة تماما، فأيقظتني الأصوات الودودة للضباط وأصوات أطفالي الذين تفحصوا أجزاء الخرابة بحيوية مخيفة.

واجهتني أحيانا النظرة الخاطئة بأن العرب يتركون بيوتهم القديمة تتهدم وفاء للموتى. هذا خطأ. ليس الوفاء هو الذي يؤدي هنا إلى الخراب، إنه فقط عدم الاكتراث المعروف عند الشرقيين. نادرا ما يرمم العربي بيته، وهكذا يستطيع الطقس الذي يفتت الجير الرديء للجزيرة خاصة بسرعة، أن يتابع تأثيره المخرب دون عائق. فإذا أصبح البيت

بحاجة إلى البناء، فإن المرء يبني بيتا آخر ويترك نصف الأنقاض قائمة. وأرض البناء وحدها لا تكاد تكون لها قيمة.

في قسم من البيت الذي كانت تقوم فيه غرف في حالة جيدة نسبيا كان قد عاش ابن أختي زوينة، علي بن سعود حتى مماته بسبب التعلق بالبيت الرئيس القديم لعائلتنا. وقد مات هنا قبل سنتين فقط.

لدى دخولنا هذا الجناح استقبلنا بالتحية جنديان عربيان كانا قد جاءا قبل شهور قليلة من عمان. كانا قد تركا عائلتهما هناك وجاءا ليكسبا بعض المال في زنجبار الغنية، لكن وضعهما كان سيئا حتى أنهما ندما على مجيئهما وقررا العودة إلى مسقط في أقرب فرصة ممكنة. شكا لي الإثنان من آلامهما الجسدية وطلبا مني بحرارة أن أعالجهما. كان أحدهما يشكو من ألم في العينين وكان الثاني يعاني من مرض في المعدة.

وقد أدهشني أن أعلم لدى سؤالي عن السبب الذي يجعلهما يعيشان في الخرابة أنهما لا يعيشان هنا وحدهما، وإنما يشكلان جزءا من الطاقم الذي يحرس الخرابة حراسة مشددة، مهما بدا هذا غير قابل للتصديق. وهذا الإجراء لا تبرره مصلحة عسكرية، ولكن يبدو لي أن الروح الشريرة تلعب دورها أيضا. إلا أنني قد ابتعدت عن هذه الخرافات ومؤيديها تسعة عشر عاما، فربما أكون مخطئة.

أخذت معي للذكرى بعض الأعشاب، وبعض أوراق الأشجار وحجارة كانت في الرواق الذي اعتاد أبي أن يصلي فيه.

عند مغادرتنا قابلنا شاب عربي وقور حسن المظهر وقدم نفسه على أنه الضابط الأول للطاقم. بقي وقتا طويلا عندنا ثم رافقنا إلى قاربنا. في هذا الطريق القصير رأينا أيضا كهلا مهيبا، كان يقف في المتوني ليتوضأ. حين اقتربنا منه لاحظنا أنه أعمى. لقد تجنبت منذ وصولي إلى زنجبار بصرامة أن أبادر أحدا بالتحية كي لا أسبب له المتاعب. ولكن هنا إزاء الأعمى فقد اقتضى البر استثناء. إقتربت من الكهل وتمنيت له بالعربية مساء سعيدا. لم أفعل حتى هذا دون تردد، فما كان يحق لي كمسيحية أن أزعجه في وضوئه، وقد توقعت ردا متذمرا على تحيتي، فلا بد أنه كان قد عرف أننا أوروبيون من حديثنا بلغة غربية.

ولكن لدهشتي مد لي كلتا يديه، وسحب يدي إلى شفتيه، وضغط بيدي على وجهه فترة من الزمن. لقد تأثرت بعمق وأردت أن أحرر نفسي بالسرعة الممكنة من الشك المخجل بأنه ربما كان قد خلط بيني وبين شخص آخر. سألته: "أتراك تعرفني؟". فأجاب: "كيف لا أعرفك؟ إنك سيدتي سالمة، كثيرا ما حملتك في السنوات الماضية حين كنت صغيرة في حضني. ما أعظم ما كان فرحنا حين سمعنا أنك هنا ثانية. رعاك الله وحماك أيتها الغالية!"بمثل هذه الكلمات الصادرة عن القلب ودعنا المسكين العاجز. وقد أخبرني الضابط العربي الذي كان شاهدا على هذا الدليل للتعلق المخلص أن الكهل ذا اللحية الطويلة كان مؤذن بيت المتوني وقد كلفه السلطان أن يصلي على قبر علي بن سعود (الذي عاداه عداء مرا في حياته.)

وقد لفتت نظري الملاحظة الأخيرة، فقد عرفت بالضبط كم كان سلوكه مليئا بالضغينة وصبيانيا في نفس الوقت إزاء علي بن سعود وأختي الكبرى راية. كانت راية الأخت الشقيقة لأم علي.متقدمة في السن حين جاءت قبل سنوات عديدة من مسقط إلى زنجبار حيث خصص لها السلطان بيتا وراتبا شهريا. وحين كان علي بن سعود الذي يكرهه برغش دون سبب وجيه على فراش الموت في بيت المتوني، دون أن تكون له زوجة أو أطفال يقومون برعايته، متروكا لرحمة عبيده، فما الذي كان أكثر طبيعية من أن تذهب إليه عمته راية وتقوم برعايته؟ إلا أن برغش لم يستحسن هذا السلوك على أي حال. لم يفهم عمل الإحسان والعطف الذي يملأ قلب راية. وليجعلها تشعر بغضبه لم يقطع عنها الراتب وحسب وإنما، ويا للذل، طرد أخته المسنة التي كان يمكن أن تكون أمه، دون مراعاة من البيت المخصص لها. لم يحضر في جنازة علي، عدم مراعاة لا يقدم عليها المرء حتى مع ألد أعدائه. والآن يقيم الصلاة على قبر ابن اخته! لا يمكن أن يتصرف المرء أغرب من هذا التصرف.

ولأنني أتحدث عن رئيس عائلتنا في زنجبار، أشعر أنه لا بد من إزاحة الستار عن قصة أخرى من حياته الخاصة. إنه ليؤلمني ألما شديدا أن أكشف للعالم شيئا سيئا عن شخص تربطني به رابطة الدم، فرغم جميع السنين التي فارقت فيها عائلتي، ورغم القسوة والشدة التي عاملني بها برغش الذي غامرت يومها بحياتي وثروتي من أجل

مصلحته، فقد بقي لي الشعور الذي لا يمحى بأننا عائلة واحدة. لكن سيد برغش رجل لا يميل إلى الحفاظ لا على رعيته ولا على أفراد عائلته.

إنه لمن المعروف بوجه عام في زنجبار أن برغش حالما اعتلى العرش عام ١٨٧٠، ألقى بأخينا خليفة الذي يليه في السن فجأة ودون أي مبرر في السجن. كان على المسكين أن يعاني ثلاث سنوات طويلة في السجن وقدماه مقيدتان بسلاسل الحديد! ولماذا؟ لا يستطيع أي إنسان أن يجيب عن هذا السؤال. لا بد أن يكون قد خاف أن يحوك خليفة باعتباره التالي في الخلافة على العرش، خططا خيانية كما فعل هو مرة إزاء ماجد.

وحين أرادت إحدى الأخوات التي نالها من أذاه أيضا أن تذهب للحج إلى مكة، شعر برغش بتأنيب الضمير فذهب إليها ليطلب منها الصفح. لم يرد أن تطاله اللعنة التي تنطق بها في مدينة النبي المقدسة. إلا أن الأخت لم تصفح عنه حتى أطلق سراح خليفة البريء من السجن.

لكنه لم يكف عن التجسس على خليفة وأصدقائه بحمية. هنا علم أن لخليفة صديقا مخلصا أنعم الله عليه بثروة كبيرة. تذكر ثانية الزمن الذي بدا له فيه التحالف مع رؤساء عشائر أغنياء ذا أهمية كبيرة، وقرر أن يحرم خليفته على العرش من مثل هذا السند.

استدعى صديق خليفة وقال له مخاطبا باختصار: "لقد سمعت أنك

تنوي بيع مزارعك، قل لي كم تريد ثمنا لها، فإنني أريد أن أشتريها."
أجاب الرجل: "لا بد أن في الأمر خطأ، فإنني لا أنوي أن أبيع أملاكي." "ولكن من الأنفع لك أن تبيعني اياها. والآن إذهب وفكر في الأمر."

بعد بضعة أيام استدعي منكود الحظ ثانية واستقبله السلطان بهذه الكلمات: "والآن تكلم، كم ثمن مزارعك؟" "لم أفكر أبدا يا صاحب السمو أن أبيعها." "سيان لدي ما تفكر فيه. سأدفع لك ثمنها خمسين ألف دولار. وهذا هو التفويض باستلام المبلغ. فاذهب واستلمه."

انسل الرجل بتأثر عميق من مجال نظر ذاك الذي يعتبر نفسه بهذه الطريقة "أب الشعب". ولكن كانت تنتظره مفاجأة أكثر إيلاما، حين أراد أن يستلم الخمسين ألف دولار، علم أن هذا المبلغ سيكون قابلا للدفع خلال عشرين سنة، وأنه سيحصل كل عام على قسط بمبلغ ٢٥٠٠ دولار. حل الخراب بالرجل، ولكن كان هذا بالذات ما أراده السلطان.

سأروي قصة أخرى يحمر وجهي خجلا ويملؤني الإشفاق عند ذكرها. انتشرت إشاعة كاذبة عن إحدى أخواتي بأنها تحب رجلا لا يريد برغش أن يكون صهرا له. وحين سمع بهذا ذهب إليها بنفسه ليستجوبها. وقد أكدت له دون جدوى أنها لا تعرف شيئا عن المسألة أكثر مما يعرف أي شخص آخر. وقد ضرب الأخ الرقيق أخته خمسين عصا بنفسه. وقد لازمت المسكينة بعد هذه المعاملة الوحشية

السرير شهرا كاملا وعانت بعد ذلك طويلا. إلا أنني لا أشك أنه سيقيم الصلاة على قبرها بعد موتها كما فعل على قبري امرأته وعلى بن سعود.

كثيرا ما يسمع المرء بأن الأوروبيين يثنون على لطف حاكم زنجبار، لكن المرء يستطيع أن يحكم عليه بحق مما يلي. وعلى كل حال فإنه لمؤكد أن برغش في قرارة نفسه لم يكره منذ القديم أكثر مما كره حتى مجرد اسم الأوروبي.

وكيف هو حال تأكيدات صداقته لألمانيا؟ أعني أن لدى مجتمع شرق أفريقيا الألماني مادة تكفي لإثبات العكس. وقد كان لهذا المجتمع في الفترة الأخيرة بعض التجارب غير المريحة بالدرجة الأولى فيما يتعلق بما يسمى رسائل التوصية السلطانية.

إنه لأمر واضح ألا يكون لي أن أتوقع منه الكثير فيما يتعلق بحقوقي الشخصية. لقد نشرت الصحف في وقتها اسطورة أنني عدت إلى ألمانيا بكامل تركتي التي تتكون من ٢٨ بيتا. هذا خطأ تماما، فلم استلم فلسا واحدا، وحقوقي التي اعترف لي القنصل الانكليزي نفسه بشرعيتها – وهو ما يعني الكثير– لم يُبت بها حتى اليوم. فقد رفضت شاكرة مبلغ الستة آلاف روبية (يساوي ٩٦٠٠ مارك) الضخم الذي عرضه على أخي الغني كتعويض يدفع مرة واحدة. فماذا يعني ذلك بالمقارنة بما يحق لي المطالبة به. منذ أن استلم برغش الحكم مات خمسة من إخوتي وخمس من أخواتي وعمتي

عائشة وثلاث من بنات إخوتي وابن أخ لي وزوجة غنية جدا لأبي، ولي نصيب من تركة هؤلاء جميعا. رفض السلطان مصالحتي التي أيدتها الحكومة الألمانية بأعذار واهية ولا بد أنه شعر بالرضا حين طغت المصالح السياسية على مصالحي الشخصية.

إنه لمما يخجلني أن أتطرق إلى مسألة أخرى، غير أن إغفالي لها يمكن أن يفسر تفسيرا آخر ببساطة. كل من يعرف الأوضاع في زنجبار يعرف تماما أن السلطان هو الحاكم في الأشياء الصغيرة، بينما يحكم في الأشياء الكبيرة كلها القنصل الانكليزي. وأن يكون هذا من أكثر الدبلوماسيين دهاء فهو ما يعترف به حتى أعداؤه بصراحة. ولو كنت الآن عديمة الخبرة في الفنون الدبلوماسية ولعب الشطرنج تماما كما كنت قبل عشر سنوات، وأخذت كل كلمة لها وقع ودود كحقيقة لكنت قد سررت جدا حين أبلغني أحد الضباط الكبار في الاسطول أن القنصل الانكليزي يأسف جدا لأنه لا يستطيع أن يفعل شيئا من أجلي، ويؤسفه أنه لم يجد الفرصة ليلتقي بالسلطان ليتحدث معه برغباتي.

لقد كان جيدا بالنسبة لي أنني لم أصدق هذه التأكيدات، وإلا لكانت قد عادت علي بالخيبة وحسب، فقد علمت بعد وقت قصير أن السيد كان ضيفا على السلطان عدة أيام في إحدى مزارعه قبل أربعة عشر يوما فقط، رغم عزلة حياة الحريم. ويروى أيضا أن ثمة هاتفا كثير الاستخدام يربط القنصلية الانكليزية العامة بقصر

السلطان.

يوجد في ألمانيا على حد علمي قانون يعاقب فتح رسائل الآخرين من قبل شخص غير مخول معاقبة شديدة. ولا أدري إن كان مثل هذا القانون موجود في إنكلترة أيضا. لكنه على أي حال ينطبق على البلد الأم فقط، وفي أفريقيا الحارة – البريد في زنجبار هو مؤسسة إنكليزية – يتغافل المرء عن هذا. حين قرأت في آذار عام ١٨٨٥ بالصدفة في "برلينر تاغسبلات" مقالا: "ألمانيا، إنكلترة وزنجبار" جاء فيه: "قبل التفكير في مستعمرات ألمانية بوقت طويل، حذر السلطان وحمي من كل ارتباط من هذا النوع، قبل أن يرفرف الصليب الأسود في الحقل الأبيض أمام زنجبار بوقت طويل، كان الهم الدائم للقناصل والضباط الانكليز في الجزيرة – فقد كان للجيش أيضا خبراء انكليز – ما إذا كانت الرسائل من ألمانيا تصل البلاط..." لم أعتقد أن هذا صحيح. ولكن لسوء حظي فقد عرفت أن الأمر كان غير ما اعتقدت.

لقد اتخذت جهة مهمة كل الإجراءات من أجل تحريض الشعب ضدي. رجاني بعض الضباط أن أبحث لهم عن حلي لقريباتهم في الوطن وأساعدهم في شرائها، وهكذا ذهبنا عدة مرات إلى صائغ كان يعمل بالصدفة للسلطان أيضا، دون أن نعرف.

وما أن عرف السلطان عن طريق مستشاره بيراداوجي الذي كان عليه أن يبلغه بكل ما يستجد، استدعى الجوهري وصب عليه جام غضبه لأنه تجرأ على أن يبيعنا شيئا. إلا أن التاجر الذي كان مطيعا في

العادة أجاب السلطان الغاضب بهدوء، إنه ليخجل أن يرد في دكانه أخت سيده، لم يعجب هذا السلطان مطلقا، فهدده بحرمانه من عمالته المربحة جدا. لكن الصائغ لم يتراجع ، فرد عليه أنه قد كره زنجبار على أية حال ويفضل العودة إلى وطنه. ولكي يتخلص من الإزعاجات، لأنه لم يرد أن يكون غير ودود معي، فضل إغلاق محله بقية فترة إقامته.

وبطريقة مماثلة اعتقد المرء أنه يعاقبني بشدة إذ منع أصحاب الحمير منعا باتا تأجيرنا حيواناتهم. وقد سجن بعض عبيدي السابقين الذين تجرأوا، مدفوعين بتعلقهم القديم، بالمجيء إلي، بسبب هذا الدليل على إخلاصهم.

لم تكن مثل هذه الإجراءات التافهة وغيرها نادرة، إلا أنها شكلت إنطباعا معاكسا تماما. لقد عبر حكم الجمهور عن نفسه بكلمات: بيا كانا كاسي يا فاتوتو، بيبي، وهي تعني : "إنه يتصرف مثل طفل صغير، يا سيدتي!"

حين اقتربت من زنجبار، كنت أجهل تماما أي استقبال ينتظرني هناك. لم أشك في أن أخي لن يتردد كثيرا في احترام رغبات ألمانيا، وقد صدق هذا أيضا. وأنه لن يقابلني شخصيا بمودة، وأنه سيسبل جفنيه على القذى فهو ما كنت أنتظره أيضا. فالمعاملة السيئة التي عامل بها بقية إخوتي لم تكن لتجعلني أتوقع مقابلة ودودة منه. وكان الحال مختلفا بالنسبة للسؤال: كيف سيتلقى السكان ظهوري

المفاجئ؟ وإنه لمما يفرحني أن أكرر أنني وجدت أحر استقبال. رجاني عرب، هندوس، بنيان وأبناء البلد الأصليون بإلحاح أن أبقى في زنجبار.

وقد عزز هذا اعتقادي بأنه ليس ثمة كراهية دينية فيما يتعلق بي بأي شكل. صادفت ذات يوم عربيين، تبادلت الحديث معهما. وحين علمت من شخص ثالث أنهما كانا من أقربائي – لم أتعرف عليهما – قلت لهما، لو كنت قد عرفت لما تحدثت إليهما، لأنني لا أعرف كيف يشعر أقاربي في الظروف الحالية إزائي. فأجابا معا على الفور بأنهما لم يفكرا في شيء غير أنني لازلت إبنة أبي. وحين ذكرت الدين أجاب أحدهما أن هذا المصير مقدر علي منذ بداية العا لم. "نعم، إن الله الذي فرقنا عن الوطن، هو نفس الرب الذي يصلي له ويحمده كل الناس. لقد كانت إرادته التي لاتقهر أنك أتيت ثانية إلينا، وإننا جميعا مسرورون لهذا، ستبقين مع أطفالك عندنا دائما، أليس كذلك؟

مثل هذه الأدلة على المحبة والتعلق أشعرتني بالسعادة لأنني رأيت وطني ثانية وساعدتني في تجاوز بعض الساعات الصعبة، لقد جعلت رحلتي مبعثا للسعادة لي مدى حياتي، ولا يسعني إلا أن أحمد الله القدير على نعمته دائما إلى الأبد!

أريد أن أجيب باختصار على سؤالين يمكن أن يوجههما القارىء الألماني إلي. لقد آلمني وآلم ضباط الاسطول كذلك أن يكون العدد

القليل من الألمان في زنجبار غير متفقين، فلا يلاحظ المرء شيئا من تضامنهم مع بعضهم. هناك ثلاثة بيوت ألمانية لا يشغلها إلا تصدير العاج، ويبلغ عدد الألمان فيما عدا منتسبي جمعية شرقي أفريقيا أثني عشر شخصا في أحسن الأحوال. فبدلا من أن تتحد هذه المجموعة الصغيرة بقوة نجد الكراهية والحسد يفرقانها. إنه لفي مصلحة ألمانيا أن تحل محل روح المنافسة هذه - فهي ليست شيئا آخر - الروح القومية السامية، فرغم أنني غريبة في ألمانيا فإنني أجرؤ أن أدعو جميع الذين يعيشون بعيدا عن وطنهم الألماني: اتحدوا! فإذا كان ابن بلدكم الذي قطع مسافة بعيدة قادما إلى هنا يتألم من هذا الإنشقاق، فما الذي سيقوله أبناء الأمم الأخرى؟

يحق للمرء الآن أن يأمل أن تسود تلك الروح النبيلة تدريجيا بين العدد القليل من ممثلي شعبنا، حيث يمثل الدولة الألمانية قنصل معتمد في زنجبار، له مصالحه الشخصية والمهنية، ويفترض أن يكون غير منحاز، عسى أن ينجح القنصل الجديد في الوصول إلى هذا الهدف إكراما للوطن الألماني!

وجمعية شرقي أفريقيا؟ كنت أنتمي منذ البدء إلى المجموعة الصغيرة التي تابعت مساعي ألمانيا الاستعمارية باهتمام كبير، سواء تناولت هذه انغرا بيكوينا أو بلد القيصر فلهلم. وقد كانت هذه هي الحال مع جمعية اوزاغارا. حين ظهرت هذه سئلت أكثر من مرة من قبل ممثلي القوة الكبرى السابعة، الذين يقيّمون علاقاتي بأفريقيا ومعرفتي، وهو

أمر مبرر أن يستطلع المرء أحوال البلاد. وقد دافعت عن المشروع قدر ما استطعت، ولكني كثيرا ما خرجت من ذلك بالانطباع بأن المرء ينظر إلي كما لو كنت ذات مصلحة فيه. على من يعرف أوضاعي أن يبقى بعيدا عن مثل هذه الإتهامات. حين وصلت زنجبار، أملت متفائلة أن ألمس ما هو طيب ومزدهر عن عمل الجمعية، ولكن للأسف الشديد لم أسمع سوى العكس. أنني لأربأ بنفسي أن أوجه أي لوم للمشروع الذي لا يزال فتيا، في حين أن أغلب ممثليه لا يعرفون الأوضاع هناك مطلقا ولا يملكون خبرة السن ولا الخبرة العملية. ولكن لماذا لا يرسل المرء أشخاصا يملكون الخبرة والتجربة، ممن هم أكثر معرفة؟ يحتاج الأمر من هذه الناحية حسب رأيي تغييرا جذريا في المنظمة، إذا ما أريد الإرتقاء بالأمر كله وجعله مفيدا. أما إذا بقيت الأوضاع كما هي عليه فإنه لا ينتظر أي ازدهار. لماذا لا توضع شخصية مثابرة وذات خبرة على رأس المنظمة وتعطى صلاحيات كاملة، يكون مقرها الدائم في جزيرة زنجبار؟ ثم يحاول المرء أن يتجنب تغيير التمثيل في الجزيرة، لأن هذا يضر الجمعية وحسب.

لست وحدي من يمثل هذا الرأي بأي حال من الأحوال، فجميع السادة الذين تحدثت إليهم هناك يتفقون معي في هذا تقريبا. وأنا أتحدث بصراحة من أجل مصلحة الجمعية، وأتمنى لها شخصيا كل خيرا و لفرحي الصادق لاحظت المشاعر الودية التي يحملها السكان

للألمان، وقد همس لي بعضهم مرارا: "ابقوا هنا، نريد أن نكون رعاياكم." مثل هذه الأدلة على التعاطف مع ألمانيا ملأتني فرحا لأنها صدرت عن أشخاص مختلفين طوعا. عسى أن تدوم هذه المشاعر الودية تجاه ألمانيا!

ليس دون حسرة ودعت وطني للمرة الثانية، وقد كان لأحبائي الذين كان علي أن أفارقهم من جديد نفس المشاعر. لا أجد خاتمة لكتابي أفضل من أن أعيد رسالة توديع عربية أرسلت إلي في أوروبا كتبت بمثل هذه المشاعر، والتي تفقد من خلال الترجمة بالطبع الكثير من رقتها ومن قوة تعبيرها الأصلي. إنها تقول:

"ذهبتم دون أن تخبروني،
لقد مزق هذا قلبي وملأني بنار تتأكلني.
آه، لو تعلقت برقبتكم، فما أنفصلت عنها حين غادرتمونا!
كان بإمكانكم أن تجلسوا فوق رأسي وتمشوا فوق عيوني!
أنكم تسكنون قلبي، وحين ذهبتم
أورثتم روحي ألما لم أعرفه من قبل.
نحل جسدي ودموعي لا تنقطع،
تتقاطر واحدة بعد أخرى على وجنتي، مثل أمواج البحر.
آه يا رب العالمين! إجمعنا قبل موتنا،
ولو يوما واحدا فقط.
إذا عشنا فإننا سنلتقي!

وإذا متنا، يبقى الذي لا يموت.

ليتني كنت طيرا فأطير إليك ممتلئا شوقا،
ولكن كيف يستطيع طير مقصوص الجناح أن يطير؟"

المحتويات



الأميرة سالمة برفقة زوجها وطفليها: سعيد وأنطوني



الأميرة سالمة

Fol. 98, N 17



Ausweise des bei dem Civilstandsamte geführten Beeidigungs-Protocolles hat

Rudolph Heinrich Ruete

am 17 April Achtzehnhundert acht und Sechzig den untenstehenden Eid abgestattet und das Hamburgische Bürgerrecht erworben.

Hamburg

d. 17 April 1868

Zur Beglaubigung

Claussen

Civilstandsbeamter.

Bürgereid.

Ich gelobe und schwöre zu Gott, dem Allmächtigen, daß ich der freien und Hansestadt Hamburg und dem Senat treu und hold seyn, das Beste der Stadt suchen und Schaden von ihr abwenden will, soviel ich vermag; daß ich die Verfassung und die Gesetze gewissenhaft beobachten, alle Steuern und Abgaben, wie sie jetzt bestehen und künftig zwischen dem Senat und der Bürgerschaft vereinbart werden, redlich und unweigerlich entrichten, und dabei, als ein rechtschaffener Mann, niemals meinen Vortheil zum Schaden der Stadt suchen will.

So wahr mir Gott helfe!

Unterschrift des Inhabers: R. H. Ruete

وثيقة خاصة بالسيد رودولف هاينريش رويته، زوج الأميرة سالمة

الى جناب العالي السيد الكريم الاخ العزيز برغش بن سعيد

ابن سلطان سلمكم الله تعالى وابقاكم لنا دخرا مدة الحيات

انشاء الله وهو العزيز الكريم وبعباده غفور رحيم واما بعد

السلام عليكم يا ايها الاخ بان المراد من الله ثم منك ان

لا تصد وجهك على بقبل ما قريت كتابي وفهمت بما فيه وعليه

لأجل اعلم يا اخي ما يصلح منكم ان تردوا وجوهكم على وعلى

اولادي في مدة هاذي السنين وانته ما واجب عليك ان

تقسي قلبك الخير علينا واعلم يا اخي انك لا تظن باني انا

ما محشومه ولا معزوزه في الولايه وجميع الناس في الولايه

حاشميني وعازيني انا واولادي بلا قياس حتا سلطان اللج

وكافة عيالهم هم ناصحين لنا وانا سرت امرار الى عندهم

والسلطان بنفسه شيل ولدي سعيد ودخله في مدرسه عاليه

حتا هوه حيكون في مدة قصيره قايد العساكر مثل كافة

اولاد السلاطين في الولايه وعاديت ملوكهم ومن طرف ابناتي

الثنتينه ثوق وغوزا كانو بخير وعافيه وما قاصر علينا

رسالة الأميرة سالمة إلى أخيها السلطان برغش

Twitter: @ketab_n

وعليهم غير لقالم فى هذه الدنيا وايضا يا ايها الاخ المراد ان

تعلم بان كافته الانجريز ما قصدهم غير بتقليل قوتك وناموسك

فى ملكك وما يصبروا الى حتا توصل الساعه وياخضو عنك

زنجبار وبما فيها بمثل ما خضو من مده قريبه بمصر

ونواحيها بكثره حيلتهم القويه وانته ساكن فى زنجبار وما

تقدر تفهم بلامور الذى تجرى فى الولايه الحاصل امور كثير

ويوم انا بعدنى ما كنت افهم كلامهم واشرارهم كنت ما

قدرت ان اعرف باحوالهم وديلهين انا اتكيلم بلغة الدچ

والانجريز بمثل لغة العرب وتعلمت باكثر صنعتهم وزينتهم

وكذالك ايضا يوم كنت انته قايم فى بلاد لندن كان انا ما

صبرت حتا ساعه وحده وفارقت اولادى بلحال وسافرت

الى لندن وما كان ظنى غير ان اطيح عليكم ويوم انا وصلت

الى هناك بعد تخريج اموالى بلا قليل كان قاموا احكام

الانجريز وسدو الدرب ما بينى وبينك بحيلتهم الخبيثه

بلسبب هم خافو اذا كنت انا وصلت الى عندك وتراضينا

كان ربما انا حشاورك باشياء بلدك حتى حتربح به انته

دنيافه مملكتك وهاذه ما مرادهم بلا شك وهاذه الامر معلوم

مع جميع الناس فى الولايه وايضا لا تظن يا اخى بان الناس

الغريبين حينفعوك وحينصحوك اكثر من اختكم المحبه لكم

حقا وصدقا وان كنت انته ان تتفضيل على وعلى اولادى ٣

الثلاثه وتتوسع علينا بوصلنا الى عندكم كان ما حتخسر

ولا حتتلومو به فى طول عمركم ابدًا وربى عالم على بانى

انا ما مرادى غير ان انفعكم به بما انا شفت وتعلمت

به من جميع اصناع الولايه ومن طرف اولادى هم فيهم

خير كثير وجميع الناس يحبوهم ويودوهم وهم تعلموا كثير

ونحن حنقدر ان نفيدكم ونشاوركم فى جميع الاشياء الذى

تريدوا احير من جميع الناس الغريبين الذى ما مرادهم غير

ان يشبعوا نفوسهم باموالكم وخيرتكم وبعد حيخلوكم

وحيطيرو عنكم وحيسيرو الى بلدانهم وحيتكلموا عليكم

بلخير والشر وانكنت انا عندكم كان حقدر عديليك انته

خاصه باشيا الذى يقدر ان يكثر مدخولك ويقصر

مخروجك ورعيتك حتربح وانكنت انت ما تترك

أخْيَر e.

على تسمع صوتهم كان حتلوم يوم ما حتنفعك اللوامه

وكذالك ايضا انكنت انته تحتاج على على اقضاء الشغول

من جانب دولت السلطان الدج كان انا قادره ان اسير بنفسى

الى عند السلطان وحكا لمهو من شانكم وهو صاحب خير

بلا قياس والله يا اخى انى انا ناصحه عليكم والمراد من

الله ثم منكم ان تعفوا بلسابق وانته عالم بنفسك بان ما

كامل وبلا عيب فى كافة الدنيا غير سبحانه وتعالى وما

واجب عليكم ان تقسوا علينا فى طول هذه السنين وايضا

اذكر كيف الموت يرعى ما بينا وفى قلت سنين حيكون

ما واحد باقى من اولاد ابونا فى هذه الدنيا الغابره وانكنت

انت حتعزم ان ترضى علينا لان حيفرح سلطان الدج

وعياله وخاصه حرمة ولده فيكتوريا بنت سلطانة

الانجريز الذى هى ناصحه لنا من زمان طويل ويوم انا

اسير الى عندها كانت تسئلنى كل مره هل انت بعدك

زعلان على ولا وهى مغمومه لشى يوم تسمع بانكم

انتو بعدكم زعلانيين وبعد من مدة قصيره انا كنت

معها وقالت لى انها تبغا تعزم الولد سعيد الى قصرها

وهاده يكفى ان يراويك يا اخى كيف نحن محشومين فى

الولايه ومن كافة عيال الدوله وكلهم حيفرحوا الى ابلغهم بانك

انته قد ليينت خاطرك على ومم مستعجبين بلا قياس كيف

يمكن منكم ما تسالوا عن حالنا وما فينا وعلينا فى

مده هاده الزمان وانا الى الحال بعدنى تريكه وما عندى

احد غير الله تعالى واولادى الثلاثه ومن مدة تلتعشر

سينه من مات زوجى الى هاده اليوم ما اردت ان

اتزوج ابدًا وانا ساكنه باولادى فى بلاد بيغلين هيت

يسكن السلطان الحج وعياله وانا متوكله على الله ثم

عليك يا اخى وانا ما اظنى انك انت حتقسا على بعد انت

ما شفت اولادى اللى هم يحبوكم ويودوكم فى خواطرهم وايضا

المراد من الله ثم منك ان تكتموا الجميع الذى انا عرفتك

فيه من طرف الانجريز وانا ما عرفتكم به الا من شدة

محبتى ونصيحتى لكم وكافة عيالكم والتصويره الواصله اليك

هى تصويرتى انا والولد سعيد وانكنت انت تريد تشوف

صورة بناتى كان الاشاره منكم وانا مرسل لكم اياهم فى

اقرب الاوقات ومن طرف عنوانى انا حكتب لك فى قطعة

قرطاس فى لغة البلد وانا ارجى جوابكم العزيز فى ليل ونهار

والله الله يا اخى ثم الله الله لا تقسى خاطرك على اكثر

من هذا وبما صابنى فى الدنيا من الشقاء والتعب كان

يسدنى وان غفرت على كان حيفرج عليكم رب العالمين ؟

وقال الله تعالى لنا اعمالنا ولكم اعمالكم تحية المحبه لكم

حقا وصدقا الناصحه لكم والمشتاقه للقاكم الحقيره الى ربها

تعالى الاخوه سالمه بنت سعيد بن سلطان وايضا يسلم

عليكم الولد سعيد واخوته سلام كثير كثير

ملحاق خير وسرور واما بعد يا ايها الاخ يوم انا ما عبرت

بكتابت هذا الخط قد عرض على وسرت الى عند بنت سلطانت

الانجريز سيده فيكتوريه وقالت لى انا بانها قد تفضلت

وكتبت لكم بنفسها خط على يد حكومة الانجريز وطلبت

منكم ان تمنوا علينا بالصلح والمحبه وعسا الله انكم ما

حتردها وتفضحوا بنفوسكم قدام الناس فى كافة الولايه

وهاده حيكون عليكم عيب كثير كثير والمراد منكم ان

تتامل وتتفكر بلمذكور قبل انته ما ترد الجواب على السيده

فيكتوريه وايضا لا تخبين السر يا اخى بما انا عرفتك من

طرف حكمة الانجريز وانته تشوف بان اهل الاسلا السلاطين

كلهم محبين وناصحين لنا الا الا الحكمه هى الذى تريد

تكسب اموال وبلدان وهاده اليوم رغبتهم فى كل الدنيا

ولكن تساد[illegible] على نفسك وايضا الكوين وجميع اولادها هم

محبين لنا ولاكن انته تعلم بنفسك بان ملوك النصارى

ما لهم قوه مثل ملوك الاسلام وجميع اقتدارهم طايح

فيه يد المملكه وانا اطلب من الله تعالى ان يرق

رسالة أخرى إلى أخيها السلطان برغش

خاطركم علينا وانته حتشوف بعد يا ايها الاخ بان هذا

ما حيكون خسارتكم وانشاء الله انكم ما حتلوسوا به

ابدا باني انا ناصحه اليكم بلا قياس والسلام خير ختام من

المحبه لكم الحقيره الى الله تعالى الاخوه سالمه بنت سعيد.

ساروا وما خبروني ما ساروا سلبوا فوأدي وخلوا في الحشا نارو

يا ليتهم يوم ساروا كنت مقنعهم* الراس ان جلسوا والعين ان ساروا

مُعْتَنِقُهم

وهم سالنى حاء قلبي وان بعدوا وجيت لفواد قط ما جاروا

جسمي نحيل ودمع العين مغترق فوق خدودي لما امواج لبحار

يارب يارحمن تجمع شملنا قبل الممات ولو بيوم واحد

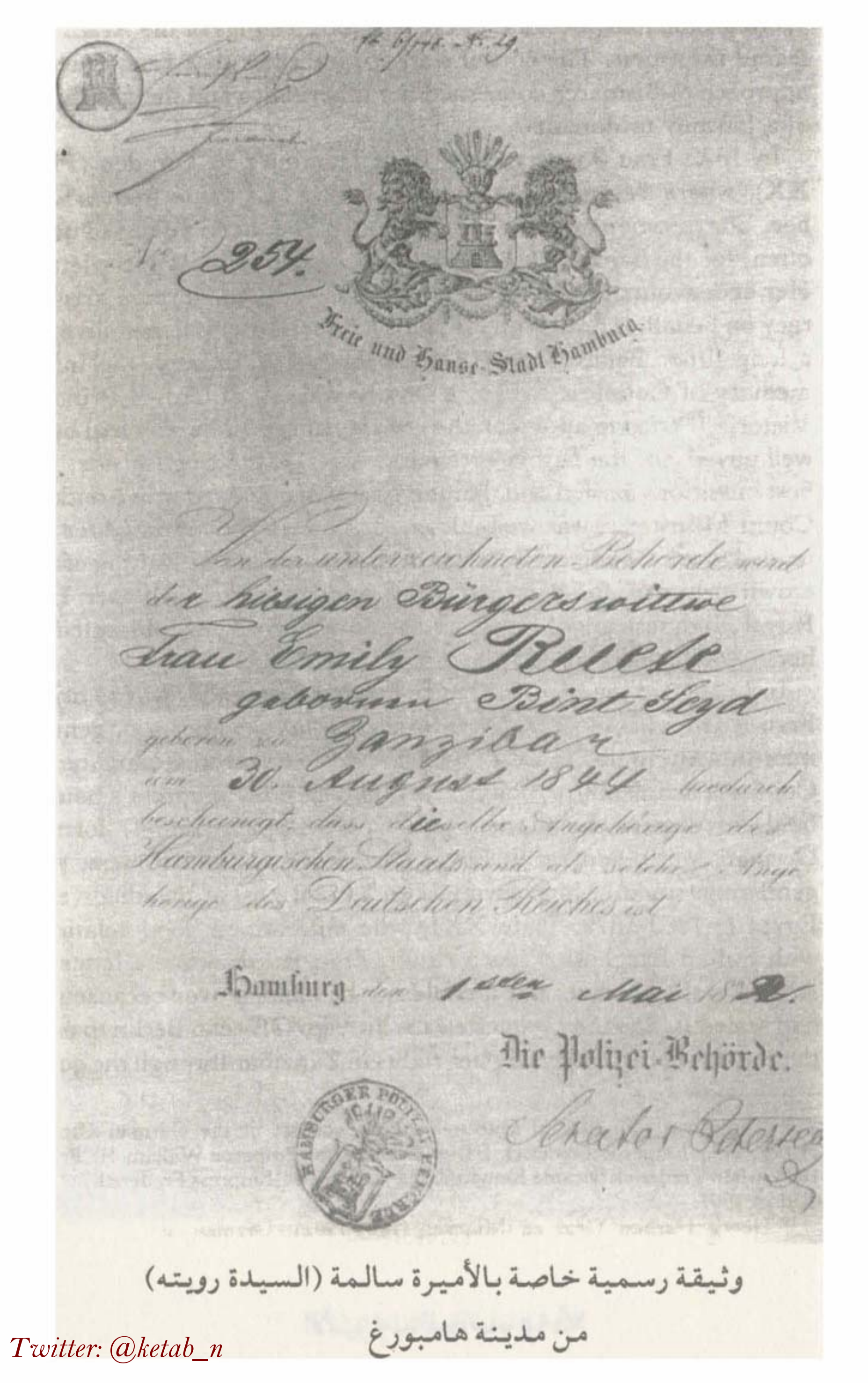
فان عشنا تلاقينا جميع (اجمعا) وان متنا فلله الدوام

ولو كنت طيراً لطرت شوقاً لطرت* وكيف يطير مقصوص الجناح

Kopiert vom Original durch
Rose Troemer - Ruete
Jena, Oktober 1924

* nach Snouck Hurgronje

قصيدة بخط اليد للأميرة سالمة



Freie und Hanse-Stadt Hamburg

No. 254.

Von der unterzeichneten Behörde wird der hiesigen Bürgerswittwe Frau Emily Ruete geborene Bint Seyd geboren zu Zanzibar am 30. August 1844 hierdurch bescheinigt, dass dieselbe Angehörige des Hamburgischen Staats und als solche Angehörige des Deutschen Reiches ist.

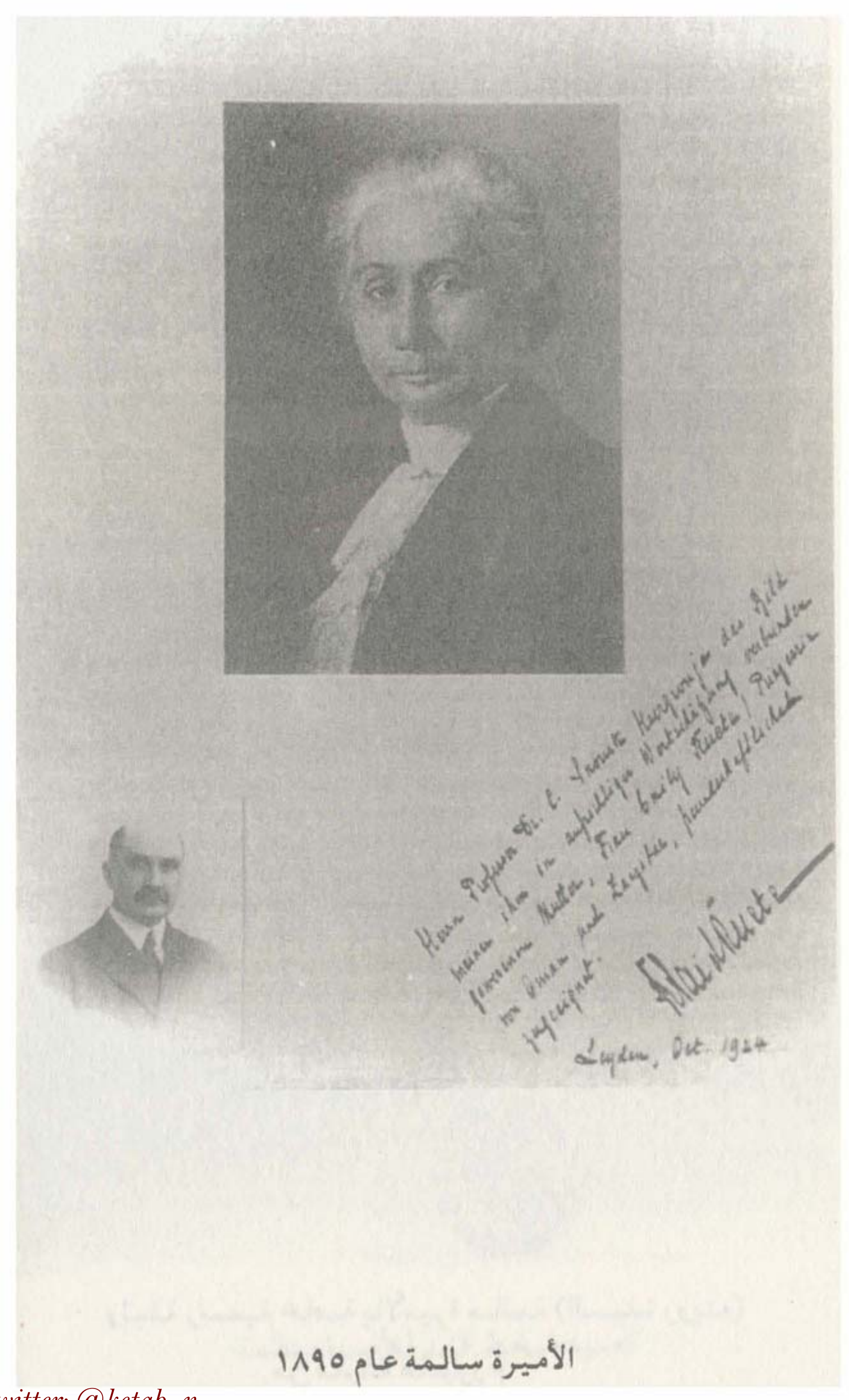
Hamburg den 1sten Mai 18[illegible]

Die Polizei-Behörde.

Senator Petersen

Hamburger Polizei Behörde

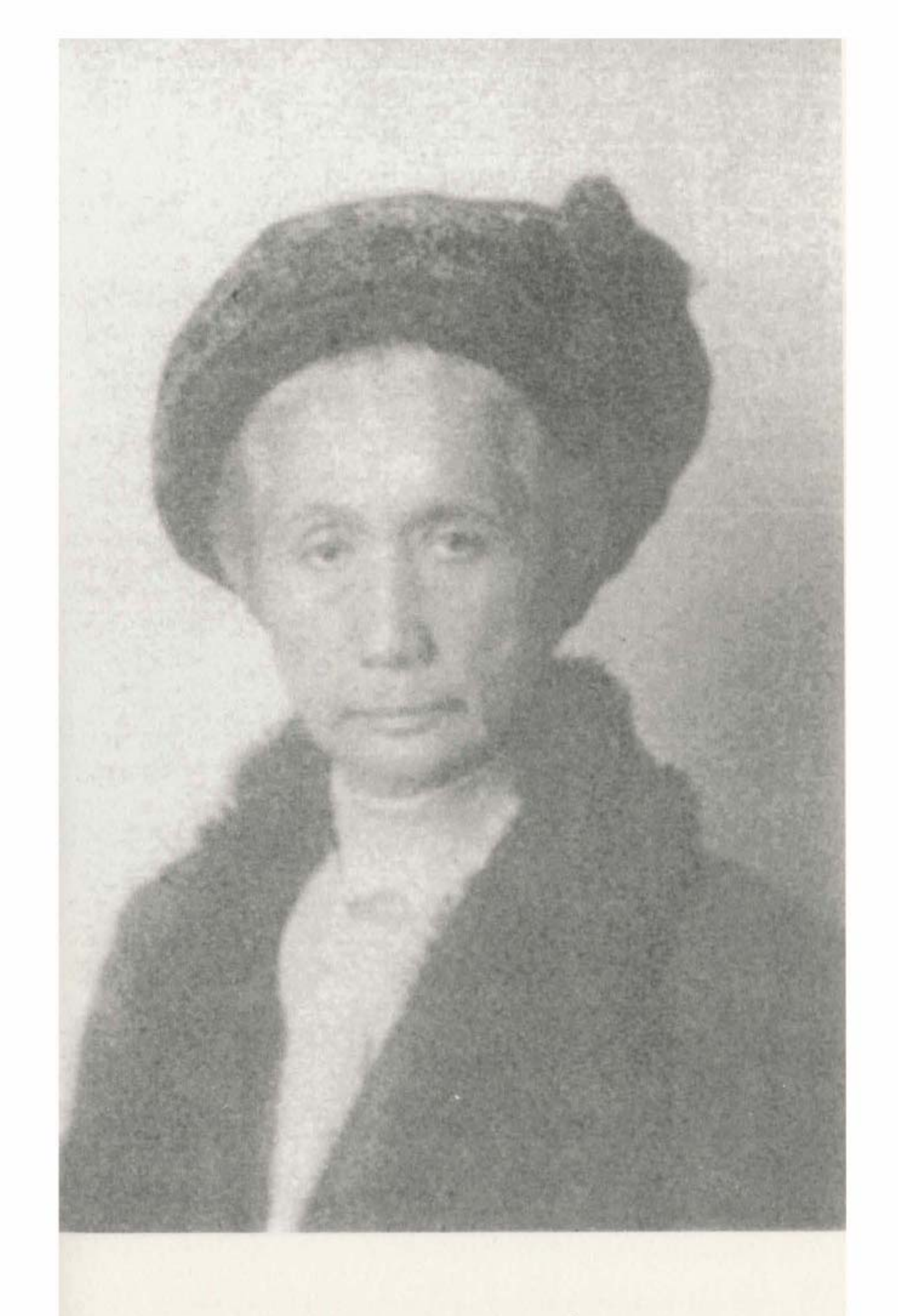
وثيقة رسمية خاصة بالأميرة سالمة (السيدة رويته)
من مدينة هامبورغ



الأميرة سالمة عام ١٨٩٥



الأميرة سالمة عام ١٩١٥



الأميرة سالمة عام ١٩١٦

هذا الكتاب

لم يترجم هذا الكتاب إلى اللغة العربية من اللغة الألمانية (اللغة التي كتب بها) مباشرة حتى الآن، وقد ترجم إلى العربية اعتماداً على ترجمتين إلى الانكليزية صدرت الأولى عام ١٨٨٨ ونشرت الثانية عام ١٩٠٥. من الواضح أن الترجمة الانكليزية التي أعتمدت كانت قد دمجت بعض الفصول ونقلت مقاطع كثيرة من موضعها ووضعتها في سياق آخر. كما لم تخل تلك الترجمة من الأخطاء التي تخلّ بالمعنى.

وإذا كان الفضل في تعريف القارىء العربي بالكتاب لأول مرة يعود إلى الترجمة المذكورة، إلا أن هذا النص فقد قيمته الوثائقية مرة بسبب الحذف ومرة بسبب الإضافة والإسهاب في الوصف الذي يعتمد على المعرفة الشخصية بالموضوع أكثر مما يعتمد على النص.

د.سالمة صالح

